علي الوردي

الازدواجية المسقطة

محاولة في تحليل شخصيته

د. حسين سرمك حسن

سلام الشماع



علي الوردي

الإزدواجية المسقطة:

محاولة في تحليل شخصيته

الكتاب: علي الوردي / الإزدواجية المسقطة: محاولة في تحليل شخصيته

تأليف: د. حسين سرمك حسن

سلام الشماع

الطبعة الأولى: ٢٠١١

تصميم الغلاف: الفنان صدام الجميلي



Al-Yanabia

Sweeden – Stokholm

TEL: ٠٠٤٦ ٨ ٣٦٧٢٠٧

٠٧٣ ٦٨٢٣٠٣٣ - ٠٧٠ ٥١٧٤٦٤٦

دار الينابيع

طباعة. نشر. توزيع

سورية - دمشق

جوال ٠٩٣٢٠٦١٧٣٥ ص.ب ٦٣٤٨

E-mail: daralyanabeea@gmail.com

د. حسين سرمك حسن

سلام الشماع

علي الوردي

الإزدواجية المسقطة

محاولة في تحليل شخصيته

الإهداء

إلى روح شهيد الفكر- رائد حركة التنوير في العراق

العلامة الدكتور علي الوردي-

المؤلفان

(إني قررت أن أرفض أية دعوة للتكريم في حياتي لو فرضنا أنها وجهت لي لسبب من الأسباب ، فأنا واثق أنها لا تنفعني شيئاً في هذه الأيام الأخيرة من حياتي ، فإن أي تكريم أو مكافأة أو شهرة ينالها الإنسان في أواخر أيامه يصدق عليها قول أبي فراس الحمداني:

أتت وحياض الموت بيني وبينها

وجادت بوصل حيث لا ينفع الوصل

أما التكريم بعد الموت فهو لا ينفعني كذلك ، فالإنسان الذي يذهب إلى ربه بعد الموت سيان عنده أن يجري التكريم له في هذه الدنيا أو لا يجري ، لأن حساب الله في الآخرة – كما أشرت إليه آنفاً – يقوم على أساس غير هذا الأساس الذي اعتدنا عليه في هذه الدنيا).

علي الوردي

[من وحي الثمانين]

هذا الكتاب

لم نضع لهذا الكتاب مقدمة، ولم نوّجه الدعوة إلى أحد الأساتذة ليقدّم له لأننا لم نشأ أن نرسم للقارئ موجهات للقراءة، ولم نشأ أن نؤثر على قناعاته.

إننا نريد من القارئ أن يكون حكماً بين رواية كان قريباً من الدكتور «علي الوردي» ومطّلعاً على تفاصيل دقيقة من حياته اليومية وأفكاره ومعاركه الفكرية وعلاقاته برجال عصره، وبين طبيب نفسي حلّل المعلومات التي قدّمها الرواية عن «الوردي» عبر حوار موّسع طويل مع الراوية، ووثائق كثيرة مذكورة في الهوامش والملاحق، ثم عاد الرواية ليعطي رأيه في التحليل النفسي الذي وضعه الطبيب، ووضع بعض الهوامش لما جاء في الكتاب.

الكتاب يشتمل على ثلاثة فصول، الأول تضمن الحوار الموسّع مع الراوية، والثاني تضمن التحليل النفسي، ثم الثالث والأخير تضمّن ردّ الراوية على الطبيب.

هذا أقصى ما نريد قوله عن الكتاب، وأملنا كبير بالقارئ أن يكون حكماً عدلاً بيننا.

الفصل الأول

لمحات خفية

من حياة صاحب اللمحات

(إن العقل البشري بوجه عام لا يستطيع أن ينظر في الأمور نظرة حيادية مطلقة ، لأن هناك عوامل لا شعورية عديدة تؤثر في تفكيره من حيث لا يدري ، كالمعتقدات التي نشأ عليها والعاطفة والمصلحة والأنوية وحدود المعرفة والتجارب المنسية والعقد النفسية وغيرها. فالإنسان حين يفكر يتصور أنه حر مطلق في تفكيره لأنه لا يعرف العوامل اللاشعورية المؤثرة في عقله. فنحن حين نتهم المخالف لنا بالتعصب أو العناد أو الجهل لا ندري أنه هو نفسه يتهمنا بمثل ما اتهمناه به. وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم إذ قال: ((كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)).

علي الوردي

[من وحي الثمانين]

حسين سرمك: اثنان وثمانون عاماً عاشها الراحل الدكتور (علي الوردي)[1]، أي أكثر من ثلاثة أرباع القرن العشرين.. وقد عاش حياة مليئة صاخبة حافلة بالمعارك الفكرية والتحدّيات والعذابات.. وأعتقد أنه الثاني بعد الجواهري[2] الذي عاش قرناً تقريباً والذي يمكن دراسة تاريخ العراق الاجتماعي وتحوّلاته من خلال حياته وفكره ومعاركه.. أستاذ (سلام الشمّاع)؛ كنت صديقاً وتلميذاً وخاتم أسرار العلامة الوردي لسنوات طوال في علاقة

---

(١) ولد الوردي في ٩تشرين الثاني ١٩١٣، وتوفي في ١٩٩٥/٧/١٣.

(٢) ولد محمد مهدي الجواهري في النجف عام ١٨٩٩ وتوفي في دمشق عام ١٩٩٧، ودفن فيها. نسبت عائلته إلى أحد أجداده وهو الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر، الذي ألّف كتاباً في الفقه اسمه (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) ومنه جاء لقب الجواهري. نظم الشعر في سن مبكرة. شارك في ثورة العشرين عام١٩٢٠ ضد البريطانيين. صدر له ديوان (بين الشعور والعاطفة) عام ١٩٢٨. عمل في الصحافة بعد تركه النجف إلى بغداد فأصدر صحف (الفرات) و(الانقلاب) ثم جريدة (الرأي العام). انتخب رئيساً لاتحاد الأدباء العراقيين ونقيباً للصحفيين. أمضى قرابة نصف حياته في المنافي وصدر له فيها عام ١٩٦٥ ديوان (بريد الغربة). (شاعر العرب الأكبر). هو اللقب الذي استحقه بجدارة في وقت مبكر من حياته الشعرية.

متميزة يشهد لها جميع من عاصروا الراحل. من أي مقترب تقترح أن ننطلق لنسبر خفايا حياة الوردي المديدة والشائكة وإشكالاتها ومفارقاتها؟

· **سلام الشمّاع**: شكراً لك دكتور، ودعني أقترح عليك الانطلاق من ذكرى من ذكريات طفولة أستاذي وصديقي العلامة الوردي.. ذكرى بسيطة في ظاهرها لكنها شديدة الغنى بمعانيها النفسية التي شكّلت شخصية الوردي فيما بعد وسأترك التقاط معانيها النفسية لعلماء النفس.. هذه الحادثة كان يكرّرها الأستاذ على مسامعي كثيراً ولا يملّ من إعادتها ويعدّها سبباً أساسياً في إنضاج فرضيته في «الظلم الاجتماعي[1]».

سرمك: في التحليل النفسي هناك فرضية أساس وهي أن تجارب الطفولة خلال السنوات المبكرة هي التي تشكل حجر الأساس في بناء الشخصية الراشدة للإنسان لاحقاً.. ما هي هذه الحادثة؟

---

(١) كان المرحوم الوردي شديد الاهتمام بموضوع الظلم الاجتماعي، وقد روى لي أنه في صباه كان يهم، مرة، بالدخول إلى أحد جوامع مدينة الكاظمية، وشاهد رجلاً قوياً يعتدي على رجل ضعيف، ويمنعه من الدخول إلى الجامع بحجة أنه سمعه يمس الذات الإلهية، وأنه لم يتحمل هذا الظلم الذي وقع على الرجل الضعيف، فتدخل ونهر الرجل القوي الذي لم يستطع الردّ على الصبي (علي الوردي)، احتراماً لنسبه، لأنه كان يضع على رأسه السيدية، وهي غطاء رأس يميز العلويين عن سواهم، ولمعرفة الرجل القوي بأنه لو ردّ على (الوردي) فإن الناس سيقفون ضده مع (الوردي)، وهكذا تخلص الرجل الضعيف من الرجل القوي.

• **الشّماع:** عندما كان الوردي طفلاً استدعي والده إلى خدمة «السفر برلك»[1] العسكرية في صفوف الجيش العثماني لمقاتلة الجيش البريطاني. حاول والده السيّد حسين الوردي عدم الالتحاق بالجيش فألقي القبض على أبيه – جدّ علي الوردي – فاضطر السيد حسين إلى تسليم نفسه.. طبعاً مما يشهد له هو أنه رفض تغيير جنسيته إلى الجنسية الفارسية وكان حينها سيُعفى بصورة قانونية. سيق السيد حسين جندياً إلى البصرة وهناك حصلت معركة «المزيرعة[2]» الرهيبة بين الجيش العثماني والجيش البريطاني.. وهُزِمَ العثمانيون شرّ هزيمة.. وغرق الكثيرون من جنود الجيش العثماني الهاربين في أثناء محاولتهم عبور شطّ العرب للنجاة. وصل أبو الوردي إلى الكاظمية[3] فوجد لحسن الحظ أن اسمه موجود في سجل القتلى من جنود الجيش العثماني.

---

(١) السفر برلك: النفير العام الذي أعلنته السلطات العثمانية في الحرب العالمية الأولى وكان من أهم شروطه هو التجنيد الإجباري والعام للشباب وسوقهم إلى الحرب.

(٢) معركة المزيرعة: من معارك الحرب العالمية الأولى دارت في البصرة بين الجيش العثماني والإنكليزي هزم فيها العثمانيون شر هزيمة وغرق الكثير من جنودهم أثناء محاولتهم الهرب، وذلك عام ١٩١٥.

(٣) هي إحدى البقاع المعروفة في التاريخ القديم، ومن مدن العراق المقدسة، تضم تربتها رفات الإمامين اللذين نسبت إليهما المدينة، وهما الإمام موسى بن جعفر، ومحمد الجواد (ع)، ولذلك يطلق عليها أحياناً اسم (الكاظمين) وهي من المراكز الهامة التي يقصدها الزوار من كلّ مكان في العالم، وإليها تنسب الكثير من البيوتات العلوية والأسر العلمية والأدبية.

سرمك: هذا يعني أن لا أحد سيسأل عنه؟!

· **الشمّاع**: فعلاً، لكنه خشي من الوشاة فذهب سرّاً إلى (النجف) التي كانت قد أعلنت عصيانها على العثمانيين في عام ١٩١٥، وهناك أخذ يعمل في دكان أحد الصاغة - هو صائغ أصلاً- وسكن في غرفة في دار بمحلة (المشراق) ومن هناك أرسل في طلب زوجته يدعوها إلى القدوم إلى النجف مع (علي). فسافرا إلى كربلاء بعربات تجرها الخيول ومن هناك انتقلا بزورق إلى النجف . فاحتفى بهما الأب أيّما احتفاء وأهدى ابنه الصغير بندقية خشبية اشتراها له. **يقول الوردي**: «كنت واقفاً عند باب الدار فرحاً ببندقيتي الخشبية، وفجأة جاء طفل أكبر مني وخطفها وهرب راكضاً وهو يهزها ظافراً ولم أستطع أن أفعل شيئاً.. ودخلت الخان وأنا أبكي واشتكي لوالدتي.. ولم أكن أعلم أن هذا هو حال الدنيا التي يتسيد فيها القوي على الضعيف.. وبعدها شاهدت أهل النجف يهزجون ويرقصون لأن الإنكليز دخلوا بغداد ظافرين»، وفي إحدى زياراتنا إلى النجف أخذني الوردي إلى تلك المحلة ليريني البيت والمكان الذي وقعت فيه الحادثة، وكان معنا المحامي السيد جواد الحبّوبيّ النجفيّ.

سرمك: إن تكرار الوردي لهذه الحادثة التي يمكن أن يتعرض لها أي طفل حتى في العالم المتحضر يعني أن لها أبعاداً نفسية مستترة خلقت شرخاً في نفسه.. أستاذ سلام؛ دعنا نمضي مع طفولة الوردي مادمت قد انطلقت منها.

· **الشّماع**: كما تريد.

سرمك: هل كانت طفولة الوردي قاسية؟

· **الشّماع**: كان يقول لي دائماً إن طفولته كانت قاسية بسبب الفقر والظروف الاجتماعية الصعبة التي كانت سائدة آنذاك، وكان يردّد على مسامعي أنه بسبب تلك الطفولة القاسية كان من الممكن أن يكون أيّ شيء إلاّ علي الوردي الذي «يحجي باليعني[1]».

سرمك: لكن هل كانت طفولته قاسية فعلاً كما كان يقول؟

· **الشّماع**: كلاّ، كانت طفولته مرفهة نسبياً قياساً إلى أقرانه من الأطفال الذين لم يدخلوا مدرسة بسبب الفقر وكانوا يستيقظون فجراً للعمل ومساعدة عائلاتهم، في حين دخل هو المدرسة ولو أنه تركها بعد إصابته بمرض في إحدى عينيه. وعندما كان طفلاً كان يلبس (السيدية) وهي غطاء الرأس الخاص بالسادة العلويين وكان هذا امتيازاً له مقارنة بأقرانه[2] ولم يخلع

---

(١) (يحجي باليعني) كناية شعبية بغدادية عن الطريقة التي يتحدث بها المتعلمون (الأفندية) والتي يمتازون بها عن العوام من الناس، وكانت هذه العبارة كثيراً ما ترد على لسان الوردي رحمه الله.

(٢) كان أغلب السادة العلويين، صغاراً وكباراً، يضعون على رؤوسهم غطاء رأس يسمى (السيدية)، في حين كان الأطفال من الأسر غير العلوية=

الوردي السيّدية ويستبدلها بالسدارة الفيصلية[1] إلاّ في عام ١٩٢٦، ومن المهم الإشارة إلى أن الوردي كان كريم العين بسبب مرض فايروسي أصاب عينه وأفقده البصر فيها، وقد منعه والده من الذهاب إلى المدرسة بسبب ذلك، وعندما ترك المدرسة اشتغل في دكّان أحد العطارين. ومن الطرائف أنّ الوردي كان ينشغل بقراءة الكتب في الدكّان وحين يأتي الناس ويرونه منهمكاً في القراءة يذهبون للشراء من دكّان عطّار آخر، وقد شعر صاحب الدكّان بذلك فأعفى الوردي من العمل.. بعدها قام بفتح دكّان عطارة خاص به وفشل فيه. يقول الوردي: «كنت مولعاً منذ طفولتي بمطالعة الكتب، ولكنّ العطّار أستاذي المرحوم كان يعتقد بأنّ الكتب هي شرّ ما يبتلى بها كاسب يجلس على باب الله.

= يضعون على رؤوسهم غطاءً مستديراً يسمى (العرقجين) وإذا كبروا يلفون على العرقجين كوفية (بشماغ) فيسمى غطاء الرأس هذا، عندئذٍ (جراوية) ينسبه بعض المؤرخين إلى العصر السومري، بعد أن عثر آثاريون على منحوتات فيها اللباس نفسه.

(١) نسبة إلى فيصل بن الشريف حسين بن الشريف علي الهاشمي(٢٠ أيار ١٨٨٣ - ٨ أيلول ١٩٣٣) ولد في مدينة الطائف التابعة لإمارة مكة إحدى إمارات ولاية الحجاز التابعة للدولة العثمانية، وكان الابن الثالث لشريف مكة الشريف حسين بن الشريف علي بن الشريف محمد بن عبد المعين بن عون الهاشمي. في عام ١٩١٣ اختير ممثلا عن جدة في البرلمان العثماني. كان ملك العراق من ١٩٢١ إلى ١٩٣٣ وكان لمدة قصيرة قبلها ملك سوريا في عام ١٩٢٠. تزوج مرتين فقط وله ابنان غازي ومحمد وثلاث بنات (رافعة وعزة وراجحة)..

فالكتب في نظره لا تُعطي خبزاً ولا تُشبع جائعاً. إنّه كان يريد مني أن انتصب في جلستي متيقّظاً أتصيّد المشترين وأقابلهم بترحاب ووجه بشوش، بينما كنت في قرارة نفسي أكره المشترين، ولا يكاد يقبل أحدهم على الدكان حتى أتمتم باللعنة عليه وعلى أستاذي معه، وكنت أنتهز فرصة غياب أستاذي عن الدكان لأنهمك في مطالعة الكتب. ولا أبالي آنذاك بمن يأتيني أو يذهب عنّي من المشترين. وكانت العاقبة أن طردني الأستاذ من دكّانه شرّ طردة، أحمد الله على هذه الطردة، فقد استطعت بها أن أتفرّغ إلى كتبي الحبيبة إلى قلبي، والمظنون أني لو بقيت عطاراً لكنت الآن في دار المجانين – والعياذ بالله!!»[1].

سرمك: كان موقعه في محلة (الأنباريين)[2] في الكاظمية.

• **الشمّاع**: نعم.. وبالمناسبة فهذه المحلة كانت عجيبة، تضم الحِرف كافة وبنحو خاص (العطارة) وكان فيها عشّاب اسمه (السيد إبراهيم الحكيم) يشترك معه في المحل نفسه أخوه (السيد مرتضى) وكان الملك (فيصل الثاني) يتلقى العلاج عنده في

---

(١) جريدة الثورة. ١٩٨٥/٩/٢.

(٢) محلة الأنباريين: تقع في الشمال الغربي من مدينة الكاظمية، ولها باب باسمها في الضلع الغربي من الصحن الكاظمي يؤدي إليها، وكانت امتداداً لمقابر قريش، ويقع في طرفها الشمالي قبر أحمد بن حنبل الذي ابتلعه نهر دجلة، ومقبرة قديمة أكل حي الضباط الجديد قسماً كبيراً منها، ويسميها العوام (مقبرة عويس)، والظاهر أنها مقبرة أويس.

طفولته، المهم أنّ الوردي كان يقول إنه فشل في التجارة بالرغم من ذكائه لأنه لا يمتلك (استعداداً نفسياً) لهذه المهنة وقد يفلح فيها من هو أقل منه في القدرات العقلية[1].

سرمك: أعتقد أنه طرح هذه الفكرة في الكثير من كتبه حيث سخر من فكرة أن المرء يستطيع تحقيق مستقبله وكلّ شيء حسب ذكائه وقدراته.

· **الشمّاع**: نعم.. كان يسخر من فكرة (من جدّ وجد ومن زرع حصد) وقد حصلت مناظرة طويلة بينه وبين الفقيه (سماحة الشيخ عيسى الخاقاني[2])في مجلس الأخير حول ذلك. وحين ذكّره

---

(١) قرر عدد من أصدقاء الوردي ومريديه مرافقته إلى النجف لسماع محاضرته في ثمانينات القرن الماضي، وقد تولى أحد التجار الأثرياء من أقارب الوردي تأمين السيارات والطعام على نفقته الخاصة، وفي المحاضرة التي ألقاها الوردي، وكانت تدور حول الحظ والتخاطر، تطرق إلى ذكر مثال على غباء التاجر أحياناً، وقال: (إنّ أقرب مثل على ذلك موجود بيننا في هذه القاعة).. مشيراً من طرف خفي إلى ذلك التاجر الثري الذي تحمل نفقات نقل الناس وإطعامهم من بغداد إلى النجف وبالعكس.

(٢) آية الله سماحة الشيخ الدكتور عيسى الخاقاني ولد عام ١٩٤٠ من خريجي مدرسة النجف الفقهية. وقد حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية من جامعة السوروبون في فرنسا. مفكر إسلامي ينبذ جميع أنواع التعصب، ولهذا أحبّه الوردي ونشأت بينهما علاقات فكرية وأواصر مودة وإعجاب متبادل، وحضرت مناظرات فكرية دارت بينهما.. يقيم في دولة الإمارات العربية المتحدة.

الشيخ الخاقاني بأن مقولة (من جدّ وجد) مروية أصلاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم وآل بيته عليهم السلام فغر الوردي فاه وقاله له: ها[1]...

سرمك: **لكن كيف عاد الوردي إلى الدراسة بعد أن انقطع عنها بسبب المرض؟**

· **الشمّاع**: بالمناسبة فقد الوردي إحدى عينيه بسبب هذا المرض فمنعه أبوه من إكمال الدراسة ولكن بعد سنوات عدة جاءه صديق وأخبره بوجود مدرسة مسائية فالتحق بها من فوره.

سرمك: **هل صحيح أنه تتلمذ على يدي الدكتور (مصطفى جواد[2])؟**

· **الشمّاع**: نعم.. وكان الدكتور (مصطفى جواد) هو الذي جعله يغيّر لقبه من (آل أبي الورد) إلى (الوردي) حيث قال له إنّ النسبة إلى الورد هو الوردي. وهنا انشقت العائلة. فمنها من غيّر

---

(١) دامت هذه المناظرة أكثر من ساعتين وقد تطرقت إلى موضوع العقل أيضاً، ورأي الوردي بالعقل معروف.

(٢) أستاذ اللغة العربية في العراق، وأحد أهم اللغويين العرب في القرن العشرين. كتب الكثير من الأبحاث والكتب عن اللغة العربية وتحديثها وتبسيطها. كان له برنامج هام في التلفزيون العراقي بعنوان (قل ولا تقل). توفي في العام /١٩٦٩/. ولا نشك في أنّ المرحوم الوردي تأثر به كثيراً في دعوته إلى تبسيط اللغة العربية.

لقبه إلى (الوردي) ومنها من بقي على لقب (الورد) ومنهم العلامة الراحل الدكتور (عبد الأمير الورد[1]) وهو ابن عمّ (الوردي). وقد احتفظ الوردي بعلاقة حميمة بأستاذه (مصطفى جواد) وكان يبعث له بالرسائل بصورة مستمرة من الولايات المتحدة الأمريكية. وعندما عاد من أمريكا اشترك مع أستاذه في برنامج تلفزيوني كان يقدمه (سالم الآلوسي). ومن الملاحظات الطريفة عن هذا البرنامج ما ذكره لي الدكتور النفساني (علي كمال[2])من إشارة إلى أن مسبحة (جواد) كانت ذات حبّات كبيرة يُصدر تصادمها أصواتاً حادة تجذب الناس إلى شخصيته فيواظبون على سماع أحاديثه على الرغم من أنها بالفصحى، في حين كانت حبات مسبحة الوردي صغيرة ويحركها بهدوء ولا تُصدر أيّ صوت، لكن أسلوبه في الكتابة وجرأته في طرح أفكاره هو ما جذب الناس إليه.

سرمك: وهل تعتقد أن هذه علامة للشخصية المسالمة

---

(١) أستاذ اللغة العربية في الجامعات العراقية والليبية واليمنية، وشاعر فذ، وممثل مسرحي وتلفزيوني، شارك في تمثيل وإعداد عدد من المسلسلات والبرامج التلفزيونية الناجحة. توفي بغداد فجر ١٣/تموز/٢٠٠٦، ويصادف هذا التوقيت الذكرى الحادية عشر لوفاة الدكتور علي الوردي التي كانت فجر اليوم والشهر ذاته من سنة /١٩٩٥/.

(٢) علي كمال: طبيب نفساني مشهور في بغداد. فلسطيني الجنسية – عراقي الإقامة. توفي في ثمانينات القرن الماضي. ألفّ كتباً في علم النفس منها: (النفس وانفعالاتها وأمراضها وعلاجها) و(أبواب العقل الموصدة – باب الأحلام) و(النفس والجنس).

للوردي؟ قد تكون هذه العلامة تعبير عن العدوان المكبوت؟

· **الشمّاع**: هذه من وجهة نظرك دكتور؛ بحكم اختصاصك، وأنا لا أوافقك.

سرمك: عفواً، سنصل إلى هذا لاحقاً، لكن دعني أسألك عن سرّ ملكة القراءة المبكرة لدى الوردي؟

· **الشمّاع**: أعتقد أن هذا متوقع. فقد نشأ الوردي في عائلة «قارئة» مشهود لها بالنبوغ في الأدب وفي جميع بيوتها كتب ومخطوطات مثلما نبغت هذه العائلة في التجارة والصياغة. وبالمناسبة فإن عمّ الوردي السيّد (عباس الصائغ) هو الذي عمل شباك الذهب في الحضرة الكاظمية وله آثار أخرى فيها. وجدّه السيد هاشم شاعر لديه مجموعة شعرية ولديه مختارات سمّاها الدكتور (حسين علي محفوظ[1]) بـ(الحماسة البغدادية) وأرجو مراجعة المقدمة المهمة التي كتبها الدكتور (عبد الأمير الورد) للطبعة الجديدة من كتابي عن الوردي (من وحي الثمانين) حيث فيها معلومات وافية عن أسرة الوردي.

---

(١) ولد عام /١٩٢٦/ في مدينة الكاظمية ببغداد لأسرة ينتهي نسبها إلى شمس الدين محفوظ بن وشاح الأسدي الحلي. يعد واحداً من أهم أعمدة الثقافة والمعرفة، وأحد رواد الفكر واللغة والأدب والشعر ليس في العراق فحسب، بل في العالم العربي والإسلامي، ممن مازالوا على قيد الحياة، فهو علامة العراق وشيخ بغداد وأستاذ الأجيال.

سرمك: ماذا عن والدته؟

- **الشمّاع**: هي امرأة بسيطة لكنها من عائلة معروفة ومؤثرة، فهي من أقارب السيّد (جعفر عطيفة) الذي كان رئيس بلدية الكاظمية في العهد العثماني ثم في العهد الملكي، وكانت (المس بيل[1]) تزور بستانه الكبير في محلة الأنباريين في الكاظمية، وعندما تزوج (حسين الوردي) أسكنه عطيفة وزوجته بيتاً صغيراً ضمن البيت الرئيس المطل على شارع الأنباريين. وعلى الرغم من موقف السيّد (عطيفة) المشرّف هذا إلاّ أن أبا علي كان يعامله بصورة غريبة.

سرمك: كيف؟

- **الشمّاع**: كان عندما يأتي السيّد (عطيفة) إلى السوق يقف الجميع مهابةً واحتراماً، عدا حسين الوردي الذي كان يبصق أمامه وكأنه لم يره!!

سرمك: لماذا؟

- **الشمّاع**: لا أعلم. لكنه كان ذا شخصية عنيدة جداً

---

(١) المس بيل: عملت المس غيرترود بيل سكرتيرة للحاكم الملكي العام في العراق. (أي. تي. ويلسن). وقد عرفت هذه المرأة بمقدرتها وسعة اطلاعها على شؤون العراق وأحوال سكانه. أسست المتحف العراقي وخلّصت خان مرجان من معاول الهدم.

ومستخفة وبالرغم من ذلك كان يمتلك روح نكتة عالية جداً. وتروى عنه الكثير من الطرائف. يقال إن طائرة مرّت في سماء المدينة فاختلف الناس، قسم منهم يقول إنّها من حديد والقسم الآخر يقول إنّها من خشب. فالتقط السيّد حسين مطرقة (جاكوج) وقذفها في الجو قائلاً: هذا من حديد وخشب فلماذا لا يطير؟ وبالمناسبة فإن عائلة الوردي بأكملها مشهورة بروح النكتة. يروى عن أحد أجداد الوردي أنه شاهد امرأة ريفية ممسكة بشباك الإمام الكاظم (ع) وتدعوه إلى أن يحطم فلاناً ويأخذ بثأرها منه. فسألها من هو فلان؟ فقالت: زوجي. وما السبب؟ فقالت: تزوج عليّ من امرأة ثانية. فقال لها: إن الإمام نفسه متزوج من ثماني نساء. فدهشت واستحلفته. فأقسم. وعادت إلى زوجها. ويروى عن آخر أنه جاء إلى أحدهم بفرخ دجاج صغير وسأله ما إذا كان هذا الفرخ ذكراً أم أنثى؟ فقال له: اقرصه فإذا (واص) فهو ذكر. وإذا (واصت) فهي أنثى.

سرمك: هل كانت علاقة الوردي بأبيه هادئة أم متوترة؟

- **الشمّاع**: كانت مليئة بالتوترات. والكثير من الأمور التي قام بها الوردي في رسم مسار حياته كانت ضدّ رغبة أبيه. لقد سافر إلى بيروت للدراسة وعاد منها حاملاً شهادة البكالوريوس في الاقتصاد فعيّن في مدرسة الملكة (عالية) للبنات. وبعد مدّة قرّر السفر إلى أمريكا لدراسة علم الاجتماع فثارت ثائرة الأب وقال له: عندما عدت من بيروت عيّنوك في مدرسة للبنات، وعندما ترجع من

أمريكا سيعينوك في (الكّلجية) [1]– أي المبغى العام – لكن الوردي سافر على الرغم من معارضة أبيه. وعندما كان الناس يشكون الوردي إلى أبيه ويقولون له – كما يقول الورد: سيدنا.. من المؤكد أنّ ابنك لا يقول هذا الكلام أمامك. فكان يجيبهم:

---

(١) الكلچية: الاسم الأغلب على ثلاث محلات متجاورات في الشمال الشرقي من بغداد القديمة، الرصافة، والمحلتان الأخريان هي (الميدان) و(گوگ نزر). عُرفت رسمياً بالمبغى العام، وكانت هناك محلة أخرى في جنوب الرصافة القريبة عرفت بذلك الاسم أيضا وهي محلة السِّنَكْ (كلمة تركية تعني الذباب)، وبيوت متفرقة في محلة البتاويين. ومحلة في الكرخ عُرفت بـ(عگد الذهب). ولا أعلم سبب تسمية محلة الميدان بذلك، ولكنني سمعت من الدكتور مصطفى جواد في أحد لقاءاته في المشهاد (التلفزيون) أن الكلچية نسبة إلى (الكَلّة) وهو الاسم الذي يطلقه البغداديون على الجمجمة، ويقصد به هنا: رأس الخروف المذبوح الذي يباع مع الكرش والأطراف، ويسمى الجميع بـ(الباچة) الأكلة العراقية المعروفة – وكانت تباع في تلك المحلة – ويذكر المرحوم الفنان حافظ الدروبي الذي كان يرسم لوحات مديرية الآثار القديمة عن الآثاريين من طرائف ما ينقل أن الباچة معروفة منذ زمن الآشوريين، وكانت إحدى الأكلات التي قُدِّمت في الحفل العظيم الذي أقامه آشور بانيبال في افتتاح مدينة آشور ودعا إليه كلّ العاملين ومن يشاؤون من الناس، وقدمت أيضا في تلك الوليمة أكلة الكبة الموصلية المعروفة. وأما گوگ نزر فيرى قسم أنه اسم موروث من البابلية وأصله: (زگاگ ناظر) أي: زقاق الربيع. وقسم يرى أنه مأخوذ من التركية ومعناه: (العيون الزرق). وقد ألغيت هذه المحلات رسمياً في سنة ١٩٥٧ في عهد وزارة محمد فاضل الجمالي على ما أتذكر. (الهامش للدكتور عبد الأمير الورد).

الناس أنواع.. فمنهم من له وجه واحد، ومنهم من له وجهان، أمّا ابني علي فمثل ساعة الصحن له أربعة أوجه[1].

سرمك: يقال إن طلبه للابتعاث رفضته الوزارة وإنه سافر بوساطة السيّد (محمّد الصدّر) رئيس مجلس الأمة آنذاك؟

· **الشمّاع**: صحيح أن طلبه رُفض ولكن الذي توسط له ليس السيّد الصدر بل السيّد (عبد المهدي المنتفكي) والد السيّد (عادل) نائب رئيس الجمهورية الحالي، كما أظنّ.

سرمك: كيف كان موقف الأب عند عودة الوردي من أمريكا؟

· **الشمّاع**: قال له جملة واحدة: (ها. علي. جيت) وغادر البيت إلى فندق (الأحمدي) ثم إلى بيت بنت أخته والدة الدكتور عبد الأمير الورد.

سرمك: وما الذي حصل للوردي في أمريكا؟

· **الشمّاع**: حصل له شيء عجيب. فقد تغيّر كلّياً، وعاد بمفاهيم جديدة تماماً ومغايرة لما ذهب به. لقد تعرض لصدمة شاملة وشديدة. كان منذهلاً جداً وهو يلاحظ النهضة التكنولوجية هناك، وقد تجسد هذا الانسحار في رسائله التي بعث بها إلى صديقه النحات (خليل الورد) وهو من جيل (جواد

---

(١) لساعة الصحن الكاظمي وسائر المراقد المقدسة في العراق أربعة أوجه.

سليم[1]). كان يحدثه عن الأعاجيب والمعجزات. يقول له: أنت لا تمشي في الشارع بل الشارع يمشي بك إشارة إلى الأحزمة المتحركة والسلالم الكهربائية.. وكيف يستعملون المناديل الورقية بدلاً من القماشية.. ولكنني أعتقد أن الصدمة الأهم كانت في مجال المفاهيم والقيم الاجتماعية، والتي خلّصته من عقدة الاستكمال (الوسواس).

سرمك: كيف؟

· **الشمّاع**: لنأخذ مثلاً موضوعة (الشرف) الخطرة في مجتمعنا حيث نجد أنها مرتبطة بعفّة المرأة عموماً، في الشارع الذي سكن فيه الوردي في نيويورك كان السكان من الأمريكيين يحبونه ويحترمونه ويتقربون منه، لكنه لاحظ أن هناك امرأة تحاول التقرّب منه لكنّها لا تستطيع لأنّها منبوذة ومعزولة ولا أحد يكلّمها من سكان الشارع. فبادر هو إلى الحديث معها بعد السلام عليها لكنه لاحظ بعد ذلك أن الأهالي نفروا منه وبدأوا

---

(١) جواد سليم: (١٩٢١ – ١٩٦١) نحّات من العراق يعدّ من أشهر النحاتين في تاريخ العراق الحديث. درس النحت في باريس عام ١٩٣٨ – ١٩٣٩، وفي روما ١٩٣٩ - ١٩٤٠، وفي لندن ١٩٤٦- ١٩٤٩. رأس قسم النحت في معهد الفنون الجميلة حتى وفاته في ٢٢ كانون الثاني ١٩٦١. أسس جماعة بغداد للفن الحديث، أحد مؤسسي جمعية التشكيليين العراقيين في العام ١٩٥٩. أنجز نصب الحرية في ساحة التحرير ببغداد الذي هو من أهمّ النصب الفنية في الشرق الأوسط.

بالابتعاد عنه، ولم يعودوا يحبّونه، وعندما سألهم عن السبب؟ قالوا له: لقد تحدثت مع هذه الامرأة وهي ليست شريفة. وعندما سألهم عن سبب كونها غير شريفة، قالوا له إنّها كانت تشعل شمعة أثناء ساعات التعتيم في الحرب العالمية الثانية!!

سرمك: وهو الذي عاش في مجتمع يربط شرف المرأة ببكارتها؟

· **الشمّاع**: ليس هذا فقط، كانت صاحبة البيت التي سكن عندها الوردي وقت وصوله إلى الولايات المتحدة تشكو له من كون ابنتها محرومة جنسياً لأنها بدينة ولا أحد يصادقها. تصوّر ما الذي حصل للوردي وهو يستمع إلى معاناة هذه الأم (المسكينة!!). لقد تغيّر تماماً. تصوّر كان هناك مكان يستطيع فيه تسجيل رسائل صوتية إلى عائلته في العراق، كان جميع الطلبة يبعثون بالرسائل والتحيّات إلى ذويهم عدا الوردي الذي كان يبعث بالتوجيهات الصحيّة إلى أولاده.

سرمك: مثلاً؟

· **الشمّاع**: كان يدعو أولاده إلى عدم التبرّز في الشارع.

سرمك: وهل تعتقد أن هذا موقف صحّي لا يحمل مضامين نفسيّة سلبيّة؟

· **الشمّاع**: لقد كانت هذه عادة سيئة لدى الأطفال في

بغداد، وهي تسبب الأمراض بين الأطفال - حسب رأيه- وبنحو خاص الديدان – كان حريصاً على أولاده.

سرمك: لكن الاهتمام بالأمور الشرجية من على بعد آلاف الكيلومترات يوحي بوجود سمات (شرجية) في شخصية المعني سنشير إليها لاحقاً.. لكن دعنا نكمل كي لا نفسد مسار الحديث.. لقد عاد الوردي ناقماً على كلِّ شيء.

· **الشمّاع**: لا أنا أقول إنه عاد ثائراً وداعياً إلى التغيير والتنوير بدليل ما أحدثه من هزّات في بنية المجتمع العراقي وقناعاته..

سرمك: وأشعل الشرارة بمحاضرته الشهيرة عن (شخصية الفرد العراقي).

· **الشمّاع**: من هذه المحاضرة - أو (المحضّرة) كما يحلو لصديقي الأستاذ الدكتور نعمة رحيم العزّاوي أن يسميها - انطلقت الشرارة لتسري كالنار في الهشيم وتهزّ ثوابت المجتمع العراقي في المجالات كافة وعلى المستويات كافة.

سرمك: ومعها انطلقت الحرب الشعواء عليه وحملات التهم الجاهزة: عميل أمريكي، عميل بريطاني، ماسوني، شيوعي، شيعي، سنّي...

· **الشمّاع**: صدقني.. لم يتعرض مفكر في العراق لاتهامات عجيبة ومتناقضة مثل الوردي.. لقد وُصف أولاً بأنه عميل

أمريكي.. ولهذا حادثة طريفة.

سرمك: ما هي؟

- **الشمّاع**: في إحدى المحاضرات في منتدى الكاظمية كان الوردي يتحدث عن جوانب سلبية في حياة المجتمع العراقي، فقام المحامي (أنور السامرائي) وكان صاحب صوت جهوري وصاح بعصبية: أسكتوه – أي أسكتوا الوردي – هذا عميل أمريكي ورقم إضبارته في المخابرات هو (٧). حاول بعض الحاضرين الرد على نزق المحامي بقسوة لكن الوردي منعهم وقال بهدوء: إخوان. أنا صحيح جاسوس أمريكي كما يقول الأخ (أنور) ولكن رقم إضبارتي ليس (٧) بل (٦)، ولكني أعتب على الحكومة التي تكشف عملاءها وجواسيسها بسهولة. وأشار بأصبعه إلى أنور السامرائي مما أضحك الجميع.

سرمك: لقد امتصّ الموقف بسخرية مسمومة..

- **الشمّاع**: طبعاً وهذا هو ديدنه. أمّا عن تهمة (شيوعي) فلها واحدة من الحوادث الطريفة. كان هناك قيادي شيوعي – عضو لجنة محلية – اسمه (علي حسين الوردي) وهو يطابق تماماً اسم الوردي، هذا الشخص قدّم اعترافات كاملة في التلفزيون عام ١٩٦٣، وعندما كان الوردي مارّاً أمام مقهى في مدينة الكاظمية سمع أحد الأشخاص الجالسين في المقهى يقول لصاحبه: أنظر إلى هذا الكلب كيف يريد أن يخدعنا ويوحي إلينا بأنه عالم اجتماع

وهو في الحقيقة قيادي شيوعي؟!. فأجابه صديقه: لكن هذا – يقصد القيادي الشيوعي – ضعيف، وذاك – الوردي – سمين. فقال صاحبه محتداً: «إي غير بسبب البسط» (أي بسبب التعذيب الذي ناله قبل انتزاع اعترافاته). والأمر الأخطر هو ما كتبه الناقد المعروف الدكتور (علي جواد الطاهر) في جريدة «القادسية» في كانون الأول من عام ١٩٩٢ عن الوردي فقال عنه واصفاً إياه بأنها انتهازي في الإثارة الفكرية وأن الشهرة لديه أكبر من الحقيقة، انظر إلى ردّ الوردي على الطاهر حيث قال في لقاء مع الباحث (حميد المطبعي) إلى أنّ هذا الوصف من الدكتور الطاهر هو بمثابة «زلاطة» بالنسبة له، فهو اعتاد في حياته أن يواجه انتقادات أبشع مما قاله الطاهر فيه، فقد اتّهمه بعض النقاد بأنه شعوبي أو عميل للاستعمار، أو أنه مصاب بعقدة نفسية تدفعه إلى مخالفة المألوف على طريق الرجل الذي بال في بئر (زمزم). ويقول الوردي إنه يحتفظ بالمقالات التي كتبت في ذمه كما يحتفظ بالكتب التي صدرت ضدّه وسوف ينشر ملخصاً عنها في مذكراته التي سوف تُنشر بعد موته لكي يعرف القرّاء في الأجيال القادمة عقلية الجيل الذي نعيش فيه الآن. ويذكر الوردي أن ناقداً كتب عنه مقالاً في مجلة «آفاق عربية» في شهر آب/١٩٨٦ قال فيه: «إنّ الوردي في جميع كتبه يدور في حلقة مفرغة يقصد بها مخالفة المألوف وأنه يقحم نفسه في مواضيع لم يستكمل عدتها». وقد كتب الوردي ردّاً على هذا الناقد نشره في جريدة «الاتحاد» لأنه لم يتح له أن ينشر الرد في المجلة نفسها التي نشرت النقد. وكان من

جملـة ما قاله في ردّه ما نـصّه: «لـيس لـي مـن ردّ عليـه، فالقـضية ليست طوع يدي أو طوع يده، فكلّ واحد منّا لـه مزاجـه الخـاص بـه، وفي مقـدار أي شـخص أن يوجـه الاتهـام إلى أي شـخص آخـر حسب وجهة نظره أو عاطفتـه، والتـاريخ هـو الـذي يقـرّر الحقيقـة الوسطى بين هذا وذاك».

سرمك: على ذكر تهمة (الشيوعية) هل كان الوردي ملحداً؟

· **الشمّاع**: كلاّ. لكن آراءه الحادة التي امتدت لتواجه الفهم التقليدي للدين ودعواته المتحضرة في مجتمع محافظ هي التي دفعت بعض الناس إلى الاعتقاد بأنه ملحد، وسأذكر لك بهذه المناسبة ما أخبرني به سماحة الشيخ جواد الخالـصي، قـال لـي: (اشـتهر عـن الـوردي بعـده عـن الـدين، بـل إلحـاده.. وأذكـر أن مـدير الـشعبة الخامسة في الأمن العراقي، وكنت معتقلاً آنذاك جاء في إحـدى الليـالي وتحـدث عـن الفكـر والحـوار الفكـري لتلـيين الأجـواء المتشنّجة، بعد التعذيب الشديد، فجاء على ذكر الوردي فقال عنه ما هو مشهور عنه (هذا الكاتب الوجودي)، وقد حدثني المرحوم الحـاج برهـان الـدين النعمـة وهـو صـديق الـشباب مـع الـوردي، أن صديقه كان يتلفّظ ببعض العبارات مع القريبين منه، تُظهر إنكاره للثوابت ومنها قضية الوحي ونزول القرآن.. ونصّ عبارته التي نقلها أنّ الـوردي قـال: (محمّـد ذكـيّ وعـن وكـائـد أنـه تمكـن مـن صـنع القرآن)، ولـكنني، الآن، أشتغل علـى كتـاب عـن (نقـد الفكـر الماركسي) من وجهة نظر الوردي، وستجد أن للوردي اعتراضات

جوهرية على الفكر الماركسي، وأنّه ليس ملحداً كما هو مظنون.

سرمك: **لكن هل كان الوردي ملتزماً من الناحية الدينية؟**

· **الشمّاع**: بصراحة، هذا سؤال مربك.. لأنني أجد الوردي متناقضاً في هذا المجال.. فأنا لم أسمع منه كلمة (صلاة) إلا ما يخص الصلاة التي يصفها بأنها (صلاة الصوفية) والتي يؤديها وهو يمشي على جسر الأئمة عند الغروب.. وحين كنا نحضر بعض المآتم ونبدأ بقراءة سورة الفاتحة كان هو لا يقرأ السورة بل يردّد بعض الكلمات الغريبة غير المفهومة.. وحتى عندما جاء معي هو والدكتور (حسين علي محفوظ) كخبيرين للشهادة في القضية التي رفعها ضدي زير التربية عبد القادر عز الدين أواخر الثمانينات وطلبت منه السيّدة القاضية بأن يضع يده على القرآن ويقسم بأن يبدي رأيه كخبير مؤتمن كان يطلق مثل تلك الكلمات وحين اعترضت القاضية قال لها: أناً أردّد القسم في داخلي!! من ناحية ثانية كانت لدى الوردي لازمة مهمة وذلك حين يتعرض لمواقف معينة حين يردّد بصوت مسموع وبترتيل واضح «بسم الله الرحمن الرحيم❖ والضحى❖ والليل إذا سجى❖ما ودعك ربك وما قلى». كما أن المرحوم الدكتور عبد الأمير الورد قد ذكر في المقدّمة التي وضعها لكتابي «من وحي الثمانين» أنّ الوردي الذي يعرفه لم تكن له علاقة بالالتزام الديني اليومي، الصلاة والصوم أو غيرها. أمّا علي الوردي الذي وجده – ويقصد به الوردي في السنوات الأخيرة التي سبقت وفاته – فقد كان

يؤدي الخمس بأوقاتها ويستعين بقراءة الأوراد والأدعية. لكنني شخصياً لا أستطيع تأكيد هذا الرأي، إلا أن ما أستطيع أن أؤكده هو أنه كان يشعر بالندم وبالذنب حيث اعترف في اللقاء التلفزيوني الأخير الذي أجريته له في قناة تلفزيون بغداد الثقافية آنذاك بأنه يعدّ نفسه مخطئاً ولو أنّ الله مدّ في عمره لحاول التراجع عن كثير مما أثبته في كتبه، وكان من بين الذين حضروا إجراء اللقاء التلفزيوني الدكتور (حسين علي محفوظ) والصحفي الأستاذ (مؤيد عبد القادر) والسيّد (حيدر الصدر) والمرحوم الباحث (عباس علي) والدكتور (عبد السلام رؤوف) والسيّد (عبد المطلب الأعرجي). وأتذكر أنه ردّد مع نفسه – في نهاية البرنامج- جملة خطرة حيث قال هامساً: «بأي وجه سوف أقابل ربي»!! – وقد بثّها التلفزيون وسمعها جميع من شاهد ذلك اللقاء.

سرمك: لكن علماء الشيعة كانوا يهاجمونه على المنابر.

- **الشمّاع**: نعم.. بعضهم كان يقول: «المفسدات ثلاث: الميسر والخمر وأفكار علي الوردي».. وقد حاول بعض الناس الاعتداء عليه جسدياً.. كما فكر بعضهم في قتله بعد صدور كتابه «وعاظ السلاطين»..

سرمك: وهل كفّروه حقاً؟

- **الشمّاع**: نعم. وهنا يبرز دور الإمام المجاهد «محمد محمد

مهدي الخالصي[1]» كرجل دين غيور ومتنور في حسم هذه المعضلة الخطرة حيث أخبرني الشيخ (جواد الخالصي) نجل الإمام المجاهد أن جماعة من العلماء كفروا الوردي وأقاموا عليه الدنيا ولم يقعدوها. فأرسل الإمام المجاهد بطلبهم للاجتماع بالوردي أمامه للمناظرة قائلاً لهم: «إنكم تدخلون الخرافات إلى الدين وعندما ينتقدكم أحدهم تثورون عليه، فلا تدخلوا الخرافات لئلا ينتقدكم أحد». وقد حصلت هذه المناظرة فعلاً وسمّيت (مناظرة التكفير). إذ تحدث فيها الوردي طويلاً وانتصر على من كفّره. وعند انتهاء المناظرة أرسل الخالصي مع الوردي من يوصله إلى بيته حماية له من أي اعتداء قد يتعرض له في الطريق، ويقول الشيخ جواد الخالصي إنّ أخاه الشيخ محمد محمد مهدي كان من جملة من رافق الوردي في ذلك اليوم.

سرمك: وهل بقيت تهمة أخرى بعد التكفير؟

---

(١) هو الشيخ محمد محمد مهدي الخالصي الكاظمي الأسدي: آية الله العظمى. ولد في الكاظمية عام /١٨٨٨م/. تدرج في مدارج العلم حتى غدا من كبار علماء الكاظمية في وقته. وقد تم انتدابه من قبل أهالي كربلاء هو وعبد الحسين نجل الإمام محمد الشيرازي وبعض الشيوخ والسادة لينوبوا عنهم لدى المحتلين الإنكليز لشرح مطالبهم. وقد كان شديد اللهجة مع الإنكليز حتى أنهم كانوا حذرين في مقابلاتهم له بتصريف كلامهم لأنهم علموا تأثيره على العراقيين عموماً.. توفي عام ١٩٦٣ في الكاظمية ودفن في المرقد الكاظمي الشريف.

• **الشمّاع**: نعم، لقد اتهم الوردي بأنه فارسي في حين أنه من عائلة حجازية عربية مؤصّلة. لقد قال عنه أحد الكتاب في التسعينيات: «وحسب اعتقادي ينتمي الوردي إلى جيل طازج من المهاجرين الفرس إلى العراق». وقد ردّ الدكتور (الورد) على هذه التهمة وسفهها وفنّدها تماماً في مقدّمته. ولكنني عشت مع الوردي حادثة مهمة ترتبط بهذه التهمة. ففي أثناء الحرب العراقية الإيرانية طلب منّي الوردي مرافقته إلى مديرية الجوازات لتجديد جواز سفره. وعندما دخلنا إلى غرفة الضابط المسؤول وجدنا عنده مجموعة من النساء فحاول هذا الضابط الاستخفاف بالوردي.. حيث أمسك بالجواز وبدأ يهزه ويقول: «أنتم بيت الوردي ما هو أصلكم؟ هل أنتم تبعية لكي نسفّركم؟ من أين أنتم؟» فأجابه الوردي بهدوء قائلاً: «والله نحن من الحجاز ولكنّنا تورطنا وجئنا إلى العراق!!»

سرمك: لم تبقَ جهة لم تهاجمه؟

• **الشمّاع**: تصوّر أن بسطاء الناس ورعاعهم كانوا ينسجون أوهاماً حول الوردي. ذات مرّة دخل إلى المقهى فأراد أحد الأشخاص النهوض لتحيته فسحبه صاحبه ومنعه من القيام قائلاً: «هذا فاسد.. شاهدته في (دروازه قزيني)[1] في طهران. فقال له صاحبه: «يجوز أنه ذهب للدراسة. فردّ عليه الأول غاضباً: أقول لك لقد رأيته

---

(١) المبغى العام في العاصمة الإيرانية.

بالكلّجية وهو يقول لي إنه يدرس بالكلّية..

سرمك: قد يكون مبّرراً موقف العامة ورعاعها من الوردي في شتمه ومحاولة الاعتداء عليه لأسباب تتعلق بوعيها وطبيعة شخصيتها.. لكن كيف نفسّر محاربته في الوسط العلمي الذي من المفترض أن يحتضنه ويعمل لمساندته؟

· **الشمّاع**: دكتور.. لقد خلق الوردي ما يشبه الهزة الأرضية الثقافية إذا جاز التعبير آنذاك.. وكان جانباً من تأثيرات أفكاره هو أنها كشفت وعرّت الكثيرين من الذين سخّروا علومهم لمساندة السلطان الجائر وتحجيم وعي الناس وتزييف الحقائق وليّ أعناقها.. تصوّر أنهم رفعوا في كلّية الآداب قسم الاجتماع حتى المنضدة الخاصة به حيث كان هناك تقليد في جامعة بغداد في أن يكون هناك امتياز لمن هو بدرجة (أستاذ متمرس) وهو أن لا ترفع منضدته من القسم الذي كان يدّرس فيه ولا يشغلها أحد بعد تقاعده، فهي متروكة له يستطيع أن يستخدمها متى أراد كنوع من التكريم والتقدير لخدماته العلمية. كما لم تتم دعوة الوردي إلى أيّة ندوة أو اجتماع يُدعى إليه غيره من الأساتذة المتمرسين. ولو قرأت الرسالة التي وجهها الوردي إلى رئيس جامعة بغداد [1] في ١٤/٩/١٩٨٩ والتي نشرت نصها مكتوباً بخط يد الوردي نفسه في كتابي (من وحي الثمانين) لقطّع قلبك الأسلوب وطريقة عرض

---

(١) كان رئيس جامعة بغداد آنذاك (الدكتور طه تايه النعيمي).

الشكوى وبنحو خاص في خاتمتها: «سيّدي رئيس الجامعة.. إني لا يهمني أن أكون أستاذاً متمرساً أو متقاعداً، فهما سيّان في نظر من هو مثلي يعيش في أيامه الأخيرة. ولكن الذي يهمني هو أن أعرف الحقيقة في هذا الصدد. فإني قد كتبت على غلاف كتبي التي صدرت بعد عام ١٩٧٠ – وهو عام إحالته إلى التقاعد من الجامعة بناءً على طلبه – بأني أستاذ متمرس، وربما صدرت لي كتب أخرى في أواخر أيامي. فالرجاء منك تبيان الحقيقة لي لكي أعلن ذلك للقراء فلا يبقوا مخدوعين بي. والله الساتر على كلّ حال..». لقد حورب الوردي في العهود كلّها.. فقد ذكر مرّة لحميد المطبعي قصته مع التلفاز ليوضح بها مبلغ المعاناة التي يعانيها مع كلّ الجهات. ففي عام ١٩٦٠ اتفقت إدارة التلفاز مع الوردي على أن يكون له وقت فيه لبحث بعض القضايا الاجتماعية على طريقة «اسأل ونحن نناقش»، وقد استمر التلفاز على بث هذا البرنامج أسبوعياً لمدة ليست طويلة. ثم جاء الإيعاز من مصدر عالٍ في حينه يأمر بالتوقف عن بث المنهج. وكان الإيعاز جافاً لا اعتذار فيه. وعلم الوردي بعدئذٍ أن بعض المسؤولين الكبار وكثير من الناس لم يرضوا عن الآراء التي وردت في البرنامج فهم يحسبون آراءهم أصح من الآراء العلمية التي جاء بها الوردي.

سرمك: لكن هل يعقل أن علامة بهذا المستوى ورائداً من رواد التنوير وعلم الاجتماع في المجتمع العراقي يعامل بهذه الطريقة؟

- **الشمّاع**: هناك ما هو أكثر من ذلك، ففي إحدى

المحاضرات التي ألقاها الوردي في اتحاد المؤرخين العرب في بغداد والتي ركزّ فيها على الجوانب السلبية والسيئة في تاريخ بغداد، وانتقد من يكتفي بذكر محاسنها وإيجابياتها، نهض أحد الحاضرين وهو عميد كلّية الآداب آنذاك المرحوم (الدكتور نوري حمودي القيسي) وطالبه بالتوقف عن محاضرته وإلاّ استدعى الشرطة للقبض عليه.

سرمك: ماذا كان رد فعل الوردي في تلك اللحظات الحرجة؟

· **الشمّاع**: ردّ عليه بهدوء وبابتسامة استهزاء وقال: «انظروا إلى هذا العميد، فإنه أفضل مثال يمكن أن آتي به على ما أقول». لقد تعرض الوردي في أواخر أيامه إلى مضايقات كثيرة من قبل أشخاص كانوا يوحون بأنها تأتي بفعل توجيهات من جهات عليا ولم يكن لهذا أي أساس من الصحة، كانوا يعملون على وفق قاعدة (ملكي أكثر من الملك!!).

سرمك: ألم يسجن الدكتور علي الوردي في ظل النظام السابق كما ذكر ذلك (الدكتور عبد الإله الصائغ) مؤخراً؟

· **الشمّاع**: لم يُسجن على الإطلاق، وقد دهشت لما ذكره الدكتور عبد الإله الصائغ عن سجن الوردي لأن هذه المعلومة لا أساس لها من الصحة.. ولا أدري هل أبدو متطرفاً أو مبالغاً إذا قلت لك إن الدولة كانت تهاب الوردي؟

سرمك: ما هو الدليل على هذا الرأي الذي سيصدم الكثيرين؟

- **الشّماع**: دليلي على ذلك هو محاضرة الوردي الصاعقة بعد أحداث عام ١٩٩١.

سرمك: والتي أصابت محبيّه بالرعب وسميناها «قنبلة الوردي الانتحارية»؟!

- **الشّماع**: نعم. كانت أشبه بالكارثة. وقد كنت شاهداً على تفصيلاتها الخطرة، وحاضراً في القاعة التي ألقى فيها المحاضرة وحضرها عدد كبير من مريدي الوردي مثل الدكتور عبد الأمير الورد ومحمد الخاقاني[1]. ألقى الوردي هذه المحاضرة أواخر شهر آذار عام ١٩٩١ في منتدى أمانة بغداد، وكان المنتدى يعقد جلساته عادة في قاعة تقع في الطابق الثاني من بناية المتحف البغدادي، ولكن القاعة ضاقت بالحاضرين الذين وقفوا على السلالم. بل حتى في الشوارع المجاورة فأوعز أمين بغداد[2] بنقل

---

(١) هو أبو علي الأستاذ محمد ابن الشيخ عيسى الخاقاني. ولد في عام ١٩٦٣، أدار مجلس الخاقاني الثقافي الأسبوعي في دار والده في الكاظمية وكان أحد مؤسسي ذلك المجلس، أكمل دراسته في كلّية اللغات متخصصاً بالأدب الفارسي حيث نال شهادة الماجستير في الأدب المقارن عن رسالته الموسومة (حافظ الشيرازي وغوتة) في العام ١٩٩٩.

(٢) كان أمين بغداد يومها المرحوم (خالد عبد المنعم رشيد)

المحاضر والمحاضرين بحافلات كبيرة إلى القاعة الكبرى في مبنى أمانة بغداد والتي ضاقت هي الأخرى بالحاضرين على الرغم من اتساعها. وقد كانت هذه المحاضرة حدثاً مهماً في تلك الأيام لتزامنها مع انتهاء حرب الخليج الثانية وما أعقبها من أحداث في محافظات العراق حيث عدّ بعضهم حوادث السلب والنهب والعنف تأكيداً لنظريات الوردي وتحليلاته بشأن تأثير البداوة في شخصية العراقي. وفي تلك المحاضرة أعلن الوردي بنحو هادئ غضبه على الطريقة التي تعامل بها النظام مع ما سمي وقتها بـ(الغوغاء) أو (صفحة الغدر والخيانة) ومن الطريف الذي يجدر ذكره هنا هو أن أمين بغداد تقدم إلى المنصة ووضع جهاز تسجيل أمام الوردي، وعندما سأله الوردي عن سبب تسجيل المحاضرة قال له أمين بغداد: إن السيّد الرئيس (صدام حسين) يريد الاستماع إليها. وهنا تحوّل الوردي إلى انتقادات حادّة وصريحة ليسمعها الرئيس. وقال فيما قال: «نحن لسنا فئران تجارب لتدخلونا كلّ يوم في تجربة جديدة، فما معنى أن تستحدثوا مثلاً (شرطة أخلاق)[1]، بالله عليكم هل لدى الشرطة أخلاق أصلاً؟ فإذا كنتم قد ضللتم الطريق فتعالوا إلينا لندلكم على الطريق الصحيح لحكم الشعب. ثم قال بالحرف: «لا تليق بهذا الشعب الـ(...) إلاّ مثل هذه الحكومة الـ(...). وكانت الأوصاف التي تركتها فارغة بين قوسين قاسية

(١) كانوا يسمونها شرطة الآداب، ولعلها كانت تسمى (شرطة الأخلاق) في وقت سابق.

جداً وشديدة الجرأة. وعندما رأى علامات الغضب على وجه أمين بغداد، قال الوردي مبرّراً: «هذا ليس قولي.. إنما هو قول النبي (محمد) الذي يقول: «كيفما تكونوا يولّ عليكم». والواقع أن هذا الكلام كان له وقع في نفوس الحاضرين، لحساسية الظرف العام الذي كانت تمرّ به البلاد، بعد انسحابها من الكويت وعدم قدرتها على مجابهة أمريكا والدول المتحالفة معها، فضلاً عن الأحداث العاصفة التي مرّت بعد الانسحاب من شمال العراق ووسطه وجنوبه، ومع هذا كلّه لم يُسجن الوردي، ولم يسأله أحد أو يوجه إليه كلمة واحدة.

سرمك: هذا فعلاً سلوك انتحاري نظراً لحساسية الظرف آنذاك.. ولكنه إخلاص من الوردي لمنهجه ومبادئه ولمجتمعه.. وهي جرأة هائلة يُحسد عليها في الوقت الذي صمت فيه الجميع، بل بدأ الكثيرون بالمجاملة على حساب مبادئهم العلمية.. هل حصلت تبعات على هذا الموقف؟

• **الشمّاع**: لم تحصل أيّة تبعات. ويمكنني القول إن الوردي هو الذي كان أحياناً يتحرش بالمسؤولين. وهناك حادثة مهمّة. فقد عقدت أمانة بغداد ندوة في منتدى بغداد يوم ٢٨/تموز/١٩٩١ ألقى فيها الأستاذ (يوسف العاني) محاضرة حول «الشخصية البغدادية في المسرح العراقي» وحصلت بعد انتهاء المحاضرة مناقشة اشترك فيها بعض الأساتذة الحاضرين كان من بينهم الدكتور الوردي الذي قال إن القيم الاجتماعية التي كانت سائدة في بغداد في العهد

العثماني لا تلائم الحضارة الحديثة وأصبح من الواجب علينا تغييرها في حين كان رأي المحاضر وأغلب الحاضرين مخالفاً له. وعندما التقته جريدة الجمهورية لشرح رأيه قال: «يؤسفني أني لم أستطع أن أوضح رأيي في أثناء المناقشة لضيق الوقت». ومن الجدير بالذكر أن الشيخ «جلال الحنفي» كان حاضراً في الندوة وأبدى رأيه فيها في جريدة (القادسية) في ١٩٩١/٩/٨ حيث وقف إلى جانب رأي المحاضر وأيّد القيم البغدادية وأشار إلى رأيي بالعبارة التالية إذ قال ما نصّه: «كما تكلّم الدال[١] على الوردي فأراد أن يجرّ النار إلى رغيف (البداوة والحضارة)، فتصدى له الأستاذ (خالد عبد المنعم) بكلمة بارعة لعل أستاذنا الوردي اقتنع بها وأوشك أن يقتنع بها». وقد قال الوردي: «يجب أن أذكر هنا بصراحة أني لم أقتنع برأي الأستاذ خالد عبد المنعم مع احترامي لشخصه.. قلت قبل هذا غير مرّة ولابدّ أن أعيد القول هنا مرة أخرى إن هناك تناقضاً صارخاً بين قيم الحضارة التي نريد السير في طريقها وقيم البداوة التي ورثناها من الماضي». لقد حورب الوردي كثيراً ورفضت له الكثير من المقالات حتى أن الأستاذ الراحل «مدني صالح» اقترح عليّ إعداد كتاب عن المقالات المرفوضة لعلي الوردي، واقترح اسماً للكتاب الذي يضمّها وهو «الوردي المرفوض». وأعيد القول إن الوردي لم يُسجن مثلما قال

---

(١) كان الحنفي رحمه الله يستعيض عن لفظة (دكتور) بلفظة ابتدعها هو وهي (الدال)، وقد سألته عن ذلك، فأجابني: إن لفظة الدكتور ليست عربية، وقد استعضت عنها بلفظة (الدال) لتعني الدالّ على العلوم.

الدكتور عبد الإله الصائغ.. وأود هنا الإشارة إلى أنّ التقولات والشائعات كانت تعود إلى سبب رئيس تتحمله الدولة وهو (ضبابية) موقفها منه. ولو كانت الدولة قد حددت موقفها منه بوضوح سلباً أو إيجاباً لكان أفضل لها بكثير من حالة الضبابية تلك التي خلطت بها الأمور وأساءت إلى نفسها.

سرمك: لكن الرئيس السابق حدّد موقفه علناً من الوردي، على الأقل فرضيته في ازدواجية شخصية العراقي التي رفضها على شاشة التلفاز.

- **الشمّاع**: دكتور أنت تقصد الحوار المطوّل الذي أجرته الصحفية الأمريكية (كريستين هيلمز) مع الرئيس الراحل صدام حسين والذي سألته فيه عن ازدواجية الشخصية العراقية، فنفى بشدة أن يكون الإنسان العراقي مزدوج الشخصية، فردّت عليه بأن بروفيسوراً عراقياً هو الدكتور (علي الوردي) يرى غير ذلك. ولكن أنظر أيضاً إلى (حسن تخلص) الوردي حين سئل بعد نشر تلك المقابلة في الصحف عن رأيه بوجهة نظر الرئيس نفى أن يكون هناك أي تناقض بين الرأيين، فالرئيس - حسب رأي الوردي- ينظر إلى الأمر من وجهة نظر القائد السياسي، بينما هو (أي الوردي) فينظر إلى الأمر من وجهة نظر علمية محضة.

سرمك: وهل ترتّب شيء على وجهة نظره الذكيّة هذه؟

- **الشمّاع**: ترتّب شيء مهم أخبرني به الوردي نفسه. ففي أحد

الصباحات طرق باب بيت الوردي الذي خرج بزيّه البيتي المميّز، غطاء الرأس و(الروب) فوجد أمامه كبير مرافقي الرئيس الراحل الذي قال له: السلام عليكم دكتور. فردّ الوردي: لا عليكم السلام ولا رحمته ولا بركاته. فدهش كبير المرافقين وقال له: لماذا يا دكتور؟ فأجابه: أنا مريض وأنت تمنع عنّي السفر إلى الخارج للعلاج[1]. وبعد مناقشة طويلة - عند الباب- قال له كبير المرافقين إنه قصده لأنه يحتاج إلى كتبه، فقال له الوردي: لا توجد عندي نسخ من كتبي. ولكن عندما قال له إن السيّد الرئيس هو الذي يريدها، قال له الوردي: إذا للسيّد الرئيس أنا أصير (كتب) له، وسلمه نسخاً من جميع كتبه. لكن الدكتور عبد الأمير الأعسم روى لي حكاية أخرى تناقض هذه الحكاية مع اختلاف بطليها.. قال: طلب مني الصديق الدكتور محسن خليل مرّة عندما كان سكرتيراً لرئيس الجمهورية الراحل صدام حسين بأن يزور الوردي لكي يطلب منه بعض كتبه التي نفدت، فذهبنا لزيارته بلا موعد!! فكان عتاب الوردي لي مرّاً: كيف أجلب سكرتير الرئيس لزيارته وهو بملابس النوم؟ لكنه كان سعيداً لأنه اعتبر طلب مكتب الرئيس لكتبه المفقودة سينصره على المسؤولين الذين صاروا لا يسمحون له بالسفر صيفاً إلى بولندا.. وقد تكون الروايتان صحيحتان، فالرواية الأولى كان بطلها المرافق الأقدم أرشد ياسين وهذه بطلها صديقنا الدكتور محسن خليل.

---

(١) كان الوردي قد أوصل طلبه إلى كبير المرافقين هذا، ولم يردّ عليه.

سرمك: **لو سمحت لي، هنا ملاحظة مهمة وهي أن رئيس الدولة رفض آراء الوردي وهو لم يقرأ مؤلفاته كاملة بدليل أنه أرسل كبير مرافقيه للحصول عليها من الوردي؟**

· **الشمّاع**: قد يبدو الأمر كذلك، أو ربما أنه أراد مراجعة آراء الوردي من مصادرها الأصلية، فأنت والعراقيون جميعاً يعرفون أن الرئيس الراحل صدام حسين كان قارئاً نهماً وجيداً.

سرمك: **أستاذ سلام، أليست مفارقة أن الوردي مترجم إلى الإنكليزية وتقرأه النخبة هناك ومنها - مثلاً – الصحفية (كريستين هيلمز) في حين أن النخبة السياسيّة لم تقرأه بصورة دقيقة؟**

· **الشمّاع**: والله إنها مفارقة مؤلمة. وفوق كل ذلك فإن أعمال الوردي مترجمة إلى لغات كثيرة غير الإنكليزية كالألمانية والأسبانية والبولونية والفارسية.

سرمك: **هل صحيح أن كتبه مترجمة إلى الفنزويلية؟**

· **الشمّاع**: نعم. وتدّرس هناك على أساس وجود تشابه بين طبيعة المجتمع الفنزويلي وطبيعة المجتمع العراقي.

سرمك: **وهل صحيح أن بعض الدول الأوروبية كانت تسلّم سفراءها خلاصات بآراء الوردي قبل أن يذهبوا إلى بغداد للعمل فيها لكي يعرفوا كيف يتعاملوا مع الشخصية العراقية؟**

• **الشمّاع**: ليس لي معلومة مؤكدة في هذا المجال، ولكن هذا ما ذكره الدكتور عبد الأمير الورد في مقدمته لكتابي (من وحي الثمانين)، وذلك غير مستبعد.. وقد ظهرت الكثير من التقولات التي تشير إلى أن القيادة الأمريكية قد استفادت من كتابات الوردي في الطرق على الأوتار الحساسة في الشخصية العراقية خلال الحرب والحصار على حد سواء. وهذا يلقي اللوم علينا لأننا لم نستفد من الوردي واستفاد منه أعداؤنا.

سرمك: هل صحيح أن كتب الوردي قد سحبت من الأسواق في التسعينات؟

• **الشمّاع**: كلاّ.. والدليل أني أصدرت الطبعة الأولى من كتابي (من وحي الثمانين) في العام ١٩٩٦، ولم يمنعه أحد، كما أن الوردي كان يكتب في الصحف والمجلات العراقية في التسعينات، وكان الأولى أن يمنع من الكتابة في الصحف إذا كان ذلك صحيحاً.

سرمك: وهل صحيح أنها سحبت من المكتبة الوطنية؟

• **الشمّاع**: كلاّ. وكل ذلك تقوّلات وأعتقد أن واحداً من أسبابها الرئيسيّة كما قلت لك هو (ضبابية) موقف الدولة من الوردي، لأنه لو كان الوردي محارباً بهذه الصورة فكيف وافقت الدولة على طبع كتابي وتوزيعه وبيعه في عام ١٩٩٦ وهو كتاب (من وحي الثمانين) بآرائه الخطرة؟.. دكتور أرجو أن نوسّع النظرة

الموضوعية هنا، فالعلّة تتجاوز المسؤول والدولة لتشمل المجتمع بأكمله وسأضرب لك مثلاً بسيطاً ذكره لي الوردي نفسه.

سرمك: تفضل.

- **الشمّاع**: قال لي الوردي إن والدة أحد المسؤولين الكبار في الدولة وهو السيّد طارق عزيز قد توفيت. وكان عزيز من تلاميذه فذهب لقراءة الفاتحة، وحين اقترب من القاعة وجد أن هناك صالتين يقف بين بابيهما موظف تشريفات إذا عرفك ابتسم بوجهك وأشار بيديه منحنياً لتدخل إلى الصالة اليسرى.. وإذا لم يعرفك عبّس في وجهك ورمقك بنظرة حادّة وأشار لك بأصبعه إشارة آمرة لتدخل إلى الصالة اليمنى. يقول الوردي كنت ممّن أدخلهم هذا الموظف إلى الصالة اليمنى باستخفاف فدخلت وجلست وقرأت سورة المسد (تبت يدا أبي لهب..)، وحين سألني من يجلس بجانبي في الفاتحة لماذا فعلت ذلك، أجبته: لو أنهم أدخلوني إلى صالة (الكبراء) لقرأت لهم سورة الفاتحة.. وفي مناسبة ثانية توفي والد أحد كبار المسؤولين في الدولة وهو السيّد إبراهيم الحسن والد السيد برزان الأخ غير الشقيق للرئيس الراحل صدام حسين.. يقول الوردي: ذهبت إلى المأتم فوجدت عند الباب تشريفاتي (موظف تشريفات) من تلامذتي سابقاً فأدخلني باحترام إلى القاعة المخصصة لعلية القوم، فجلست وقرأت الفاتحة على روح المرحوم ثم لاحظت أن كل العيون تحملق بي وكأنها تتساءل: من هذا، صاحب السدارة المتطفل علينا؟!!، فخرجت محرجاً وقلت لتلميذي

موظف التشريفات: لماذا أدخلتني إلى هذه القاعة يا بني؟ فأطرق المسكين وقال خجلاً: أستاذ «هم» أيضاً قالوا ذلك!! وهكذا ترى كيف تطغى المحاباة والحسابات المظهرية على التعامل الإنساني في المجتمع العراقي وقد زرع ذلك في نفس الوردي غصّة وأشعره بالكثير من الحيف.

سرمك: لكن ألا تعتقد أن سلوك الوردي هنا يعكس نوعاً من التناقص؟

- **الشمّاع**: كيف؟

سرمك: لقد كان الوردي طوال حياته يستخف بالمآتم، وأنت نفسك أخبرتنا أنه، في المأتم، لم يكن يقرأ سورة الفاتحة، بل يصدر أصواتاً غريبة بدلاً منها، وقد قرأ سورة (المسد) بدلاً من (الفاتحة) لأنه انزعج في المأتم الأول، وأنا أعتقد أن هذا السلوك غير رصين وفيه سخرية من طقوس مؤسسة في مجتمعنا، بالإضافة إلى أن الوردي ينسى، أو يتناسى – كمختص في علم الاجتماع الأهمية الاجتماعية والنفسية في مداراة الجراح النفسية للفرد المثكول – طبعاً أنا لا أقصد هنا الممارسات الشكلية والانفعالية وحتى الاقتصادية المرفوضة في مآتمنا – فإذا كان الوردي غير مقتنع بشعائر معينة فلماذا يسهم فيها. وهذا ليس التناقض الوحيد في حياة الوردي الاجتماعية والفكرية، فهناك غيره وهو مهم أيضاً، وهذا ما دعا الدكتور حسين علي محفوظ أن يردد دائماً: على

الرغم من أن الوردي عالم اجتماع إلا أنه لم يعرف من أمور المجتمع شيئاً.. مشيراً إلى عدم مجاراته المجتمع في بعض تقاليده ومعتقداته.

- **الشمّاع**: مثل ماذا؟

سرمك: تتذكر آراءه السلبية في المقام العراقي خصوصاً والغناء العراقي عموماً؟

- **الشمّاع**: نعم. وقد ذكر لي مرة حادثة حصلت له أثناء دراسته في الولايات المتحدة. حيث سكن في بيت امرأة أمريكية عجوز. وذات يوم كان الوردي خارج المنزل وجاء أصدقاءه للسؤال عنه. فقالت لهم العجوز إنه كلما دخل الحمام ليغتسل يبدأ بالنواح والبكاء.. وعندما سأله أصدقاؤه عن سبب بكائه في الحمام. قال لهم: بأنه لم يكن يبكي بل كان يغني المقام العراقي في الحمام.

سرمك: أي أن الوردي كان هو بطل هذه الحادثة؟

- **الشمّاع**: نعم.. ولكنّ العلامة الدكتور حسين علي محفوظ – كما ذكرت في كتابي (من وحي الثمانين) كان يقول إنّ أكثر القصص التي يرويها الوردي أو يستشهد بها هي من تأليفه وتلحينه.

سرمك: لكنه حين ذكرها في أحد كتبه وحين حدث الدكتور (الورد) عنها أشار إلى أن بطلها طالب بعثة عراقي وقد

يكون هذا ليس مهماً، لكنه كان يطلب من ابنه الدكتور (حسان) أن يرسل إليه تسجيلات المطرب (رشيد القندرجي) وهو من روّاد قراء المقام العراقي. فلماذا يذم المقام والغناء العراقيين؟

· **الشمّاع**: كلامك صحيح يا دكتور، كان الوردي كثيراً ما يدندن أمامي مقطوعات من المقام العراقي وبعض الأغنيات العراقية. وقد شاهدت لديه صورة تجمعه بالفنانة العراقية القديرة (عفيفة إسكندر) وهي تقبله من خدّه!!.

سرمك: من تناقضات الوردي الأخرى هو موقفه من الشعر، وأنت خير من يعرف موقفه النظري من الشعر العربي وخصوصاً الجاهلي.

· **الشمّاع**: أعرف عن الوردي أنه يكره الشعر، أو أنه لا يحبه على الأقل. ورأيته مراراً وهو يتضايق كثيراً في المجالس التي نحضرها ويتم فيها إلقاء القصائد ومناقشتها أو إطراؤها، ولكنّه كان يقول لي بأنه لا يكره الشعر، كما يزعم خصومه، فأن في الشعر جانباً لا يستطيع الإنسان إلا أن يُعجب به، ولهذا فهو يستشهد بأبيات من الشعر في كتاباته، وخصوصاً أبيات الشعر التي لها علاقة بطبيعة الدنيا وطبيعة البشر. وقد لفتت الآراء الجريئة للوردي بشأن الشعر انتباه الكاتب المصري المعروف (سلامة موسى) آنذاك فكتب عنه في كتابه (مقالات ممنوعة) يقول: «ولكن في العراق كاتباً واقعياً يدعى علي الوردي. هذا

الكاتب قد وضع مؤلفات أوضح فيها أن شعراء العرب في الجاهلية كانوا يمشون بالوقيعة بين قبيلة وقبيلة. وكانوا سبباً، لهذا السبب، للقتال بين القبائل، يحرّضون على الثأر والانتقام ولا يدعون إلى سلام. وقد ذمّهم القرآن ووصفهم بالغواية. ثم كان شعراء العرب بعد ذلك، أي أيّام الخلفاء، متسوّلين، يبيعون أشعارهم في المديح والهجاء بالدينار والدرهم. يمدحون بلا سبب، ويقدحون بلا حق، أو كانوا، مثل ابن الرومي وأبي نؤاس، شعراء فاسقين، كانوا، كما يقول الوردي، بلاء على المجتمع العربي. ولم يشذّ منهم ويسمو عليهم سوى أبي العلاء المعري الذي كان ينبّه الشعوب العربية[1] إلى ضلال الحاكمين والمتديّنين ومكرهم جميعاً لخطف اللقمة من أفواه الفقراء المساكين»..

سرمك: وفوق ذلك فإنه كان يعيب على الجهات الثقافية الرسمية إصدار الدواوين الشعرية وكتب النقد الأدبي.

• **الشمّاع**: نعم.. فقد انتقد أكثر من مرّة وفي أكثر من مناسبة ما تصدره المؤسسات الثقافية من الشعر القديم والدراسات حوله وكتب النقد الأدبي للأعمال القديمة والحديثة والدراسات التاريخية والأدبية. ومرة انتقد إصدار ديوان الشاعر أميّة بن أبي الصلت وحيص بيص.. وكان يقول: إن إصدار كتاب يكشف للناس المفاهيم المغلوطة التي يحملونها حول الطبيعة البشرية هو

(١) لم تكن في زمن المعرّي شعوب عربية، وإنما كان العرب شعباً واحداً وبلدانه لا تحدّها حدود.

أهم من مائة كتاب من هذا النوع.

سرمك: أي أن الخلاصة أن الوردي، في مواقفه المعلنة يكره الشعر ولا يحبّه ويعدّه علامة تخلّف تجاوزها العصر..

· **الشّماع**: نعم.. وقد وجّه له أستاذ النقد الدكتور نعمة رحيم العزاوي أكثر من نقد بسبب ذلك.

سرمك: لكن هل هذا هو الموقف الحقيقي غير المعلن؟

· **الشّماع**: كلاّ.. لقد بدأ حياته الثقافية بكتابة الشعر، حيث كتب مسرحية بعنوان «قيس وليلى» ضمّنها الكثير من الشعر، وقد أداها على المسرح فنانون عراقيون منهم المرحوم (جعفر السعدي) الذي أصبح من أهم الممثلين العراقيين فيما بعد، واشترك في أداء الأدوار العلامة الدكتور (حسين علي محفوظ) حيث كان ضمن جوقة الأطفال الذين يرمون المجنون بالحجارة، كما مثّل فيها الشاعر (علي جليل الوردي) دور ليلى - على ما أظن- لصعوبة إيجاد ممثلة تؤدي هذا الدور في ذلك الزمان.

سرمك: هذا واحد من المواقف التي يتسم سلوك الوردي فيها بالتناقض.. هل سنسميها «ازدواجية الوردي»؟ وإذا أخذنا موضوع الزواج فأنت تعلم موقف الوردي منه.

· **الشّماع**: نعم.. فقد كان الوردي لا يخفي تذمره من الزواج القديم، على الرغم من أن رأيه هذا كان يعد في ذلك الزمان نوعاً

من أنواع الكفر...

سرمك: لكنه تزوج بطريقة تقليدية جداً حيث أنه لم يرَ وجه زوجته إلا ليلة العرس.. كما أنه لم يكن يعرفها قبل الزواج أبداً.. وقد تكفّلت نسوة العائلة في إيجاد العروس المناسبة.. وهذا تناقض آخر.

· **الشّماع**: لماذا نسمّيها تناقضات ولا نعدها تحولات طبيعية في مسار حياة طويلة ومحتدمة بالتغيرات وتعرضت لتأثيرات حضارية مختلفة..

سرمك: يبدو أنني لم أستطع توضيح مقاصدي بدقة، أنا أقول، إذا كان مشروعاً للوردي أن يكون له موقفان من قضية واحدة – وهذه تناقضات وليست تحولات لأنها كانت قائمة في الوقت نفسه – فلماذا لا يسمح الوردي للمواطن العراقي أن يكون له موقفان من قضية واحدة؟ وإذا كان الوردي يطلق سمة (الازدواجية) على هذا السلوك لدى المواطن العراقي وقد أصبحت هذه السمة (تهمة) فلماذا يبرئ الوردي نفسه من هذه التهمة وهو يمارسها فعلياً؟

· **الشّماع**: لا أعتقد أن الأمر يحاكم بهذه البساطة.. وأذكر لك بهذه المناسبة أن الوردي كان يعرّف الازدواجية بأن العراقي يحب مثل (دون جوان) ويتزوج مثل (الملا عليوي).

سرمك: طبعاً، الموضوع شائك، لكن هل يجوز لعلاّمة ورائد

في التنوير أن يعلن إيمانه بالجنّ في العقد الأخير من القرن العشرين؟

· **الشمّاع**: أظنّ أنّك تقصد الجدل الشديد الذي نشب بين المرحوم الوردي والمرحوم الشيخ جلال الحنفي والذي كان محوره البيوت المسكونة بالجن، والتي أنكر الحنفي وجودها واستهزأ بها.

سرمك: تصوّر يا أستاذ سلام أنّ رجل الدين يسفّه فكرة وجود بيوت مسكونة بالجن على الرغم من أن موضوعة الجن مقرّة دينياً في حين يصرّ العالم المتنوّر على وجودها.

· **الشمّاع**: المهم أنّ الوردي دعا الحنفي إلى المبيت في بيت مسكون، لكن الأخير رفض متعللاً بأن الوردي سيقوم في منتصف الليل بالدخول إلى المطبخ ويرمي القدور والصحون على الأرض ويدّعي أن ذلك من فعل الجنّ، وقد كتبت سلسلة مواضيع نشرتها في جريدة (الجمهورية) تحت عنوان (المجالس مدارس) وتطرقت إلى هذه الحادثة في حلقة كان عنوانها: (الوردي والحنفي في بيت مسكون).

سرمك: أعود إلى اعتراضي الأساس وهو أن هذا تناقض آخر.. في الظاهر يعلن الوردي أن العلم هو العامل الحاسم في المجتمع ويشجب إيمان المواطن العراقي بالخرافات في حين يؤمن فعلياً بالجنّ والبيوت المسكونة.

• **الشمّاع**: كان الوردي يعتبر ذلك ظاهرة باراسايكولوجية تستحق البحث.. علم جديد يجب أن يُدرس وننتبه ونُنبه إليه. وهناك حادثة كان الوردي يكرّرها كثيراً على مسامعي ويرويها في المجالس ويعدّها ظاهرة خارقة جداً ضمن ظواهر الباراسايكولوجيا وتتعلق بأحد أجداده أيام جائحة طاعون اجتاحت بغداد واجتثّت سكّانها. حيث حلم الجدّ أن ثمانية أشخاص سيموتون من عائلته. فمات سبعة من أفراد البيت وبدأت أعراض الطاعون تظهر على الجدّ أي أنه سيكون المتوفى الثامن بعد مدّة. وتشاء الأقدار أن يدخل لص لسرقة الدار حيث أن نشاط اللصوص كان يزداد وقت الطاعون، ويقترب من الجدّ فيصرخ الأخير بوجهه ويسقط اللص ميتاً ليصبح المتوفى الثامن ويتعافى الجد من المرض. وقد قرأت القصّة نفسها في مجلة (المورد) العراقية كحادثة حصلت في مصر قديماً، وقد أخبرت الوردي بذلك فطلب مني المصدر وجلبته له.

سرمك: ماشي.. نبحثها في المختبرات وإلى أن تنضج وتثبت فعلياً نطرحها للناس.. ثم إنني أريد أن ألفت نظرك إلى مسألة خطرة وهي أن المواطن العراقي الذي شبع تقريعاً من الوردي الذي يدعوه إلى النهوض من خلال التمسك بالعلم يسمع الوردي وهو يتحدث عن الجن والبيوت المسكونة.. صدقني لو طرح هذا الأمر الشيخ جلال الحنفي لما دهش الجمهور للأمر. المهم خلافنا رحمة للقرّاء، وما دمنا قد تحدثنا عن حادثة بين الوردي والحنفي أريد أن

أسألك عن سرّ الخلافات الدائمة بينهما؟

· **الشمّاع**: كانت هناك حساسيّة واضحة بينهما نلحظها في المجالس، وكان الحنفي يرحمه الله هو الأكثر حساسية في هذه العلاقة. أمّا رد فعل الوردي يرحمه الله فكان قائماً على أساس ما كتبه الحنفي عنه من أمور كان من الممكن أن تستعدي عليه الدولة والمسؤولين حيث كتب أن الوردي يذمّ الخليفة هارون الرشيد ويتحدث بنحو سيء عن السلوك الشخصي لهذا الخليفة، وعن كيفية إدارته للدولة. ولكن الوردي لم يكن (قليل شر) كما يُقال في التعبير الشعبي، ففي إحدى المرات ألقى محاضرة في نادٍ مسيحي في بغداد حضره جمهور حاشد كان من بينهم المرحوم الشيخ جلال الحنفي الذي اصطحب معه ثلّة من رجال الدين، وبدأ الوردي حديثه عن مشكلة البغاء من دون سابق إنذار وعلى الرغم من وجود سيدات في المحاضرة قال: «إنّ البغيّ لا إرادة لها في اختيار هذه المهنة، وأعرف أحد الأثرياء في بغداد كان يذهب إلى المبغى العام ملثّماً ويدور على بيوت البغايا ويُعطي كل واحدة منهن مبلغاً من المال كي لا تضطر إلى ممارسة البغاء، وأعرف رجال دين عاشوا في المبغى العام وألّفوا كتباً عن البغايا والبغاء.. لماذا نذهب بعيداً؟ الشيخ الحنفي (مشيراً إليه) واحد منهم. هل تسمح لي يا شيخ أن أذكر هذا؟» فقال له الحنفي: «وما أبقيت يا وردي؟».

سرمك: أنا أعتقد أن موقف الوردي فيه الكثير من الإجحاف بحق الحنفي – لقد كان البحث الذي أجراه الشيخ الحنفي في

المبغى العام في البصرة ودراسته لأحوال البغايا وأسباب انحرافهن وتفصيلات حياتهن اللا إنسانية في المبغى وطبيعة معاملتهن وغيرها، هو ثورة اجتماعية بكل معاني الكلمة.. ولا أدري هل قام رجل دين في العالم بالعيش في مبغى من أجل دراسة هذه الحالة اللا إنسانية الشاذة وعلى وفق ذلك فقد أصدر الحنفي بحثه الخطر هذا في كتيّب صغير طرح في الأسواق بجرأة لأن لا أحد كان يتوقع في العراق مثل هذا التصرّف من رجل دين يتوقّع منه أن يدعو إلى رجم الزانيات.. لم يكن الوردي محقّاً في استغلال هذا الأمر لأغراض عدوانية غير علمية.

- **الشمّاع**: عموماً حصل – ذات يوم – خلاف بين الوردي والحنفي، وقرر الوردي أن يكون مبادراً في مصالحة الحنفي فقال لي: في أي مجلس تجد الحنفي اتصل بي فوراً لكي أحضر وأصالحه وأزيل ما بيننا من جفوة، وذات مساء وجدت الحنفي في مجلس الخاقاني فاتصلت بالوردي وأخبرته فجاء مسرعاً وجلس بجوار الحنفي واعتذر منه.. وبعد قليل سرح الحنفي مع أفكاره وغاب عن التواصل مع الحاضرين وهي من الظواهر المعروفة عنه.. وفجأة إذا بالوردي يضربه على فخذه بقوّة.. ففزّ الحنفي رحمه الله وقفز وقال للوردي: ماذا حصل؟ فقال له الوردي: شيخنا.. سمعت آخر خبر؟.. فسأله الحنفي: ما هو؟ فقال الوردي: لقد تظاهر الجنسيّون المثليّون في الولايات المتحدة مطالبين بحقوقهم. ظل الحنفي حائراً وضحك بعض من في المجلس في حين صمت بعضهم الآخر..

سـرمك: أسـتاذ سـلام.. ألا تعتقـد أن الـوردي كـان يطلـب المشاكسات لذاتها أحياناً؟

· **الشمّاع**: نعم.. وقد قلت له مرّة إنك مثل تلك العجوز التي كان يتعرض لها أطفال الحي بالمشاكسة والمضايقة. فكانت تنهرهم وتشتكيهم إلى ذويهم غاضبة من سوء تربيتهم وعدم احترامهم للكبير.. وفي إحدى الصباحات خرجت إلى الشارع فلم يطاردها أحد من الأطفال فبدأت بالتذّمر والقول: أين هؤلاء الأطفال الملعونين؟ وين ذوله (المكاميع).

سرمك: تتذكر حين تحدثنا عن الأسطوانات التي كان يسجلها الوردي بصوته في الولايات المتحدة ويرسلها من هناك إلى أولاده ينصحهم فيها بعدم التبرز في الشارع..

· **الشمّاع**: نعم.. فقد كان الوردي مهتماً أشدّ الاهتمام بأبنائه وتربيتهم وثقافتهم، وذكر لي ولده الأكبر الدكتور حسان أن والده أرسل له من أمريكا أسطوانة فونوغراف سجل عليها الوردي بصوته رسالة إلى أولاده ملأها بالنصائح ومن بينها نصيحته لهم أن يتركوا عادة التبرّز في الطرقات، وغيرها من النصائح التي تدعو إلى ترك العادات السيئة في المجتمع العراقي آنذاك. وقد قال لي الدكتور حسّان: إن العادة أن يرسل المغتربون أسطوانات من هذا القبيل يسجلون فيها رسائل الشوق والمحبة إلى أهليهم، ولكنّنا مع ذلك ضحكنا لسماع الأسطوانة.. وعبّر عن أسفه لأنه فقد تلك

الأسطوانة مؤخراً من دون أن يدرك أهميتها التاريخية.

سرمك: تصوّر أن أولويات شخص في الولايات المتحدة هو التفكير بالعادات الإخراجية لأولاده الذين يبدو أنهم تجاوزوا سن النصح الفج، فقال لك كبيرهم أنهم ضحكوا حين سمعوا هذه الأسطوانة.. هذه الأولويات توحي بنمط من الشخصيات تمّ توصيفه في مدرسة التحليل النفسي.. نمط له سمات محدّدة.. سأسألك الآن: هل كان الوردي وسواسياً؟

· **الشمّاع**: نعم.. كان وسواسياً ومتطيّراً.. وقد أخبرني بذلك بنفسه وقال لي: إنه لم يستطع التخلص من السمة الوسواسية إلاّ بعد أن سافر إلى الولايات المتحدة.. كان يحدّثنا كثيراً عن حالات لأشخاص وسواسيين مثل شخص يقوم بغسل جسده غسل (الجنابة) في أيام الزمهرير في الشتاء وذلك بأن يغتسل عارياً تماماً في الماء ثم يخرج ويقول: ما صارت – أي ما نظف جسمه بصورة صحيحة – ويعود للاغتسال في البرد الشديد إلى أن يصبح لون جلده أزرقاً.. وعن شخص آخر معمّم يصلي ويقرأ سورة (الفاتحة) وحين يصل إلى الكلمة الأخيرة منها (ولا الضّالين) فإنه يضغط على لسانه بين أسنانه عدة مرّات لكي يلفظ هذه الكلمة بصورة صحيحة كما يعتقد.. يكرّر هذه الكلمة مرّات كثيرة والناس الذين يصلّي بهم ينتظرون خلفه..

سرمك: هذه حالات من اضطراب نفسي معروف في الطب

النفسي يسمّى «مرض الأمراض التسلطية والأفعال القسرية – Obsessive Compulsive Disorder وهي أفعال وأفكار تفرض نفسها على الشخص وتتكّرر بصورة لا يستطيع مقاومتها على الرغم من علمه بعقم الفكرة وسخافتها أو الفعل. عالجت في عيادتي حالات عديدة من هذا النوع - مثلاً - طالبة فُصلت من الكلية لأنها تدخل المرحاض في أثناء الدوم وتبدأ بغسل أعضائها الجنسية عشرات المرّات.. امرأة تأتيها كلمات التجديف في الصلاة.. حالات كثيرة.. لكنني أسألك عن حالة الوردي النفسية أيام علاقتك به، هل كان وسواسياً؟

· **الشمّاع**: قبل سفره إلى الدراسة في الولايات المتحدة كان موسوساً جداً حسب اعترافه لي ولكنه – وحسب قوله أيضاً – شُفي من الوساوس بعد عودته من أمريكا – لكن ما لاحظته هو أنه كان موسوساً بشأن صحته ويخاف من المرض.. وكان – لهذا الغرض – كثير البحث عن خلطات خاصة من الأعشاب لدى العشّابين.. وكان يؤمن بأنّ كأساً واحدة من الخمرة ليلاً ضرورية للصحة وللاسترخاء وللتفتح الذهني، كما أكد ذلك أيضاً الدكتور عبد الأمير الورد رحمه الله في مقدمته لكتابي (من وحي الثمانين) بطبعته الثانية.

سرمك: هل تعتقد أنّ عزلته تعود إلى وسوسته وتطيّره مثلاً؟

· **الشمّاع**: لا أعلم على وجه الدقّة، لكن ما أستطيع تأكيده

هو أنه لم يكن يسمح لأحد بزيارته أو الدخول إلى بيته. قد أكون الوحيد الذي دخل غرفة نومه، هو دعاني إلى رؤيتها، كان فيها سرير ومكتبة ضخمة. في إحدى المرات غاب عنّا ثلاثة أو أربعة أيام فقلقنا عليه وذهبنا إلى بيته وكان آنذاك يسكن في منطقة الأعظمية حيث كان قد اشترى بيت (نور الدين محمود) أحد رؤساء العراق في العهد الملكي، أخذنا الدكتور (حسين علي محفوظ) وحين طرقنا الباب خرج علينا الوردي وصاح بنا بكل عصبيّة: «شكو جايين.. شعدكم.. أنا تتحسن صحتي وأزوركم.. هيّا اذهبوا..»[1] وطردنا، ولكنّه سرعان ما عاد وسمح لنا بالدخول.. لم يكن يدعو أحداً إلى بيته.. كان متمرداً على الأعراف والتقاليد.. كان الوردي يقدم لضيوفه قدح عصير من النارنج من حديقة المنزل الواسعة، وكان هذا العصير لذيذاً جداً، ولكن الأستاذ الدكتور عبد الأمير الأعسم أستاذ الفلسفة الرئيس الفخري للاتحاد الفلسفي العربي حدثني، في لقاء معه في دمشق في السابع عشر من كانون الثاني ٢٠٠٨، عن وليمة غداء كبرى أقامها الوردي للمستعرب الفرنسي الكبير جاك بيرك، حضرها عدد من المستشرقين الذين شاركوا في مؤتمر الفارابي سنة ١٩٧٥، وحضرها من العراقيين الأستاذ حسين علي محفوظ والأستاذ الدكتور كامل مصطفى الشيبي.

سرمك: وهل تعتقد أن هذا شكل من أشكال التمرد على

---

(١) معناها: ما الذي جاء بكم عندما أتحسن صحياً سآتي لكم.

الأعراف والتقاليد؟..شخص يقوم بطرد أصدقاء يعودونه لأنه مريض.. هل نصفه بالتمرّد؟

· **الشمّاع**: لم يكن الوردي يحبّ التعامل على وفق السياقات التقليدّية..

سرمك: لكنه كان يزور بيوت الناس ويحضر المجالس؟

· **الشمّاع**: طبعاً، ومن النادر أن يتأخر عن مواعيد تلك المجالس وكان ملتزماً بتوقيتاتها.. مثلاً يوم الاثنين في مجلس آية الله الفقيه الشيخ الدكتور عيسى الخاقاني، والثلاثاء في مجلس المرحوم الدكتور عبد الرزاق محي الدين الذي دخل معه في الجدل الشهير بشأن الشعر الجاهلي والذي نشره في كتابه (أسطورة الأدب الرفيع)، والخميس في (مكتبة الجوادين) عند السيّد جواد ابن السيّد (هبة الدين الشهرستاني) الذي كان أول وزير معارف في العراق ومكانها هو الصحن الكاظمي. ثم في مجلس (الشعرباف) – أما في أول جمعة من كل شهر ففي مجلس (خالد العزي)، وهناك المجالس اليومية حيث يحضر مجلساً في الروضة الكاظمية في غرفة سادن الروضة الشيخ فاضل الشيبي، ثم يزور محل صياغة السيّد صفاء الوردي ومحل بيع نظارات لصاحبه السيد باسل الخزرجي مجلساً أخيراً قبل أن يصعد سيارات النقل العمومي، ويذهب إلى بيته.. وفي هذه المجالس كان أيضاً متمرداً على التقاليد..

سرمك: كيف؟

• **الشمّاع**: كان في المجالس يرفض خلع حذائه كالآخرين، ويرفض عادة أن يصافح القادم الجديد إلى المجلس جميع من في المجلس.. وذات مرّة دخل شخص أحد المجالس ولم يكتف بالمصافحة فقط بل كان يقبّل كل من يصافحه.. فصاح الوردي ساخراً: وفوكاهه يبوّس (وفوق المصافحة يقبّل).. مرةً قال له الدكتور حسين علي محفوظ معترضاً على منعه المصافحة: إنّ النبي محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول إن المصافحة مندوب إليها، فلماذا تمنعها أنت؟!.. فردّ عليه الوردي: وماذا نصنع بهذه المندوبية، وبماذا تفيدنا؟!..

سرمك: هل كان عصبياً؟ هل كان اندفاعياً – يفعل الفعل ثم يفكر فيه ويندم؟

• **الشمّاع**: أستطيع القول إن هناك خيطاً رفيعاً يفصل بين عصبيته واندفاعيته – حسب توصيفك النفسي لها – وبين شجاعته ونقمته على التقاليد التي كان يعتقد أنّها بالية. كان انفعاله أحياناً يجعله شديد الحدّة بل حتى القسوة مع من يعتقد أنهم يخطئون أو يتجاوزون الحدود. كان هذا ينعكس على الأوصاف التي يستخدمها فتأتي نابية وغير مناسبة لأجواء المجلس أو المحاضرة الثقافية، كنا نحضر مجلِس الشاعر (محمد جواد الغبان) أسبوعياً، ومن تقاليد هذا المجلس هو أن أي شخص يجد شيئاً مهماً ومثيراً في الصحافة يأتي به ويقرأه في المجلس حيث يتم تناوله بالتحليل والتعليقات. وفي إحدى المرّات نشرت صحيفة

(الجمهورية) حسبما أتذكر قصيدة جديدة ومهمة للشاعر الكبير (مظفر النّواب) تدين العدوان الثلاثيني على العراقي.. وكانت هذه القصيدة تمثل حدثاً ثقافياً مهماً لأنها المرّة الأولى التي تنشر فيها قصيدة جديدة للنّواب في الصحافة العراقية منذ مغادرته العراق نهاية السبعينات، بالإضافة إلى أنّ موقف النوّاب من النظام العراقي القائم آنذاك كان معروفاً.. حين قرأت القصيدة على الحاضرين ومنهم الوردي ثارت ثائرة الشاعر (محمد جواد الغبّان) صاحب المجلس، وقال ما معناه إن هذا ليس شعراً ولا يمكن الاعتداد به وأنه – أي الغبّان – أشعر من النواب بعشرات المرّات.. فنادى ابنه مازن وطلب منه أن يُحضر نسخة من ديوانه: «أنت أحلى» من المكتبة، واختار قصيدة من الديوان، وبدأ بقراءتها بصوت عالٍ وبإلقاء مسرحي والجميع ينصتون في حين كان الوردي مطاطئاً رأسه ويهزّ يده، الممسكة بمسبحته الصغيرة، باستخفاف، وحين قال الغبان مخاطباً حبيبته: «حبّنا القديم أين دفنته؟» أجابه الوردي بهدوء: بالطهارة، أي في المرحاض!!

سرمك: لكن مثل هذا التعليق حاد ومؤذ؟

- **الشمّاع**: نعم.. وهناك غيرها الكثير.. فقد دعي الوردي ذات مرّة لإلقاء محاضرة في محافظة ديالى.. وبعد المحاضرة التأم شمل المدعوين لتناول الطعام في أحد المطاعم الصيفية وكان من بين المدعوّين عدد من النساء.. فانطلق الوردي في حديثه الممتع والشيّق والفكه الذي أثار اهتمام السيدات ومتعتهن فكنّ يطالبنه بالمزيد..

ويبدو أن اهتمام السيّدات أثار غيرة أحد الأساتذة الحاضرين وحفيظته، فبدأ يقاطع الوردي باستخفاف. هنا توقف الوردي قليلاً عن الكلام وقال للحاضرين: يا جماعة.. لدي حكاية قديمة طريفة سأرويها لكم وأتوقّف عن الكلام نهائيا.. في إحدى المرات أخذ أحد القرويين حماراً لديه إلى السوق وكان الجميع يتصورون أنّه قد جاء بالحمار ليبيعه فجاء أحدهم وسأله: هذا الحمار للبيع؟ فأجابه القروي: لا.. هذا الحمار يرفس!! جاء آخر وسأله السؤال نفسه فأجابه: لا.. هذا يعض.. وكلما سأله أحدهم عن سعر الحمار عدّد له صفاته السيئة. فسألوه: إذا لم تكن تريد بيعه فلماذا جئت به إلى السوق؟ فقال القروي: جئت لأريكم بأي حمار سيء ابتلتني الحياة؟، وأشار إلى الشخص الذي كان يقاطعه. فصمت الجميع وساد الجلسة التوتر. ومرة كانت لديه محاضرة في اتحاد المؤرخين العرب ببغداد.. كان يتحدث وكانت «دكتورة» معروفة تتحدث مع شخص يجلس بجوارها، فقطع الوردي المحاضرة وقال: لهذا الشخص.. أخي.. قابل إجه عرسك ويّه عرسي؟؟[1]

سرمك: أي أنني – وحتى الآن – أستطيع القول إن لدى الوردي شخصيتين: واحدة رسميّة وصلتنا كأنموذج معرفي من

---

(١) ومعناها لمن لا يعرف اللهجة العراقية: هل يجوز أن نقيم حفلتي عرسك وعرسي في وقت واحد.. أنت تتحدث مع الدكتورة وأنا ألقي محاضرتي. ولا يخلو هذا الكلام من تعريض مبطّن بالدكتورة.

خلال مؤلفاته وكتاباته ومواقفه الانتقادية وأخرى لا نعرفها و«مسكوت عنها» إذا جاز الوصف: فيها الوسواسية والتطيّر والقلق والعصبية وغيرها. شخصية تظهر في ظروف مسترخية وهادئة بعيدة عن التوترات ومصادر التهديد، وأخرى تستل أسلحتها الدفاعية السلوكية ليواجه بها الظروف الضاغطة والمواقف التي تمتحن فيها شخصية بالانجراح والتعدّي من قبل آخرين، وهذه النظرة – إذا وسعناها – ستذكرنا برأي الباحثين المصريين حول «ازدواجية الشخصية» لدى المواطن المصري – أي أن الازدواجية ليست حكراً على شخصية العراقي – فهم يرون أن هناك نمطين للشخصية المصرّية هما: ابن البلد والفهلوي، وهم يقررون أن (ابن البلد) يمثّل الشخصية المصرية الأصيلة، أمّا (الفهلوي) فهو يمثل ما يصطنعه الناس من خلق لمواجهة المواقف العسيرة التي تفرض عليهم. وهم يرون أن النظرة العابرة السطحية غير الباحثة المدققة سرعان ما تحكم بالتناقض على الشخصية المصرية، بينما عند الاختبار والدراسة العلمية تتضح صفة التماثل والانسجام في الشخصية ويبدو التكامل بين أجزائها وذلك عن طريق افتراض طبع أصيل للشخصية القومية ثم طبع اصطنعته الشخصية لتواجه به المواقف التي فرضت عليها. فقد عاش المصري ثلثي عمره الحضاري خلال خمسة آلاف عام ينعم بالحرية والسيادة ثم قُدّر له أنّ تحتل أرضه كاملة على يد الفرس وهو منذ ذلك التاريخ بين سيّد ومسود يتشكل ويتلوّن تبعاً لمقتضيات الظروف والأحوال، ومن هنا كان لابدّ له أن يتخذ قناعاً يختلف باختلاف الظروف

والأحوال. ومن هنا كان لابدّ له أن يتخذ قناعاً من صنعه يتقي به شرّ الأعداء ويكسبه المرونة والكياسة عند الحاجة، فإذا ما خلا إلى نفسه فإنه ينـزع عن نفسه القناع ليعود مصرياً صافياً نقياً طيب القلب سمحاً كريماً».. لقد استعنت بهذا الرأي الطويل نسبياً لأفك اشتباك موضوعة ازدواجية الوردي نفسه... والتي أسقطت على شخصية المواطن العراقي، بالرغم من أن هذا لا يلغي الوجه الدفاعي في الشخصية العراقية الذي تشوبه الكثير من السمّات السلبيّة.

- **الشّماع**: دكتور.. موضوع الازدواجية شائك ومعقد أثار معارك فكرية كثيرة ودُبّجت من أجله مئات الصفحات.. والتناقض الذي تقصده في الشخصية المصرية هو غير الازدواجية في الشخصية العراقية، فذلك شعوري وهذه لا شعورية.[١]

سرمك: صحيح..

- **الشّماع**: وعليه لا أعتقد أننا نستطيع أن نحسم مثل هذه القضية المعقدة من خلال حوارنا..

سرمك: صحيح، ولكننا نستطيع – مختصين ومثقفين – أن ندلي بدلونا مادام هذا الموضوع على هذا المستوى من الخطورة

---

(١) ستتم مناقشة هذا الرأي في الفصل الثالث من هذا الكتاب، فعلى الرغم من أن الفرد المصري لا يخلو من ازدواجية في شخصيته إلا أن هذا التناقض لا يعدّ ازدواجية في نظر الوردي.

والتعقيد ويمسّ وجودنا في الصميم.. ولا نترك الأمر لمفكر واحد رمى حجره في بركة حياتنا ومات وبقيت فرضياته صنماً يُطلب منا عبادته.. هذا ضد منطق العلم وضد منطق الحياة أصلاً..

• **الشمّاع**: صحيح، وصدّقني حتى الوردي نفسه يكره هذا التصنيم ويرفضه. فعلى مستوى العلاقات الإنسانية كان يرفض المديح بأشكاله كافة وخصوصاً من كانوا يقولون له: دكتور، أنت مفكر عظيم وتستحق أن يقام لك تمثالاً في بغداد، وكان لا يرتاح للمديح والمجاملات التي يُقابل بها لأنه يعرف دوافعها. فهو يرى أن الناس يبطنون غير ما يظهرون، ويظهرون غير ما يبطنون، وهذه طبيعة البشر، وهو بهذا يطلب من الناس أن ينقلبوا على هذه الطبيعة، ولذلك فهو يسخر من المجامل ولا يرضى بالمديح ويردّد حديث الرسول (ص): «احثوا في وجوه المدّاحين التراب». ويُرفق أيّة كلمة مديح بكلمة ساخرة يقولها كما يقولها الممثل (أيوا) وهي تعني (نعم) باللهجة المصرية يطلقها بطريقة مستخفة وساخرة. وفي عام ١٩٨٦ ذهبت مع الوردي لإلقاء محاضرة في النجف الأشرف، وقد قوبل باحتفاء كبير كان من بين أهم مظاهره الكلمة البليغة التي ألقاها السيّد «حامد المؤمن» إشادة بالوردي وجهوده ومكانته العلمية. كانت هذه الكلمة من عيون كلمات الاحتفاء ونالت إعجابنا جميعاً إلاّ الوردي الذي كان يهزّ يديه استهزاءاً بما ورد فيها من مديح، ثم بعد مدة عاد وطلب مني أن أحصل له على نص تلك الكلمة، وكانت محفوظة لدى الدكتور حسين علي محفوظ.

سرمك: لكنه في هذه المحاضرة نفسها قام بذمّ التاجر الذي تحمّل نفقات نقله ونقل مريديه وإطعامهم في النجف.

· **الشمّاع**: نعم. ولا أستطيع نسيان موقفه الجارح والغريب هذا. فقد قرّر عدد كبير من أصدقاء الوردي ومريديه أن يرافقوه إلى النجف لحضور المحاضرة التي سيليقها، وقد تولى أحد أقارب الوردي من التجّار الأثرياء تأمين السيارات لهم مجاناً، وفي المحاضرة التي ألقاها الوردي وكانت تدور حول الحظ والتخاطر تطرق إلى ذكر مثل على غباء التجّار – وهو تحول غريب في سياق المحاضرة – فقال: «إن أقرب مثل موجود بيننا في هذه القاعة» مشيراً من طرف خفيّ إلى ذلك التاجر الثري المسكين الذي تحمّل نفقات نقل الناس وإطعامهم مجاناً من بغداد إلى النجف.

سرمك: والشيء نفسه يمكن قوله عن المستوى النظري فهو «يكسر ويجبر» كما يُقال في التعبير الشعبي..

· **الشمّاع**: كلاّ.. كان أيضاً يكره اعتبار أطروحاته النظرية أطروحات نهائية تتمتع بالصحة المطلقة، وكان يدعو الباحثين الشباب إلى إكمال الطريق.

سرمك: ولذلك كان يسميّها «فرضيّات» وليست «نظريات» ويعترف بالمصادر التي استقى منها فرضياته تلك.

· **الشمّاع**: هذا صحيح تماماً. ولو راجعت الكلمة التمهيدية

التي كتبها الوردي لكتابه الأول (شخصية الفرد العراقي) فستجد أنه أكثرَ من تقليل شأن هذا الكتاب، فهو يقول مرّة: «لست أدّعي أن هذه المحاضرة بحث قد استوفى شروطه العلمية»، وشبّهها بأنها أقرب إلى المقالة الأدبية منها إلى البحث العلمي، وأن فيها نقصاً بارزاً من الناحية العلمية، وأخيراً أهاب بالقارئ أن يتشدّد في نقد الكتاب والنظر إليه نظرة الشاكّ المستريب. وهذا أمر لا إرادة لي فيه، وهو يحصل لغيري كما يحصل لي حين يمرّ بمثل الظروف التي مررت بها»؛ وعلى الرغم من أنني قد قلت إنه فعل ذلك بدافع الصراع من الأنا الفردية إلاّ إنني أعتقد أن في هذا التقليل جانباً من التواضع.

سرمك: أعتقد أن سمة التردّد هذه تلازم الإنجازات الأولى خصوصاً إذا كانت خرقاً لمعطيات فكرية وأنماطاً سلوكية ترسخّت عبر قرون وحظيت بالمباركة الجمعية حيث يعدّ من يخرج عليها «مارقاً» يستحق اللعنة.. لكنه كما قلت سار على قاعدة «أكسر واجبر» فبعد أن يمعن في تحليل و«تمزيق» ظاهرة ما، يعود لـ«يستغفر» علمياً ويشير إلى أن آراءه هذه قد تكون غير مكتملة وناقصة وقابلة للمراجعة.. وحتى في أحاديث ثمانيناته وحين يعلن عن تفاؤله بأن يتم الباحثون الشباب جهوده يعود سريعاً إلى الإفصاح عن تخوفه من دورهم حيث يقول عن ازدواجية الشخصية في المجتمع العراقي إنه «موضوع طويل عريض وإني لم أتمكن من دراسته دراسة وافية من جميع جوانبه. والمأمول من الباحثين

الشباب أن يتمّوا ما بدأنا به، نحن الشيوخ، ولكن الذي أخشاه منهم هو أن يضيّعوا علينا الخيط والعصفور».

· الشمّاع: أعتقد أنّ هذه سمة أسلوبية أصيلة في كتابة الوردي، وليس من حقنا أن نلوم شخصاً على سمة أسلوبية تأسست وترسّخت عبر عقود طويلة من الممارسة الكتابية.. أنتم كمحللين نفسيين يمكنكم قراءة ما وراء السطور لكشف سمّات نفسية من خلال ذلك.. إن أسلوب الوردي الكتابي – لقد أصبتني بعدوى التحليل يا دكتور – يشبه أساليبه التواصلية في الكلام والنقاش والاستماع..

سرمك: كيف؟

· **الشمّاع**: في الاستماع كان يتّبع طريقة الباشا – كما يسمّونها – والمقصود بالباشا هو «نوري السعيد» رئيس وزراء العراق سابقاً والذي كان يضع كفّه على أذنه ويقرّبها من محدّثه حين لا يريد أن يسمع شيئاً.. نوع من «التغافل السمعي» إذا أردت تسميته.. وكثيراً ما كان الوردي يتظاهر بأنه لا يسمع أو أنه ضعيف السمع في حين أنه – في الحقيقة – حادّ السمّع جدّاً.. هذا ما أشار إليه الفيلسوف الراحل مدني صالح في شهادته عن الوردي حيث قال بأنه كان يبدو لطلابه – ومدني كان منهم في مرحلة الكلية – وكأنه لا يسمع ما يدور ولكن ثبت بأنّ أذنه تلتقط كل شيء حتى الهمس.. وفي إحدى المرّات كنّا في مجلس الشيخ الخاقاني وقد دخلنا في حوار ساخن وتعالت بعض الأصوات وفجأة قال

الوردي: «يا جماعة تره الباب يندك»[1].. فدهشنا لأن الجميع لم يسمع صوت الطرق على الباب الداخلي.. وفعلاً ظهر أن الباب يطرق بهدوء إيذاناً بتقديم الطعام على الرغم من أنه كان منشغلاً بالحديث معنا والباب بعيد عنّا، وهناك حالات كاد يدخلنا بسببها في مشكلات كبيرة.

سرمك: مثلاً؟

• **الشمّاع**: لقد أخبرتك عن شكوى السيّد عبد القادر عز الدين وزير التربية في الثمانينيات التي قدّمها ضدّي لأنني كتبت مقالة عنوانها «الراية البيضاء» تعرّضت فيها لتدهور مستوى التعليم في العراق. وقد قدّمت اسميّ الوردي والدكتور حسين علي محفوظ كخبيرين في المحكمة، والدكتور كاظم المقدادي لأداء الخبرة الإعلامية. وبعد قرار البراءة قرّر اتحاد المؤرخين العرب إقامة حفل للخبيرين الوردي ومحفوظ احتفاءً بدور مؤرخين في مساندة صحفي قضائياً. وعندما جئنا – الوردي ومحفوظ وأنا – إلى قاعة الاتحاد وجدنا الدكتور مصطفى النجار في استقبالنا، ولكننا لم نجد أي مظهر من مظاهر الاحتفال التي وُعدنا بها. فسأل الوردي الدكتور النجار – وهو رئيس اتحاد المؤرخين العرب آنذاك – لماذا لا يوجد احتفال مصطفى؟ فقال النجار: دكتور.. وصلتنا تعليمات من مكتب أمانة سر القطر بأن لا نقيم الاحتفال. فتظاهر الوردي بأنه

---

(١) أي أن باب الصالة التي نجلس فيها يُطرق.

لم يسمع ما قاله النجار.. ووضع يده على أذنه وقال له: ماذا تقول؟ فرفع النجار صوته أكثر: تعليمات من أمانة سر القطر. الوردي: لا أسمعك.. ماذا تقول؟ فبدأ النجار بالصياح.. دكتور تعليمات من أمانة سر القطر.. وبعد أن سمع جميع من في القاعة سرّ إلغاء الاحتفال قال له الوردي: إمارة «قطر» «شنو علاقتها»؟

سرمك: هذا ما يسمّونه في السوق العسكري «التقرب غير المباشر» بالالتفاف على أجنحة العدو وليس بالهجوم المباشر على الجبهة..

· **الشمّاع**: نعم. كان يتّبع أسلوب الالتفاف والطرق غير المباشرة، كان يقول لي دائماً: تمتّع بالدهاء سلام، فأسأله: كيف دكتور؟ فيقول: اكسب المعرفة بالتظاهر بعدم معرفتها واسمع من الآخرين، واكسب الجدل بأن تتجنبه». وهذا القول لديل كارينجي من كتابه: «دع القلق وابدأ الحياة» الذي كان الوردي معجباً به أيّما إعجاب عندما قرأه في الولايات المتحدة أول مرّة حيث قال إنّ هذا الكتاب قد غيّر جوانب كثيرة من حياته. كان الوردي يمتلك قابلية عالية جداً على إثارة الجدل الحاد والتفرّج بعد ذلك على المتجادلين. وإذا ما أريد إشراكه فإنه يتجنبه متمسكاً بالمقولة السابقة التي يرددها دائماً: اكسب الجدل بأن تتجنبه. وقد حضرت نقاشاً أثاره الوردي في مجلس من مجالس بغداد حول موضوع الطهارة والنجاسة استمر أكثر من ساعتين. وقد طرح الوردي في البداية – ساخراً – موضوع الاستنجاء بالورق

أو الحجارة وآراء الفقهاء بشأن هذا الموضوع مركزاً على أن الإسلام دين اليسر وليس دين العسر وإن من الخطأ الفادح أن نجعله أصعب دين على وجه الأرض، ثم صمت وظلّ يتفرّج على الحضور وهم يتناقشون بحماسة، وعندما خرجنا عاتبته حول طبيعة الموضوع الذي طرحه. فقال: هل شاهدت المثقفين وهم يتقاتلون حول موضوع البراز!!.

سرمك: ألا تعتقد أنّ هذا الموضوع الذي اختاره الوردي يعيدنا إلى مسألة الأسطوانات التي كان يرسلها من الولايات المتحدة ويوصي فيها أولاده بعدم التبّرز في الطرقات؟ فالاهتمام بالنظافة وموضوعة البراز هي من سمات الشخصية الشرجية التي يسميّها الدكتور (علي كمال) الشخصية التسلطية الإلزامية التي من أظهر خصائصها التقيّد بالدقة والالتزام بالنظام والترتيب والحرص على النظافة. ويبدو صاحب هذه الشخصية وكأنه في حالة تحفز دائم للشك من أن ما يعمله هو الصواب.. وهو عنيد الرأي.. غير متساهل مع نفسه ولا مع الغير.. وقد تستولي عليه الوساوس..

- **الشمّاع**: هذا موضوع متروك لكم كاختصاصين نفسانيين.

سرمك: هذه الشخصية تتسم أيضاً بالبخل، هل كان الوردي بخيلاً؟

- **الشمّاع**: بصراحة، أنه كان أقرب إلى البخل منه إلى الكرم.. مثلاً لم يكن ينفق شيئاً يذكر.. لم يكن يهدي أي

كتاب إلاّ نادراً.. ويمشي ولا يصعد سيارة. وكان يقول: إن ذلك مفيدٌ للصحّة.. وأعتقد أنه كان حقيقياً في ذلك، فقد كان يمارس رياضة المشي بصورة يوميّة منطلقاً من بيته في الوزيرية إلى مجالسه في الكاظمية مشياً على قدميه، وكان يسير سريعاً محتذياً حذاءً رياضياً خفيفاً، وعندما كنّا نتجه إلى أحد المجالس ويكون معنا العلامة الدكتور (حسين علي محفوظ) الذي اعتاد على السير متمهلاً متئداً بطيئاً وبيده عصاه، كان الوردي يتركنا ويغذُّ السير، فهو يعتقد أن المشي السريع هو ما ينفع صحة الإنسان وليس المشي البطيء. وقد ذكرت في كتابي «من وحي الثمانين» وجهة نظره في المشي حيث قال: «إني كنت في شبابي أهتم بالرياضة، ثم أدركت بعدئذٍ فداحة الخطأ في ذلك. فإن الرياضة أساس مهم في صحة البدن وصحة الفكر معاً. وقد بدأت منذ عام ١٩٤٦ بممارسة رياضة المشي يومياً ومازلت أمارسها حتى الآن. إنما لا أكتفي بممارسة المشي وحده، بل أمارس الهرولة أيضاً، ولكني لا أستطيع ممارستها في الشوارع على نحو ما يفعل الإنسان في البلاد المتقدّمة، بل أمارسها في حديقة بيتي فقط.. إني عند ممارسة رياضة المشي والهرولة أذكر الله في كل نفس آخذه. وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً بأن الهواء الذي أستنشقه وهو مشحون بذكر الله لابدّ أن ينفع صحتي ويدرأ الضرر عنها».

سرمك: لكنّه كان موسوساً حتى في هذه الرياضة حيث كان يصرّ على المسير من الجانب الأيمن للجسر القادم من منطقة

الأعظمية ويرفض المسير من الجانب الأيسر.

· **الشمّاع**: لهذا حادثة طريفة أيضاً وذات معاني غنية نفسياً ترتبط بشخصية الوردي. فمثلما قلت كان – كما قال لي – يصرّ على المسير من الجانب الأيمن الذي يطلّ على مديرية الاستخبارات العسكرية، ولم يكن من المسموح للمارة أن يسيروا عليه، فحدث مرة أن تقدم نحوه أحد الحراس وطالبه بالعبور إلى الجانب الآخر من الجسر، فتشاجع الوردي وسأل الحارس بحدّة: لماذا؟ فأجابه: إني أعمل بأمر من مديرنا. فقال له الوردي بالحدّة نفسها: سأقف هنا واذهب أنت لتنادي مديرك هذا لأرى من الذي عيّنه في هذا المنصب؟ وعندما ذهب الحارس واصل الوردي السير ولم يقف. وفي اليوم التالي روى الوردي الحادثة في إحدى الصحف وقال: إنه يسير على الجسر ليرى مياه النهر ومنظر غروب الشمس فيصلي صلاة الصوفية، وروى قصّة الحارس الذي منعه من المرور على الجسر وبعد أيام وحينما كان الوردي يعبر الجسر مشياً كعادته أحسّ بسيارة تتباطأ خلفه. ثم تقف بإزائه ويُخرج أحدهم رأسه من نافذتها ويسبّ صلاة الوردي بكلمات يحلو للوردي أن يصفها بالقول: «إنّ الرجل سبّ صلاتي سبّاً مقذّعاً».

سرمك: ألا تعتقد أن العناد قد يلبس لبوس الشجاعة؟

· **الشمّاع**: إلاّ الوردي فقد كان شجاعاً حقاً.. لقد قال لي قبل العدوان الثلاثيني على العراق: سلام لا تخف.. إذا دخل الأمريكان

بغداد، وإن شاء الله لن يدخلوها.. أنا أستطيع حمايتك، فأنا عندي شهادة مواطن شرف أمريكي.

سرمك: وهل تعتقد أنّ هذه شجاعة، أي عراقي بسيط – وفي ظل تلك الظروف يقول لك لا تخف أنا أخوك وبيتي وبيتك. وفي ظل العدوان هناك عائلات ريفية آوت العديد من العائلات النازحة من بغداد خصوصاً وهي لا تعرفها أبداً.. وهناك مواقف شجاعة مشرفة تعزّ على الوصف. ثم هل تعتقد أن تلويح الوردي بشهادة الشرف الأمريكية هي نقطة قوّة.. لو قام بهذا التصرّف في عام ٢٠٠٣ في ظل حرب الاحتلال؛ ألم نكن نعتبره متواطئاً مع أمريكا؟ ولكن أرجو أن تخبر القرّاء كيف حصل الوردي على شهادة الشرف هذه لأنني لا أريد قطع استرسالنا في تناول التركيبة الشخصية للوردي؟

· **الشمّاع**: أنا شخصياً لا توجد لديّ معلومات تفصيلية عن هذا الموضوع سوى ما ذكره الدكتور «الورد» في المقدمة التي كتبها لكتابي حيث قال: «كان الوردي طالباً في جامعة تكساس يدرس علم الاجتماع. وقيل إن رئيس الجامعة هو رئيس قسمه وأستاذه. وكان عمدة نيويورك صديقاً للأستاذ فدعاه إلى إلقاء محاضرة علمية، أعلن عنها ودعا إليها. وفي اللحظات الأخيرة تهبط على الرجل مشاغل تمنعه من السفر فاتصل بعمدة نيويورك صديقه طالباً منه عدم تأجيل المحاضرة أو تغيير موعدها قائلاً له: سأرسل لك أميز الطلبة الدارسين عليّ لإلقاء المحاضرة. وكان هذا

الطالب هو: علي الوردي. وألقى المحاضرة واستولى على إعجاب الحاضرين الشديد ممّا دعا عمدة نيويورك إلى تكريمه بمنحه شهادة مواطن شرف أمريكي ومفتاح مدينة نيويورك.

سرمك: أستاذ سلام، ارتباطاً بموضوعة سمة الشجاعة في شخصية الوردي التي تراها أنت أصيلة في تركيبته، رويت لي ذات مرّة حادثة خطرة عن ذلك لا يعرفها سوى أشخاص معدودين واعتقد أن من المهم جدّاً أن تذكرها هنا تفصيلياً مادمنا نؤرخ ونحلل سيرة هذا المفكر العظيم؟

· **الشمّاع**: هذه حادثة في غاية الأهمية فعلاً، وأنا شخصياً حائر في تناول بعض وجوهها. ففي آذار من عام١٩٩١ وبعد أن هدأت نسبياً الحوادث التي عصفت بالعراق بعد انسحاب الجيش العراقي من الكويت، كنا خارجين من جريدة (الجمهورية)، أنا والنحّات (عبد المطلب مهدي عبود) في سيارة الصحافي (زهير العامري) وكنت أجلس في الكرسي الأمامي وقد وضعت رزمة كتب عائدة لي على الرّف الأمامي للسيارة. وفي الطريق شاهدنا الوردي ماشياً فقررنا أن نوصله إلى بيته.. كان الظلام دامساً بسبب التعتيم وانقطاع التيار الكهربائي أصلاً، سرنا على كورنيش الأعظمية بهدوء.. كنا ننصت للوردي وهو يتحدث بروح نقدية شرسة جداً ضد ا لدولة وتصرفاتها السلبية وكنّا ننصت بانتباه شديد له. وفجأة شعر السائق أنّ ثمة سيارة متوقفة أمامه في الظلام، وأنه يوشك أن يصطدم بها فضغط على الفرامل بقوّة..

فاندفعنا إلى الأمام، وهوت رزمة كتبي في حضن الوردي بقوّة، حيث كنت قد تركت له المقعد الأمامي وإذا به ينظر إلى النافذة الجانبية ويصيح: لا تضربني.. لا تضربني.. أنا لم أفعل شيئاً.. لا تضرب..

سرمك: ألم تضحكوا من هذه المفارقة الساخرة؟

· **الشّماع**: كلاّ. كنّا نضحك في سرّنا، تهيباً منه ولم نكلمه.. ثم أنّ الموقف ملتبس جداً.

سرمك: ألم يحاول أن يشرح لكم سبب ردّ فعله المفرط هذا تجاه جهة معاقبة غير موجودة؟

· **الشّماع**: كلاّ. الوردي شجاع في المواجهة في الساحة الفكرية في مجال الرأي والجدال، ولكنه ليس شجاعاً أمام شخص يضربه. وربمّا حتى الشجاع إذا فوجئ بهذا الشكل يحصل لديه ردّ فعل مثل هذا.. وردّ فعل عنيف.. ولكن الأستاذ فيصل حسون نقيب الصحفيين العراقيين الأسبق كتب إلي رسالة بعد قراءته كتابي (من وحي الثمانين) يصف فيها الوردي بالجبن.. يقول حسون: (.. وبمناسبة ما ذكر في الكتاب من أن الوردي الجليل كان يعتبرك فرعونه[1] أذكر لك أنه صار بعد ثورة ١٤/تموز/١٩٥٤ يصفني بالإنسان الخطر الذي يُبتعد عنه. وخلاصة

---

(١) كان الوردي يردد: (لكلّ نبيّ فرعون وفرعوني هو سلام الشماع).

الحكاية أن المرحوم الوردي كان منفرداً بي في مكتبي في جريدة (الحرية) في مساء اليوم السابع لتلك الثورة «...».. وبينما كنا نتبادل المعلومات عما حدث وعن شخصيات الحدث، حان موعد نشرة أخبار الساعة السادسة مساءً من إذاعة بغداد، فأصغينا بكل انتباه لما بدأ المذيع يعلنه من قرارات الثورة وبياناتها، وشدّ انتباهنا قرار إصدار قانون «محاكمة الوزراء ومفسدي نظام الحكم» وأتبعه المذيع بقرار صادر من رئيس الوزراء وزير الدفاع القائد العام للقوات المسلحة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم[1] بإنشاء

---

(١)عبد الكريم قاسم (١٩١٤ ـ١٩٦٣) رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة ووزير الدفاع في العراق من ١٤ تموز ١٩٥٨ ولغاية ٩ شباط ١٩٦٣. أصبح أول حاكم عراقي بعد الحكم الملكي. كان عضوا في تنظيم الضباط الوطنيين أو (الأحرار). ساهم مع قادة التنظيم بالتخطيط لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي أنهت الحكم الملكي وأعلنت قيام الجمهورية العراقية. عسكري عراقي عرف بوطنيته وحبّه للطبقات الفقيرة التي كان ينتمي إليها. ومن أكثر الشخصيات التي حكمت العراق إثارةً للجدل حيث عرف بعدم فسحه المجال للآخرين بالإسهام معه بالحكم واتهمه خصومه السياسيين بالتفرد بالحكم وكان يسميه المقربون منه وفي وسائل إعلامه "الزعيم الأوحد". تم إعدامه من خلال محكمة عاجلة في دار الإذاعة في بغداد يوم ٩ شباط ١٩٦٣، بعد ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ التي قام بها مجموعة من الضباط العسكريين العراقيين الذين كان معظمهم ينتمي إلى حزب البعث. هناك جدل وتضارب حول الإرث التاريخي لقاسم فقد عدّه بعضهم (نزيهاً وحريصاً على خدمة الشعب العراقي)، بينما عدّه بعضهم الآخر زعيما عمل جاهداً للاستئثار بالسلطة والسعي إلى تحجيم=

المحكمة العسكرية العليا الخاصة، ثم تلا ذلك قراءة المذيع قرار تشكيل المحكمة التي عيّن لرئاستها العقيد فاضل عباس المهداوي. ولأنني أعرف قاسم قبل الثورة، وأعرف المهداوي منذ كنت أراه في مطبعة جريدة الزمان لتنشر له بعض مقطوعاته الأدبية، ولأنني أعرف أن قاسم والمهداوي ابنا خالة فقد صدرت مني صيحة استنكار أن هذه الثورة بدأت عهدها بقرارات وتعيينات المحسوبية والمنسوبية، واستثارت صيحتي المرحوم الوردي فدنا مني يستوثقني - أحقاً أن قاسم والمهداوي ابنا خالة- فلما أكدت له معلومتي حوقل وغادرني.. وحدث بعد أسبوع آخر أن دخل إلى مكتبي قبل أن أغادر بعد انتهاء عملي في تلك الليلة الضابط الشيوعي سعيد مطر - وبرفقته الصحفي لاحقاً- يونس الطائي ثم ليأخذاني بعد وقفة عند بوابة وزارة الدفاع إلى الموقف العام الملحق بسجن بغداد المركزي السابق عند باب المعظم[1]، ليتسلمني آمر المعتقل الرائد أنور عبد القادر الحديثي ويأخذني وقت منتصف الليل إلى حيث هجع فوق فرشهم المعتقلون من رؤساء الوزارات

= جميع الأحزاب الوطنية منها والقومية والأخرى التقدمية، ويتهمه خصومه السياسيين بأنه أبعد العراق عن محيطه العربي وبأنه ابتعد عن الانتماء الإسلامي للعراق الإسلامي بالتقرب من الشيوعيين، إلا أن هناك نوعاً من الإجماع على شعبية قاسم بين بعض الشرائح كالعسكريين من ذوي الانتماءات الشيوعية والفلاحين في المدن والمناطق التي تقطنها الطبقات الفقيرة في جنوب العراق..

(١) أزيلت بنايته وبنيت فوقها الآن بناية وزارة الصحة.

والوزراء السابقين وقادة القوات المسلحة والشرطة وقوى الأمن وكبار موظفي الدولة من متصرفي الألوية (المحافظات) والمدراء العامين، وحتى بعض الصحفيين والإذاعيين، ولا أطيل عليك، فبعد شهرين من الاعتقال مثلت أمام محكمة المهداوي مع الإذاعيين فصدرت عنها قرارات براءتنا ، وغادرت المحكمة إلى مكتبي في جريدة (الحرية) ليواجهني انحراف الثورة وضيعتها بين المنادين بالوحدة، وبين المتشدقين بالاتحاد الفيدرالي المعادين للوحدة من الشيوعيين.. وعندما وقعت حركة الشواف هاجم رعاع الشيوعيين مكاتب صحف الحرية واليقظة والفجر الجديد وبغداد.. وكنت أعلق في مكتبي (جاكيت) بدلة عرسي لأرتديه عندما أفاجأ بدعوة لمقابلة شخصية كبيرة أو حضور مؤتمر صحفي مهم، وكان من بين ما نهبه الرعاع من دار (الحرية) ذلك الجاكيت الذي رأيت أحد البائسين من السائرين في التظاهرات الشيوعية يرتديه، وأراه عندما كانت التظاهرة تمرّ أمام مدخل دار الحرية المقابل من الجانب الغربي لشارع المتنبي! وتعطلت (الحرية) لبضعة شهور، وعندما عاودت الصدور، وكانت معركتها محتدمة مع (اتحاد الشعب)، أصدر المرحوم الوردي أحد كتبه، وربما كان (خوارق الشعور) أو غيره، وعلى عادته في إهدائي كل ما يصدر له، ولأنه لم يعد يزورنا في (الحرية) التي كتب فيها كثيراً في العهد الملكي، فقد انتهز فرصة لقائه المرحوم عطا الله شهاب مسؤول الحسابات في الجريدة ليسلمه نسخة كتابه المهداة إليَّ وليبلغني أنه لا يزورني في مكتبي لأنني

خطر! وظل أبو حسان يعيرني بتلك الخطورة وأعيّره بالجبن الذي كان يقول لي المرحوم عبد الهادي البجاري إنه نأكل به خبزاً».

ويضيف الأستاذ فيصل حسون في رسالته الموجهة إلي في كانون الثاني ٢٠٠٨: (وغيبتني السنون هذه المرة عن العراق، واحتضنتني القاهرة حتى أزهدني بضيافتها ذلك الصلح المشؤوم بين أنور السادات وبين مناحيم بيغن، وخلال الاتصالات التي سبقت الصلح، كنت ذات يوم أتمشى في أحد شوارع القاهرة وإذ بي ألتقي وجهاً لوجه المرحوم الوردي ويسألني عن أحوالي ويحزنه أنني لم أكن أعمل في ميداني، وكان هو يمرّ بالقاهرة في العام ١٩٧٦ على ما أظنّ مروراً في رحلته التي يقصد فيها بولندا ليستمتع برضا تكاليف التصييف في ربوعها. وسألته إن كان ينصحني بالعودة إلى العراق – وكنت طرحت هذا السؤال ذاته على المرحوم جعفر الخليلي فكان الرد واحداً بأن لا أعود إلى الوطن الآن!).

سرمك: هذا صحيح.. تعرّف الشجاعة أحياناً بأنّها «الخوف المقهور»، ولكن نفسياً هناك آلية دفاعية نفسية نسميّها: التكوين الضدّي – Reaction Formation – ومنها يظهر الشخص سلوكيات هي عكس ما يكبته في لا شعوره تماماً. ويبدو أن الوردي كان يكابد القلق المرير طوال الوقت إلى أن طفح الكيل.. أتذكر حادثة مماثلة حصلت في الثمانينيات مع شاعر معروف جدّاً كان محسوباً على الشيوعية وكنّا عائدين من إحدى المحافظات بعد أن حضرنا مهرجاناً شعرياً، لم يستطع قائد السيّارة الفنان التشكيلي

«عمر مصلح» التأكد من الطريق فسار في طريق صحراوي مظلم، وبعد قليل بدأ الشاعر المعروف بالصياح، بل بالصراخ والزعيق: لا تقتلوني.. أرجوكم.. أنا لم أفعل أي شيء.. أنا أخوكم» وكنّا جميعنا أصدقاؤه.

- **الشمّاع**: أعتقد أننا ننطلق من رؤيتين مختلفين، واختلافنا هذا سيوفر للقارئ متعة كبيرة ويمنحه ويمنح المختصين مساحات للتأمل والتدقيق في سلوكيات أنموذج إنساني كبير هو الوردي الذي ملأ الدنيا العراقية وشغل ناسها بحق.

سرمك: ارتباطاً بموضوعة الشجاعة يرى بعضهم أن توقف الوردي عن إكمال مشروعه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» عند نهاية مرحلة الأربعينيات يعود إلى خوفه من أن يؤرخ تاريخ العراق المعاصر بصورة تغيظ الحركات الشيوعية والبعثية التي تناوبت على حكم العراق بعد تلك المرحلة؟

- **الشمّاع**: لا أعتقد أن التوصيف الصحيح هو الخوف، بل التحسّب، لأنّ السلطة في العراق منذ نهاية الخمسينيات أصبحت مسلّحة، بل مرعبة. ومن حقّ الوردي أن يحسب خطواته.. ومع ذلك دعني أروي لك هذه الحكاية التي تدلل لك أنّ الوردي كثيراً ما كان يقفز على هذا التحسّب، ففي ٧ شباط ١٩٩٢ أقمنا جلسة صلح للوردي مع السيّد سعد البزّاز وكان رئيساً لتحرير جريدة (الجمهورية) بعد انزعاج أبداه الوردي من المشرف اللغوي للجريدة

وبعض المحررين فيها.. جلسنا على مائدة مستديرة: الوردي والدكتور حسين علي محفوظ والشاعر الأردني ماجد المجالي وزهير العامري وأنا.. وكان البزاز ودوداً جداً مع الشيخين: الوردي ومحفوظ، فهو يحبّهما جدّاً ويُشعرهما بذلك، وفي أثناء الحديث دخل علينا السيد عبّاس الجنابي وكان رئيساً لتحرير جريدة (بابل) التي كان يُصدرها عدي صدام حسين، فقدّمه البزاز للوردي بصفتين: رئيس تحرير جريدة بابل، ومدير مكتب عدي صدام حسين، وقال الجنابي إنّ الأستاذ عدي يريد أن يراك يا دكتور.. فقال له الوردي: لا أستطيع الذهاب إليه.. وبعد قليل كرر الجنابي الطلب، فكرر الوردي الإجابة، فسأله الجنابي: لماذا يا دكتور؟.. فقال الوردي: لأني رجل كبير ومريض وأسعل!!.. ثم بعد مرور وقت قصير كرر الجنابي طلبه ثالثة، فكرر الوردي أيضاً إجابته: لا أستطيع الذهاب إليه.. وعندما سأله الجنابي: لماذا يا دكتور؟!.. قام الوردي من مقعده وهزّ عجيزته كمن يرقص، وقال للجنابي: لأني لا أستطيع أن أفعل هكذا للأستاذ.. وجمنا وأحسسنا بالخوف جميعاً. وفي اليوم التالي – أي ٨ شباط ١٩٩٢ – طلعت جريدة الجمهورية بخبر على صفحتها السابعة عنوانه (د. الوردي ود. محفوظ والمجالي في الجمهورية) كتبه البزاز بنفسه، ونشرت مع الخبر صورة ظهر فيها محفوظ والوردي والبزاز والجنابي. قال الخبر: (مثلما لكلّ جريدة علاقات مع كتّابها، فإن للجمهورية علاقات خاصّة وعميقة مع مجموعة من الكتّاب الكبار، والدكتور علي الوردي أحد أهم من تعتزّ الجمهورية

بعلاقاتها معهم. وإذا ما كان الاختلاف في الرأي يعدّ شكلاً من أشكال الحوار فأنه قد يسبب أيضاً "ضباباً" يُغلّف فضاء العلاقة في بعض الأحيان، وقد حدث تضبب المناخ قليلاً، وبالأخص حول مقالات الدكتور الوردي التي نُشرت في جريدتنا عن القيم البغدادية، فقد رأى بعض المحررين آراء أخرى غير التي وردت في مقالاته. وفي زيارة عمل وود مساء أمس قام بها الدكتور الوردي بصحبة الدكتور حسين علي محفوظ والشاعر الأردني ماجد المجالي استقبلهم الأستاذ سعد البزاز رئيس التحرير وتمّ الاتفاق بعدها على أن يواصل الدكتور الوردي نشر مقالاته بغضّ النظر عن اختلاف الرأي.. عملاً بحرية الفكر وتأكيداً لأواصر الجريدة مع كتّابها.. وسيكون الباب مفتوحاً لكلّ من يريد أن يناقشه فيها سلباً أو إيجاباً. وزار الجريدة في الوقت نفسه السيد عبّاس الجنابي رئيس تحرير الزميلة (بابل) حيث حضر اللقاء وشارك في الحوار المستفيض الذي جرى خلاله).

سرمك: أسألك الآن سؤالاً مباشراً: في كتابات وأحاديث الوردي كلّها لم أجد أيّ إشارة إلى الزعيم الراحل «عبد الكريم قاسم» ما هو السبب برأيك؟

· **الشمّاع**: أعتقد أن الوردي لم يكن يحبّ «عبد الكريم قاسم».. وأرى أن السبب هو تصرفات الشيوعيين والمجازر التي قاموا بها من سحل الناس في الشوارع وتعليقهم على أعمدة الكهرباء وهتك أعراض النساء وغيرها من الجرائم. وقد قال لي:

إنـه سـافر إلى لنـدن بعـد ثـورة ١٤تمـوز ١٩٥٨ وهنـاك التقـى أحـد رجالات العهد الملكي البارزين.. فقال له الأخير: كنتم تشتموننا وترون أننا سيئون.. ما هو رأيكم الآن؟ فأجابه الوردي: ذلك يُحسب لكم لا عليكم، فلو قلت الآن عُشر ما قلته عنكم لتمّ سجني، بل قتلي، نحن نترحّم عليكم الآن. أعتقد أن الوردي أسس قناعة راسخة في أن تسلّم العسكر للسلطة كان مفتاح خراب العراق.

سرمك: هل كان الوردي يقارن بين حاله في ظل العهد الملكي وحاله في ظل العهد الجمهوري؟

- **الشّمّاع**: هي مفارقة غريبة جداً.. في ظل العهد الملكي كان الوردي علم في رأسه نار، حسب تعبير الخنساء وهي تصف أخاها «صخر».. وفي ظلّ العهد الجمهوري الذي من المفترض أن يكون أكثر عناية به أهمل تماماً. في العهد الملكي عرض عليه رئيس الوزراء «نوري السعيد» منصب وزير الشؤون الاجتماعية فرفضه».

سرمك: لماذا؟

- **الشّمّاع**: سألته عن ذلك فأجابني: كانوا يريدون تكميم فمي، إذا وافقت فستفقد جهودي التنويرية والتحرّشية كلّ مضامينها وتصبح جوفاء، سأفقد مصداقيتي أمام الجمهور الذي وثق بي مهما كان قليلاً.

سرمك: هذا في العهد الملكي، أمّا في العهد الجمهوري فقد أُهمل تماماً!!

- **الشّمّاع**: نعم، وهو أمر يدعو للدهشة لأن من يتصدى للتحديث في أي مجتمع يحتاج إلى قياداته النخبوية المميّزة، فكيف الأمر مع الوردي؟

سرمك: ألا تعتقد أن في هذا الموقف شيئاً مشتركاً مع الموقف من الطبيب النفسي في مجتمعاتنا؟

- **الشّمّاع**: كيف؟

سرمك: في مجتمعاتنا هناك «وصمة نفسية – Psychocological stigma تلحق بالشخص الذي يراجع طبيباً نفسياً لأي سبب حيث يعدونه «مجنوناً». وحين يجلس الطبيب النفسي في أي مجلس يتحسّس منه الحاضرون لأنه «سوف يحلّلهم»!! متصوّرين أن الأمر بهذه البساطة، نظرة ثم تحليل ثم فضح..!! وأعتقد أن هذه النظرة نفسها قد صبغت الموقف من الوردي لأنه لم يكن باحثاً اجتماعياً كلاسيكياً. كان «محللاً» اجتماعياً أصيلاً قادراً – بوجوده المحض على تهديد تماسك أكثر الشخصيات السياسية سيطرة وادعاءً بالحصانة القياديّة وهو أمر لا يسرّها على الإطلاق، ويثير لديها ما يشبه الخوف من الوصمة النفسية أي يمكن أن نسميّها بـ«الوصمة الاجتماعية» Social Stigma.

- **الشّمّاع**: هذا صحيح، وصدّقني دكتور أن الوردي كان شيئاً مخيفاً يشعر السياسيون بالتهديد بسببه. هم يعتقدون أنّه قادر

على كشف مكنوناتهم الاجتماعية المستترة مثلما يستطيع المحلّل النفسي رفع الغطاء عن مكبوتاتهم كما تقول أنت.

سرمك: ألم يحصل على أي تكريم وسط موجة التكريمات في الثمانينيات والتسعينيات الغزيرة التي نتذكرها جميعاً؟.

· **الشمّاع**: هناك تكريم نتذكره جميعاً والذي أسميته في كتاباتي «التكريم اليتيم» وكان من وزارة الثقافة في العراق، ولكن الوردي لم يتسلم مبلغ التكريم ولم يتسلمه أهله، فقد توفي – رحمه الله – في يوم إعلان أسماء المكرمين، فحذفت الوزارة اسمه من قائمة المكرمين بسبب وفاته (إمعاناً في تكريمه).

سرمك: ألا تعتقد أن هذا التصرف يرقى إلى مستوى الجريمة الثقافية؟

· **الشمّاع**: نعم، خصوصاً وأن المشرفين على وزارة الثقافة آنذاك مجموعة من المثقفين العراقيين المعروفين الذين – ويا للغرابة – يتباكون – على الوردي الآن.

سرمك: كلما قرأت ما كتبه الوردي عن موقفه من التكريم شعرت أنه زاهد فيه في الظاهر ولكنه يمتلك حاجة نفسية لائبة في أعماقه.. وأحسّ أنه يشعر بمرارة الغبن الشديد، أنظر إليه كيف يتحدث – وهو في الثمانين – عن هذا الموضوع حيث يقول: (سألني أحدهم مرّة عن الكتّاب والأدباء الذين نالوا التكريم في حياتهم بينما ناله بعضهم الآخر بعد موتهم – وطلب مني أن أحدد له نوع

التكريم الذي أفضله لنفسي: تكريم ما قبل الموت أم ما بعده؟ ويجيب الوردي عن هذا السؤال قائلاً: بعد التجارب المرّة التي عانيتها في حياتي صرت أشعر أنّ كلا النوعين من التكريم لا ينفع الإنسان شيئاً، لاسيما إذا كانت (رجله على باب قبره) على حد تعبير العوام. إني قررت أن أرفض أية دعوة للتكريم في حياتي لو فرضنا أنها وُجهّت لي لسبب من الأسباب، فأنا واثق أنها لا تنفعني شيئاً في هذا الأيام الأخيرة من حياتي، فإنّ أيِّ تكريم أو مكافأة أو شهرة ينالها الإنسان في أواخر أيامه يصدق عليها قول أبي فراس الحمداني:

أتت وحياض الموت بيني وبينها   وجادت بوصلٍ حيث لا ينفعُ الوصلُ

أماّ التكريم بعد الموت فهو لا ينفعني كذلك، فالإنسان الذي يذهب إلى ربّه بعد الموت سيّان عنده أن يجري التكريم له في هذه الدنيا أو لا يجري، لأن حساب الله في الآخرة يقوم على أساس غير هذا الأساس الذي اعتدنا عليه في هذه الدنيا».

· **الشمّاع**: نعم، كان الوردي يشعر بالمرارة من هذا الإجحاف الذي لا يستحقه، وذات مرّة حصل حادث طريف ولكنه أثار في نفسي الألم ولا أعتقد أن الوردي لم يتأثر به، كنا – الوردي وأنا – في الكاظمية حيث وقف الوردي ليلتقط له المصوّر علي ناصر حكيم الصور لمجلة (التضامن) اللندنية التي كانت تنشر مذكراته.. كان الوردي يلبس سدارته الفيصلية. ووقف قريباً منّا شابان ينظران إلى الوردي فسأل الأول الثاني: هل تعرف هذا

الشخص (أبو السدارة) الذي يصورونه؟ فأجابه: «يمعوّد.. هذا قارئ مقام معروف!!».

سرمك: ارتباطاً بكلامك. هنا أتذكر أن قناة تلفزيون بغداد الثقافية عرضت برنامجاً كشف عن أن الكثير من طلبة الجامعات العراقية لا يعرفون أي شيء عن رموزهم الثقافية المعاصرة وبعضها مشهور جداً ومعروف عربياً.. وأتذكر أن مسؤولاً كبيراً في الدولة آنذاك قال لي: أنتم النفسيّون دوختمونا بصاحبكم «جيمس بوند».. وحين صححت له الاسم وقلت له «سيجموند فرويد» وليس «جيمس بوند»ضحك وقال: «ما يفرق»!!

· **الشمّاع**: دكتور، لقد رسم الدكتور «عبد الأمير الورد» في مقدمته الشافية الوافية لكتابي المأزق الذي وجد الوردي نفسه فيه بصورة دقيقة، مأزق التعامل مع المتغيرات الاجتماعية التي بدأت تحاصره من كل جانب حيث يقول: «ثم كان آخر ما هاجم الوردي العربية، كما وصلت إلينا، وأعلن في إحدى الحلقات المتأخرة في كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) أنه بدأ بالخروج عن قواعد اللغة العربية فصار يكتب جمع المذكر السالم بالياء والنون مهما يكن إعرابه، ويكتب المثنى بالياء والنون أيضاً، وأنه سيبدأ شيئاً فشيئاً الخروج عن القواعد الأخرى. وصدر القانون الإعلامي (قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية) وأحسّ الوردي أنه لابدّ أن يكون هو المقصود بذلك القانون، ولاشك أنه حمد الله تعالى ألف مرّة لأنه لا يوجد للقانون أثر رجعي

وإلاّ لكان قُدّم للمحاكمة (...) التزم علي الوردي الصمت فلم يُصدر بعد ذلك شيئاً. وجاءت الحوادث لتقول لعلي الوردي: احذر فإنك تسبح واضحاً ضد التيار. كان علي الوردي يهاجم القبلية والعشائرية، وإذا بالسلطات شيئاً فشيئاً تغطي إفلاسها العام بالاعتماد على القبلية والعشائرية. وشاهد علي الوردي بأمّ عينيه كيف صار بعض الطلاب يُقبلون ثم يمنحون الشهادات، بل الشهادات العليا أيضاً، بصورة مفتعلة بأوامر وضغوط حزبية تحت هذه الذريعة أو تلك. وشاهد علي الوردي أن في قيادات المجتمع من لم يكن يُحسن قراءة صفحة واحدة أو كتابة سطر واحد». إن من يتتبع سيرة علي الوردي يجد أنه حُصر في زاوية لا يستطيع الفرار منها. فالقيم التي كان يعارضها ويفنّدها في كتبه صارت تتصدّر شيئاً فشيئاً الواجهة الإعلامية».

سرمك: لكن أرجو أن لا تنسَ أن (الورد) كان منفعلاً في بعض مواضع مقدّمته هذه وغير حيادي في مواضع أخرى.. لقد عدّ ميلاد حزب البعث عام ١٩٤٨لمجرد أن يتفق مع استنتاجه عن سبب توقّف الوردي عن إكمال أجزاء كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث)، ويعد تاريخ الوردي للمراحل اللاحقة للأربعينيات سيصطدم بدور البعث متناسياً أنه سيصطدم بدور الشيوعيين ويحكم العسكر وغيرهما من المتغيرات السياسية...

· **الشّماع**: صحيح، وقد تحدث أيضاً عن أداء الوردي للصلوات الخمس ولم أسمع من الوردي كلمة (صلاة) إلاّ ما يخصّ

الصلاة التي يصفها بأنها (صلاة الصوفية) والتي يؤديها وهو يمشي على جسر الأئمة عند الغروب..

سرمك: المهم، هل بقي الوردي مخلصاً لتعهده الذي أعلنه بأن يرفض أيّة دعوة للتكريم في حياته؟ أم أنه التفّ على تعهّده؛ كما التفّ على تعهّدات أخرى؟

· **الشمّاع:** ظل الوردي مخلصاً لتعهده هذا. ففي حفل التكريم الذي أقامه نادي الجمهورية الثقافي الذي كان يرأسه الصحفي «مؤيد عبد القادر» - وكنت نائبه - ، وقد تعذر على الوردي حضور الحفل بسبب حالته الصحيّة والمرض الذي انتهى بوفاته، فأرسل الوردي إلى الحفل بيت شعر واحداً بيد ولده الدكتور حسّان وهو البيت المشهور الذي ذكرناه وكان لأبي فراس الحمداني وكان هذا البيت شديد التعبير عن حالة الوردي وتأخر المعنيين في تكريمه:

أتت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصلٍ حيث لا ينفعُ الوصلُ

وقد اضطررت لكتابة كلمة ضمنتها هذا البيت وأعطيتها للدكتور حسّان ليلقيها في الحفل. فإن من غير المقبول أن يصعد إلى المنصّة ليقرأ بيتاً واحداً فقط وينزل. طبعاً أنا حاولت وبتكليف من الزميل «مؤيد» إقناعه بالحضور إلى حفل التكريم الذي أقيم في قاعة ابن النديم للمكتبة الوطنية قبالة المبنى القديم لوزارة الدفاع العراقية. ولكنه – رحمه الله – اعتذر عن ذلك، ولمّا

ألححت عليه بالمجيء قال لي بأنه سيتدبر الأمر. وقد أُقيم الاحتفال في موعده المحدّد وحضره كبار رجال الفكر والثقافة والأدب أمثال العلاّمة الدكتور (حسين علي محفوظ) والمؤرخ الخططي الدكتور (عماد عبد السلام رؤوف) والدكتور (حسن الجاف) والدكتور (سلمان الواسطي) والدكتور (عبد الأمير الورد) وآخرون. وعلى الرغم من أن الكلمة، التي كتبتها للدكتور حسّان كانت مؤثرة وقويّة، لكن الحضور، في الواقع، لم يتأثروا بها بقدر ما تأثروا ببيت الشعر القديم الذي أرسله الوردي.

سرمك: وهل تعتقد أن الوردي قد وفى بوعده في عدم الحضور إلى أي حفل تكريمي؟ لقد أرسل ابنه وهذا ما نسميّه بـ«ألعاب اللا شعور الماكرة».. فهي لعبة بقي الوردي فيها «بعيداً» وعند وعده وعهده ولكنه حضر الاحتفال التكريمي بصورة غير مباشرة فغيّب بصيرة رقيبه النقدي الداخلي عبر تصافق شديد الإحكام أرضى به أناه الأعلى ودوافعه اللا شعورية النرجسيّة، لكني أسألك بنحو واضح هل كان الوردي يتسلم الراتب المخصّص للعلماء من قبل اللجنة الأولمبية؟

- **الشمّاع**: نعم. يتسلمه شهرياً، وكان راتباً من الدرجة الأولى (أ)، ولكن هناك ما هو أهم وهو أننا قررنا – نحن المحتفين بالوردي في احتفالية التكريم السابقة، أن نزور الوردي في بيته ونلتقط الصور التذكارية معه. وهنا حصل أمر غريب يستحق التأمل والمراجعة.

سرمك: ما هو؟

· **الشمّاع**: ذهبت معنا الصحفية «شرقية الراوي» وهي صاحبة مجلس أيضاً، وكانت لديها مكتبة في الباب الشرقي بجوار مكتبة «النهضة»، دخلنا على الوردي الذي كان تعباً ومسجىً في فراشه حيث أنهكه «التبول الدموي» وإذا بعلاقة عجيبة غريبة تنشأ بين الوردي وشرقية، علاقة قويّة جدّاً حتى وصل الأمر إلى حدّ أنها كانت تمازحه بطريقة لا حدود ضابطة لها حيث تعامله – في المزاح طبعاً – كفتى مليء بالحيوية بالرغم من مرضه وكان من جانبه – والحق يقال – مسترخياً ومستريحاً لتعاملها معه.

سرمك: هذا ما نسميّه في علم النفس بـ«المراهقة الثانية»..

· **الشمّاع**: بالضبط، فقد وخزته بإصبعها في خاصرته ذات مرّة فقال شعراً بعد انقطاع عن الشعر لعقود طويلة، قال بيتاً شديد الطرافة أضحكنا جميعاً:

هي «نغّة» جاد الزمان بها　　　هي أجمل من سائر «النغّاتِ»

سرمك: إلى الآن أجد أن علاقة شرقيّة بالوردي فيها طرافة نفسيّة وكشف لاندفاعات «الروح الخضراء» لرجل ممدّد تحت رحمة «المثكل» - كما يصف جدّنا جلجامش الموت – وقد بلغ من العمر عتيّا..

· **الشمّاع**: لا.. يا دكتور.. لقد أوصلتنا هذه العلاقة إلى خراب

حقيقي لا أحد يتوقعه مطلقاً... وقبل أن أحدثك عن النتيجة المدّمرة دعني أخبرك عن شيء من علاقتي بشيخي الوردي: كنت أعرف الوردي من خلال الأجزاء الأولى من كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) الذي جرّني إلى قراءة كتبه كلّها، بل كل ما كتبه من مقالات وما أجري معه من حوارات ولقاءات، كان ذلك في سنوات يفاعتي. وكنت أتحرق شوقاً للاقتراب من هذا الرجل، ولم يكن ذلك بالأمر العسير على شخص مثلي، فالوردي من مدينتنا (الكاظمية) وهو يتجول في شوارعها على الدوام، ووالدي الحاج كاظم الشماع يملك محلاً لبيع الأقمشة في أهم شوارع المدينة، وأنا أقضي معظم وقتي في مساعدة والدي في ذلك المحل، وكان البرنامج اليومي للدكتور علي الوردي كان ينص على المرور من شارعنا ومن أمام محلّنا تحديداً. ولكنني تهيّبت من الحديث مع صاحب (وعّاظ السلاطين) ولم أتجرّأ وأسلّم عليه إلاّ في عام ١٩٧٦ عندما شاهدته في ممر مجلة (ألف باء) وكنت محرراً حديث العهد بالصحافة فيها. وكان الوردي وكأنه يبحث عن أحد، وأردت، وقتها، أن أقول له: إنني كنت أتمنى أن أتعرّف عليك، ولكنني لارتباكي قلت له: إنني من جيرانك في محلتك القديمة يا دكتور. ولكن الوردي نظر نحوي من وراء نظارته بغضب وسألني عن غرفة رئيس التحرير الزميل «حسن العلوي» وانصرف معتمراً (سدارته) حاملاً بيده مسبحة قديمة قصيرة يداعب حباتها بأصابعه. ولم أجد تفسيراً لتصرّفه هذا إلاّ بعد أن قرأت مقالاته وكتبه التي لم أكن قد قرأتها بعد، وحينئذٍ

فقط عرفت أنه عدّ قولي من آثار الفترة المظلمة وأنه تصرف ينافي الحضارة الحديثة، ثمّ لابدّ أنه حكم عليّ بأنني مصاب بالازدواجية!!.. وفي وقت لاحق، في عام ١٩٨٤، كنت أزور صديقي السيّد (صفاء الوردي) في محله بباب القبلة في الكاظمية، وكان الوردي يحضر يومياً إلى ذلك المحل فتوطدت بيننا عرى صداقة متينة بتنا معها لا نفترق يوماً، كنت محسوداً من الكثيرين على علاقتي بالوردي.. وكان هو يشعر بفراغ قاتل حين لا يراني.. ويبدأ بالسؤال عني بإلحاح شديد.. تصوّر دكتور أنّ الوردي حين تدهورت حالته الصحيّة بسبب مرضه أرسل في طلبي وقال لي نصّاً: «سلام، أنت (ابن أجاويد) وشريف وقد أوصيت أفراد عائلتي كلهم أن لا يتصرفوا بأي شيء من تراثي إلاّ بعد استشارتك..

سرمك: كل ما قلته جميل ومحكم، وقد جعلني أتوقع انتكاسة كبيرة ألّمت بهذه العلاقة، انتكاسة شديدة الأذى بسبب علاقة الوردي بشرقية الراوي التي يبدو أنّها أزاحت الجميع، ومن بينهم أنت.. هكذا أتوقع.

· **الشمّاع**: وهذا ما حصل فعلاً. فقد انزعجت إلى حدّ كبير من الطريقة التي تعامل بها شرقية الراوي الوردي الذي اعتبره شيخي وأستاذي وأبي الروحي.. كانت تتمادى إلى حدّ كبير في مزاحها معه وتتعبه وهو الشيخ المسجى الذي ينتظر رحمة المثكل.. فنهرتها بقوّة وقلت لها: كفى. لقد أتعبت أستاذنا.. ولن تصدق دكتور حسين ما حصل.. لقد حصل شيء لا أستطيع استيعابه حتى

هذا اليوم وبعد مرور أكثر من عشر سنوات على وفاة أستاذي الوردي.. لقد (زعل) لأنني لمت شرّقية وقلت لها إنك تتعبين – بسلوكك وملاطفاتك – أستاذي.. وماذا فعل؟ نهرني وطردني من البيت وقال لي: إذا لم يعجبك ما أقوم به في بيتي، فتفضل وغادر البيت.. هيّا.. مع السلامة!!.

سرمك: هكذا.. وببساطة؟

· **الشمّاع**: نعم.. هكذا وببساطة.. وببساطة شديدة جدّاً وموغلة في الأذى.

سرمك: وماذا فعلت؟

· **الشمّاع**: خرجت.. واستقبلت الأمر – بروح رياضية – لعلمي أنّه سوف يصحو من (سكرة المراهقة الثانية) كما أسميتها أنت ليمسك بفكرة الرشد والنضوج المعروف عنه.

سرمك: دعنا نوسّع النظرة إلى هذه المسألة الشائكة، وذات المعاني البليغة، وأسألك عن موقف الوردي من المرأة والجنس الناعم عموماً – حيث صُوّر لنا أنّ الوردي زاهد بالجنس والمرأة؟

· **الشمّاع**: كان قلب الوردي «أخضر» ويموت في الجمال. وأتذكر أن صحيفة «القادسية» أجرت لقاءً قصيراً معه نشر على صفحتها الأخيرة في يوم ٧/آب/١٩٩٢ حيث سئل: ماذا تصنع حين تظهر أمامك فجأة امرأة جميلة جداً؟ فأجاب: أصيح بأعلى صوتي

(اللّٰه أكبر). وفعلاً كان هذا هو ردّ فعل الوردي حين يفاجأ بامرأة جميلة تظهر أمامه فجأة، ومن الحوادث الطريفة هو أن رد فعله هذا قد خلق له مشكلة خلال عمله التدريسي في الجامعة حيث شكته إحدى الطالبات الجميلات التي هتف في وجهها: اللّٰه أكبر عندما ظهرت أمامه فجأة في أحد ممرات الكلية. فأرسل عميد الكلية في طلبه وعرض عليه شكوى الطالبة. فقال له الوردي بأسلوبه الساخر: حتى (اللّٰه أكبر) راح تمنعوها.. وذات مرّة زارني الوردي إلى مقر جريدة (الجمهورية) وصعدنا السلّم فظهرت أمامنا بنحو مباغت شاعرة جميلة فصاح الوردي: (اللّٰه أكبر). فدهشت الشاعرة وكانت تعرفه وسألته: ما بك دكتور؟ فسألها: ماذا تأكلين لتكوني بهذا الجمال؟ فقال ضاحكة: تفّاح. فقال لها: واللّٰه أنا آكل تفاح أيضاً. وبالمناسبة وفي هذا اللقاء نفسه هناك أجوبة قدّمها الوردي قد تساعدك في استكمال وجهة نظرك عنه.

س: هل أنت مزدوج الشخصية؟

ج: شويّة[1].

س: يقال أن مجموعة من النساء الجميلات يضمرن لك حبّاً عميقاً؟

ج: وين اللّٰه[2].

(١) باللهجة العراقية تعني كلمة (شويّة) قليلاً.

(٢) تعني: عسى اللّٰه أن يجعل هذا الكلام حقيقة.

س: ما أحب أغنية عراقية إلى قلبك؟

ج: إلمن أروحن واشتكي.. مليان كل قلبي حكي[1].

س: لو قدر لك أن تعود إلى بداية العمر فهل تسير في نفس الطريق الذي سرت فيه.

ج: ليس للإنسان اختيار في سلوك أي طريق في حياته إلاّ ضمن حدّ محدود. إن الإنسان في كثير من الأحيان هو كالريشة في مهب الرياح.

س: لماذا كرهت النازية والماركسية معاً؟

ج: كرهت النازية لأنها اعتدائية وكرهت الماركسية لأنها لم تفهم الطبيعة البشرية فهماً صحيحاً.

سرمك: **كيف كان الوردي ينظر إلى المرأة العراقية وبنحو خاص بعد التغيرات التي حصلت في السبعينيات والثمانينيات؟**

• **الشمّاع**: على الرغم من كل التغييرات التي حصلت في موضوع المرأة العراقية إلاّ أن الوردي لم يكن يتردد في الإعلان عن أن المرأة العراقية في مأزق وقد نشر ذلك علناً في مقالة في جريدة (الجمهورية) حيث قال إنّ المرأة العراقية تغيّرت كثيراً عمّا كانت عليه قبل نصف قرن من حيث ملابسها وتعليمها وعملها وغير ذلك، بينما القيم الاجتماعية التي تخص المرأة لم تتغير بتلك السرعة. فالمرأة العراقية تكاد تشبه المرأة الأوروبية في ثقافتها وملابسها

---

(١) تعني: إلى من أذهب لأشتكي له فإن قلبي ملئ بالشكاوى.

وزينتها ومهنتها لكنها في الوقت نفسه، محاطة بالقيم التي كانت تحيط بأمّها وجدّتها وإن كانت أقلّ شدّة، وما أكثر الضحايا من النساء اللواتي سقطن من جرّاء هذا التفاوت بين الوضع الحديث والقيم القديمة.

سرمك: وكيف كان ينظر إلى مسألة الزواج وهو الذي تزوّج زواجاً تقليدياً بغدادياً لم يرَ فيه وجه زوجته إلاّ ليلة الزفاف كما أسلفنا؟

· **الشمّاع**: كان يدعو إلى زواج «حديث» يقوم على فهم متبادل لمدة مناسبة تتم فيه المعاشرة النفسية والجسدية بين الرجل والمرأة. وفي مقالة له في صحيفة (الاتحاد)[1] عن مشاكل الزواج في مجتمعنا استهله بمثال مركّب هو حمّال أوجه كما يقال. حيث قال: «لعلّ من المناسب في هذا الصدد أن أقصّ لك قصّة فتاة أمريكية كنت أعرفها معرفة شخصية في أثناء دراستي في أمريكا في الأربعينات. فقد كنت أسكن حينذاك مع عائلة أمريكية وكانت لهذه العائلة فتاة في مقتبل عمر الشباب وهي كغيرها من الفتيات الأمريكيات تتعاطى الغرام علناً مع أصدقاء لها. إنها كانت بين كل حين وآخر تأتي إلى البيت مع صديق لها، فتختلي به في الحديقة تحت جنح الظلام ليلاً، أو زوايا البيت نهاراً. وكان ذلك مثار دهشتي لأني لم أعهد مثله في مجتمعاتنا الشرقية.

---

(١) هذه المقالة نشرت يوم ٢٤/تموز/١٩٨٩.

وأبديت دهشتي لأم الفتاة فكان جواب الأم أن الفتاة يجب أن تتعاطى الغرام مع أصدقاء عديدين من أجل أن تختار لزواجها الأجدر والأصلح منهم، وبعد فترة غير قصيرة من الزمن استقر رأي الفتاة على اختيار واحد من أصدقائها لكي يكون زوجاً لها، وقد استشارتني الأم في هذا القرار الذي اتخذته ابنتها، وكنت أعرف الشاب الذي اختارته الفتاة. وكان جوابي للأم أنّ هذا الشاب لا يصلح زوجاً لابنتها لأنه ذو مزاج انطوائي بينما هي ذات مزاج انبساطي فهي تحبّ معاشرة الناس وكثيرة الاختلاط بهم بينما هو يحب الاعتزال عن الناس والانفراد بنفسه. وهذا التفاوت بين المزاجين يؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى التنافر بينهما وإلى إخفاق الزواج أخيراً في أرجح الاحتمال. يبدو أن الأم أدركت صواب ما قلته لها وذكرت ذلك لابنتها، وصار موضع مداولة بين الفتاة وخطيبها. فقالت الفتاة إن خطيبها تعهد لها بأن يغيّر مزاجه من الانطوائية[1] إلى الانبساطية، ثم قالت الفتاة أيضاً إن خطيبها إذا لم يقدر على

---

(١) الانطوائية والانبساطية نوعان من الشخصيات، ونجد أن اهتمامات الشخص المنبسط تنصبّ على العالم الخارجي مع من يحيطونه من الأشخاص والأشياء. أما الشخص الانطوائي فتنصبّ كلّ اهتماماته على العالم الداخلي الذاتي له بما يدور فيه من مفاهيم وأفكار. وكل واحد منا توجد في داخله هاتان الشخصيتان، لكن الميل دائماً يكون إلى شخصية أكثر من الأخرى مثلما يفضل الشخص استخدام اليد اليسرى على اليد اليمنى وتختلف درجات التفضيل إما أن تكون معتدلة أو ملحوظة بنحو يصل إلى حدّ التعصّب..

تغيير مزاجه كما تعهد به فهي نفسها سوف تغيّر مزاجها. كان رأيي أن الفتاة وخطيبها غير قادرين على تغيير مزاجهما، كانا تحت تأثير الغرام المسيطر عليهما. لقد حصل الزواج بينهما أخيراً ولكنه سرعان ما انفصم عقده وجاءتني الأم تندب حظها وحظ ابنتها وتلوم نفسها لعدم إصغائها إلى نصيحتي». ثم يطرح رأياً غريباً يتنبأ فيه بقرب اختفاء زواج الحب وكذلك زواج الخطبة وأن نوعاً ثالثاً من الزواج سيكون هو السائد في المستقبل القريب أو البعيد وهو الزواج الذي يقوم على الحاسوب ثم يبدأ بشرح سمات هذا الزواج الحاسوبي كما يسميّه وكيف أنه سيقضي على مشكلات الزواج في العراق من ارتفاع المهور وصعوبات السكن وغلاء الأثاث وغيرها..

سرمك: وهذا فعلاً رأي غريب..

· **الشمّاع**: وانظر إلى قناعته الراسخة بالحلّ وكيف يظهر ميزاته حيث يقول: «إنّ حاسوب نادي الزواج يسجّل آلاف الطلبات من الرجال والنساء معاً. وهو يستطيع بعد إتمام التسجيل أن يعيّن أي رجل يصلح لأيّة امرأة. وحين يعرف كل منهما اسم الآخر وعنوانه يبدأ التعارف بينهما والمعاشرة. ولا بأس عند ذلك أن يقوم الغرام بينهما، فإن الغرام في مثل هذه الحالة لا ضرر منه.

سرمك: إنه يدعو إلى الجنس قبل الزواج.

· **الشمّاع**: بل يعدّه عاملاً يزيد قوّة رابطة الزواج التي سوف تنعقد بينهما.

سرمك: تصوّر الوردي ابن السيّد حسين ونتاج الكاظمية والذي لم يرَ وجه زوجته إلاّ ليلة الزفاف يدعو إلى المعاشرة الجنسية قبل الزواج لتعزيز التفاهم بين الطرفين قبل الزواج آخذاً العبرة من تجربة تلك الفتاة الأمريكية التي توّقع فشل زواجها. إنّ هذا شكل من أشكال مصائد اللاّ شعور الماكرة، وهو مصطلح اجترحته لوصف الحالة التي ينصب فيها اللا شعور فخاخه التي يوقع فيها الفرد المنتشي بإنجازه مداراة لنرجسيته في حين يمرّر دوافعه المسمومة. وأعتقد أن هذه المصائد قد ورّطت الوردي في الكثير من الأطروحات النظرية المتناقضة وفي السلوكات العملية المضلّلة، ليس أقلها تلك الأسطوانات التي كان يسجلها بصوته في أمريكا ويرسلها إلى أولاده في بغداد ينهاهم فيها عن التغوّط في الشوارع إلى الحد الذي أضحكت أولاده أنفسهم في الوقت الذي كان فيه منتشياً بدوره الأبوي التوجيهي، المتعالي من الولايات المتحدة فإن اللا شعور يوّرطه ويمرّر مكبوتاته في آن واحد. ومنها الطريقة الغريبة التي ألقى بها محاضرته في النجف.

- **الشمّاع**: نعم. فبعد كلمات الاحتفاء التي رحبت به وخصوصاً كلمة السيّد (حامد المؤمن) صعد الوردي إلى المنصّة وجلس على الكرسي وقال للحاضرين: أنا عندي صداع.. ماكو عنكم لبن.. فأحضروا له إناء فيه لبن وكان فيه أيضاً – ومصادفة – قطع من الخيار فجلس الوردي على المنصّة يتحدث وهو يأكل اللبن والخيار!!

سرمك: والكيفية التي كسر فيها عهده وقراره بعدم قبول أيّة دعوة تكريم ثم إرسال ابنه الأكبر لحضور حفل التكريم.. وهناك حديثه عن حفاظ شعر رأسه على لونه الأسود الذي انتقل إليه مباشرة من حديثه عن التكريم بعد الموت حيث قال: «وسألني أحدهم مرّة عن السبب الذي جعل شعر رأسي محافظاً على لونه الأسود بالرغم من بلوغي سن الثمانين حسب التقويم القمري؟ لست أعرف جواباً لهذا السؤال، فقد رأيت كثيراً من الأشخاص ابيّض شعرهم وهم في سن الثلاثين أو دونه، بينما هناك أشخاص آخرون من أمثالي ظل شعرهم محافظاً على لونه القديم بالرغم من تقدمهم في السنّ.. وعلى كل حال فإن بياض الشعر في الرجل يبعد النساء عنه، ولكنه في الوقت نفسه يسبغ عليه شيئاً من المهابة. وأعترف بأني في هذه المرحلة المتأخرة من العمر أفضل المهابة على (التقرب من النساء) لقد خلط الإجابة بحيث لا تستطيع أن تميز فيها الحق من الباطل.

- **الشمّاع**: وعلى ذكر الشيب فإن الدكتور حسين علي محفوظ وهو من تلاميذ الدكتور الوردي قد ابيّض شعره مبكراً ما أكسبه هيبة في النفوس فضلاً عن هيبته الحقيقية ومكانته الاجتماعية، فكان إذا دخل إلى مكان هبّ الجالسون واقفين لاستقباله، بينما لم يكونوا يفعلون ذلك إذا دخل عليهم الوردي ذو الشعر الأسود. وحدث مرّة أن خرج الوردي من مجلس سادن الروضة الكاظمية فهبّ الخدم واقفين فطلب منهم الوردي أن يجلسوا

ولكنهم لم يفعلوا ، وعندما التفت إلى الوراء رأى الدكتور محفوظ يخرج في أثره فعرف أن الخدم وقفوا احتراماً لشيبة محفوظ وليس له وكان هذا يزعجه. ولكن، لا أنسى، وما دمنا قد تناولنا موضوعة المرأة هناك حادثة مهمة حصلت في «دار الأرامل» قد تفيدك من الناحية النفسية.

سرمك: وما هي؟

- **الشمّاع**: قبل حفل التكريم الذي أقامه نادي الجمهورية الثقافي والذي لم يحضره الوردي وأرسل ابنه بدلاً منه، قمنا بزيارته في بيته بعد انتهاء الحفل وجلسنا معه لمدّة وكان ضمن خطتنا أن يرافقنا الوردي للقيام بزيارة إلى «دار الأرامل». ذهبنا إلى الدار وكانت في استقبالنا المرحومة السيدة «بديلة الداغستاني» مديرة الدار آنذاك، زرنا قسم الرجال وتحدث الوردي مع المسنين، ولكنه كان يلح كثيراً على زيارة قسم النساء ولا نعرف السبب لأننا كنا قد خططنا لزيارة قسم الرجال فقط، وعندما دخلنا قسم النساء تحت إلحاح الوردي وهنا حصل شيء غريب، فبمجرد أن شاهد الوردي العجائز المتهالكات المحطمات بفعل الشيخوخة والمرض حتى أصيب بالارتباك وظهرت عليه علامات التوتر والحزن وخرج من القسم مسرعاً.

سرمك: برأيك، ما الذي كان يضعه في ذهنه من إلحاحه على رؤية النساء من الأرامل؟

- **الشمّاع:** لا أدري، لكنني لن أنسى ارتباك الوردي آنذاك.

سرمك: إنه لم يرتبك عندما شاهد الرجال من العجائز؟

- **الشمّاع**: كلاّ. كان يتحدث معهم باسترخاء ومودة ويمازحهم.

سرمك: لو كان الوردي مهتمّاً بقلق الموت لأثار الاضطراب في نفسه مشهد الرجال والنساء من العجائز على حدّ سواء، ولكن يبدو أن المغزى النفسي أعمق من ذلك وقد ترتبط بصورة الأمومة المحطمة. يجوز أن الوردي قد رسم في ذهنه، بفعل ضغوط مكبوتات لا شعورية، صورة مستقبلية لذاته هي امتداد لانجراحات طفولته، تخيل فيها نفسه أباً محطماً مخذولاً يمكنه أن يجد ملاذاً حامياً في دار المسنين وفي هذا الملاذ قد يعثر على شريك يمثل حضناً أنثوياً دافئاً، وإذا به يفاجأ بأنّ مخالب الموت قد هشمت الأنموذج الأنثوي الخالق الذي يستثير أولاً – في لا شعورنا – صورة الأمومة ورحمها الفردوسي المعطاء. ونحن نستطيع التقرب من استنتاجنا هذا من خلال مداخل مختلفة، فقل لي: هل كان التفكير بالموت مسيطراً على عقل الوردي؟

- **الشمّاع**: نعم. وخصوصاً في السنوات الأخيرة من عمره. في السنوات الأخيرة من حياته كان الوردي يردّد القول: «ما فائدة أن يظهر اسمك وأن يشار إليك بالبنان؟ إن الدود سيأكلك كما سيأكل من لا يشار إليه بالبنان» وذلك – في رأيي – إعلان مسبق

منه بأنه استنفد غايته من الحياة وأنه يعيش منتظراً الموت. وهناك مظهر آخر لانشغاله بالموت وهو أنه حين كان يتحدث عن مذكراته فإنه كان يقول عنها بأنها ستصدر بعد موته الذي هو قريب إن شاء الله (على حدّ قوله).

سرمك: لكن هذه الملاحظة كان يثبتها في الصفحة الأخيرة من مؤلفاته الأولى أيضاً حيث يقول: «لدى الكاتب مؤلفات أخرى سوف تصدر بعد وفاته إن شاء الله»، بل إن مقالة نشرت في جريدة (الثورة) يوم ١٩٩٢/٦/٢ أشارت إلى أن كتاباً للوردي كتب في نهايته أنه يعتزم إصدار كتاب آخر قبل أن يوافيه الأجل، وكان تاريخ طبع هذا الكتاب هو ١٩٥٧!!

· **الشمّاع**: صحيح، وأنا احتفظ بنسخة من عدد الجريدة التي نشر اللقاء على صفحته الأخيرة حيث سأل الصحفي الوردي: دخلت عامك الثمانين، فما هو شعورك وأنت تصل إلى هذه السن؟

فأجابه الوردي: إن شعوري عند بلوغ هذه السن يشبه شعور الشاعر الجاهلي حين نظم البيت الشهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأمِ

الواقع أن الأفراد يختلفون من حيث تأثرهم في كبر السن، فمنهم من يظل محافظاً على همّة الشباب وتفاؤله بالرغم من تقدم السن به. ومنهم من هو على النقيض من ذلك، وأستطيع أن أقول إني كنت قبل مدّة قصيرة من النوع الأول، ولكن الظروف التي

أحاطت بي في الآونة الأخيرة جعلتني متألماً متشائماً تسيطر عليّ الكآبة. وأرجو أن لا تعدني مبالغاً إذا قلت إني الآن أتمنى الموت – ولا حول ولا قوة إلاّ بالله – .

سرمك: **هل فكر الوردي في الانتحار يوماً؟ وهل أفصح لك عن ذلك؟**

· **الشمّاع**: سأقدم إليك معلومة في غاية الخطورة، وهي أن الوردي - وخلال السنتين اللتين سبقتا مرضه بالتبول الدموي كان يطلب منّي أو أوفر له مادة (السيانيد) السامّة لكي يقترف الانتحار.. كان يائساً تماماً. وكنا ندخل في حوارات طويلة لنثنيه عن عزمه. وبعد مدّة يعيد عليّ الطلب.

سرمك: **ومتى كفّ عن طلبه هذا؟**

· **الشمّاع**: عندما أصيب بمرض التبّول الدموي، يبدو أن هذا المرض الخطر قد خلق لديه القناعة بأن لا حاجة لاستعجال الموت فهو قادم إليه حتماً. كان يقول لي بعد أن يعود من المرحاض: (اذهب وانظر.. أنا أبول دماً.. أنا أموت تدريجياً يا سلام). وقد ظل على هذه الحال لأكثر من سنة.. كان مصاباً بسرطان متقدم في المثانة ويصعب علاجه.. كان وجهه يشحب ووزنه يقل.

سرمك: **وكان الكل يتفرج ولا أحد يعمل له شيئاً؟ وخصوصاً الجهات الثقافية الرسمية؟**

· **الشّماع**: نعم. لقد أهمل الوردي تماماً من قبل الدولة وخصوصاً من الجهات الثقافية الرسمية. وفوق ذلك كان البعض يتصرف بقلّة إحساس وكأنه ينتظر يوم وفاة الوردي الموعود ويستعد له. ففي أثناء مرض الوردي جاءه مبعوث من محافظ النجف ليبلغه أن المحافظ قد خصص له قطعة أرض في مقبرة النجف ليدفن فيها، فطرده الوردي شرّ طردة، وقال له: قل لمحافظك هذا أن يدفن نفسه فيها. وقد سلمني ذات مرّة – مع تطاول مرضه – خبراً صاغه بنفسه لكي يلفت الانتباه إلى حالته التي كانت تتدهور يوماً بعد يوم؛ وها أنا أقدم صياغة الخبر التي أحتفظ بها في أرشيفي: «ذكرنا في عدد سابق من هذه الجريدة (الجمهورية)، أن الدكتور علي الوردي مصاب بمرض النزيف الدموي الشديد عن طريق الإدرار، وقد عولج هذا المرض لدى الأطباء الاختصاصيين مدّة طويلة دون جدوى. وقد قرّر الأطباء أخيراً وجوب سفر الدكتور الوردي إلى الخارج عاجلاً لإيقاف النزيف الدموي الشديد لديه. ولكن الذي علمناه عن الدكتور الوردي أنه لا يميل إلى السفر إلى الخارج، وذلك لأنه في الثانية والثمانين من عمره وإنّ السنوات القليلة الباقية من حياته لا تستحق في نظره السفر إلى الخارج من أجل العلاج». لقد كانت محاولة يائسة تثير الألم.

سرمك: في كتاب «محمد حسنين هيكل»: (زيارة جديدة للتاريخ) حادثة عن الجنرال (مونتغمري) قائد قوات الحلفاء في معركة (العلمين) الفاصلة، حيث تعطل وصول راتبه التقاعدي،

فذهب إلى دائرة البريد بكامل ملابسه العسكرية ومتمنطقاً مسدسه؛ وخاطب موظف البريد بعنف وهو يقبض على مسدسه: أرسل راتبي فوراً. ويقول مونتغمري: (كانت هذه آخر معركة خضتها في حياتي). وأعتقد أن الخبر الذي صاغه الوردي عن مرضه كان آخر معركة خاضها مع الشخصية العراقية كما تصوّرها، كشخصية تقودها المعاندة والفعل العنادي، لقد أعلن أن الأطباء الاختصاصيين قد قرّروا وجوب سفره إلى الخارج فوراً لخطورة النزيف الذي يعاني منه وأنه رفض السفر لأن ما بقي من سنوات عمره لا يستحق السفر. كان يعتقد أنه، عن هذا الطريق، سيستثير الموقف المعاكس المعتاد لدى المسؤولين العراقيين فيقرّرون إرساله إلى الخارج للعلاج مراهناً على بذرة البداوة الكامنة في أعمال العراقي حتى لو كان مسؤولاً أو مثقفاً.

· **الشمّاع**: لكن حتى هذه المحاولة لم تُفلح، وقد عانيت ألماً كبيراً من جرّاء ذلك، كنت أرى شيخي يموت وأنا أو نحن، مريدوه، لا نستطيع أن نفعل له شيئاً. ثم جاء شيء من الفرج بمبادرة من الأخ «محمد الخاقاني» ابن الشيخ عيسى الخاقاني حيث استطاع محمد في إحدى زياراته إلى الأردن الشقيق أن يقدّم طلباً إلى الديوان الملكي يشرح فيه حالة الوردي – علامة العراق والعرب – الصحية المتدهورة التي ستوصله إلى الموت.

سرمك: وهل حصلت استجابة لهذا الطلب؟

• **الشمّاع**: بعد مدة قصيرة، كنّا في مجلس الشيخ «عيسى الخاقاني» ولم يكن الوردي معنا إذ كان متعباً وطريح الفراش بسبب تفاقم حالته الصحية، جاءنا شاب أردني وقال: أنا مبعوث من جلالة الملك الحسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية، وأريد اللقاء بالدكتور (علي الوردي)، فأرسلنا سريعاً في طلب الوردي، ولا أنسى إلى الآن المظهر الذي جاء به. فقد جاء وعلى كتفيه عباءة وعلى رأسه كوفية بيضاء وكان قد ضعف كثيراً وكأنه عجوز ضامرة، قال له المبعوث الأردني: لقد وافق جلالة الملك الحسين على تحمل تكاليف علاجكم كافة في أرقى المستشفيات الأردنية وأهم شيء الآن هو أن تنجز جواز سفرك وتصل إلى العاصمة الأردنية – عمان - . سافر الوردي إلى عمان ووجد الأطباء أنهم لا يستطيعون فعل شيء لسرطان المثانة المتقدم. والجدير بالذكر أن الوردي زودني بمجموعة من مقالاته المنشورة في الصحف في إحدى سفراتي إلى عمان، وخولني بإخراجها بالشكل الذي أراه مناسباً، لكن الفكرة لم تتحقق لضيق المجال ولقصر المدة التي قضيتها في عمان، وفي هذه السفرة طرح عليّ السيّد سعد البزّاز وكان يمتلك دار نشر في عمان أن أجلب له المقالات التي نشرها الوردي في جريدة الجمهورية مقابل ألف دولار. وعندما عدت إلى بغداد أخبرني الوردي بأنه سيسافر إلى عمان للعلاج وأنه لا يملك (عملة ذهبية) وهي في الحقيقة مصرف جيب كما يُقال – فأخبرته بعرض البزاز فأخذ معه مجموعة المقالات وباعها له. أي أن الوردي عندما ذهب إلى عمان للعلاج لم يكن يمتلك (مصرف جيب).

سرمك: يا إلهي.. هل يعقل ذلك؟ ما الذي نفعله برموزنا؟ نحن القطّة التي تأكل أبناءها المبدعين عبر التاريخ.. ألم تكن أول هجرة في التاريخ في العراق من نبي مبدع؟.. هل يعقل أن يعامل مفكر جبّار مثل الوردي بهذه الطريقة المذلة؟

· **الشّماع**: ولأثبت لك جبروت هذا المفكر أقول لك إنّ الكثير من المفكرين الأردنيين زاروا الوردي في المستشفى وكان بعضهم يقبّل يده وهو يسحبها ويستغفر الله. وقبل أن أنسى أذكر حالة غريبة حصلت عندما جاء الوردي ليقابل المبعوث الأردني الذي جاء سرّاً إلى بغداد.. فبالرغم من ضعفه وهزاله لم يفقد روح النكتة، فبعد أن أبلغه المبعوث الشاب بقرار ملك الأردن بتحمل نفقات علاجه، استدار نحونا وقال: «يا جماعة، أرجو أن تجعلوا أمر علاجي في الأردن سرّاً بيني وبينكم، خاف صاحبنا يعرف ويزعل ويعتب ويقول: ليش ما قال لي!!». وقصد بـ(صاحبنا) الرئيس الراحل صدام حسين.

سرمك: وهل انتفع صحياً من سفره إلى الأردن؟

· **الشّماع**: كلاّ، وعاد منهكاً، وبعد مدّة قصيرة توفي. ولم أكن قريباً منه. لقد جئت متأخراً فوجدته ميتاً وممدداً في سريره بطريقة تثير الخشوع والمهابة، فاتفقت مع المصور (حربي) وهو ابن الفنان الريفي الشهير (عبد الأمير طويرجاوي) بأن يصور الوردي العظيم وهو مسجى، فصوّره ولكن أحد أبناء الوردي كان منفعلاً

جداً فانتزع الكاميرا وأخرج الفيلم وقطّعه..

سرمك: **أين دفنتموه، وهل كانت لديه وصية بأن يدفن في مقبرة معينة؟**

· **الشمّاع**: هنا أنقل لك معلومة مهمة جداً وهي أن الوردي كان مؤمناً بعدم جواز نقل جثة الميت، كان يكرّر: «ادفنوني في بيتي.. حتى لو في المرحاض «الطهارة» فالإنسان مدفون بعمله». نقلناه من بيته إلى الصحن الكاظمي ولكن كان الدفن هناك ممنوعاً رسمياً فأخذناه سرّاً إلى جامع (براثا) وكان الدفن فيه ممنوعاً أيضاً لكننا تحايلنا على الأمر وحضر مسؤولون ثقافيون عملية الدفن في مقدمتهم الأستاذ الشاعر (حميد سعيد) وكيل وزارة الإعلام.. وقد دفناه في ظل نخلة يتساقط ثمرها على قبره.. والمهم أيضاً أنه جرى للوردي تشييع شعبي مهيب، وليس كما قال الأستاذ سعد البزاز في كتابه الذي أصدره عن الوردي.

سرمك: **والآن؟..**

· **الشمّاع**: لم يُترك الوردي سالماً حتى في قبره، فقد لحقته العدوانية العراقية التي تحدّث عنها طويلاً.. والتي لم أكن أصدقها أحياناً..

سرمك: **كيف؟**

· **الشماع**: بعد احتلال العراق أقدم أحد أعوان الاحتلال وهو

معمم يدعى (جلال الصغير) على بناء قاعة أكلت قبر الوردي، وأنت الآن لا تستطيع الدخول إلى هذه القاعة من دون أن تدوس بقدميك على قبر الوردي، وقد طال هذا العدوان قبور ثلة من رموز العراق الثقافية مثل طه باقر وجواد علي وعلي جواد الطاهر، لقد تذكّرت وأنا أرى قبر الوردي يمحى بهذه الطريقة العدوانية الحاقدة حادثة تدلل على سداد نظرة الوردي إلى المجتمع، ففي العام ١٩٩٢ كنت أتمشى بصحبته في الصحن الكاظمي الشريف وصرنا وجهاً لوجه أمام رجل دين يضع على رأسه عمامة سوداء، وعندما اقترب منا الرجل المعمّم وضع يده على صدره وانحنى قليلاً متمماً بكلمات تحية للوردي ففعل الوردي مثل ما فعله راداً التحية للرجل. إلى هنا انتهى المشهد الأول ليبدأ المشهد الثاني في الواقعة عندما تركنا الرجل ومضى في حال سبيله، إذ التفت الوردي إليّ وقال لي: هل شاهدت الرجل وهو ينحني لي باحترام ويحييني، إن فوق رأسه الآن قوة ويحكمه قانون ولولا ذلك فإن هذا الرجل سيكون أول من يقتلني إذا حدث انفلات أمني وغابت سلطة القانون. إن هذا الكلام من الوردي له مغزاه العميق، الذي لم يكن يدركه أحد غيره وقد فهمنا المغزى بعد أن احتُل العراق وشاهدنا ما شاهدنا من الانفلات الأمني. ولكن هناك ما هو أهم على المستوى الشخصي، فالوردي الذي أشار إلى رجل الدين ذي العمامة السوداء يمكن أن يقتله لو حصل على فرصة للسلطة في ظل ضعف سيادة القانون، كان كمن يطرح نبوءة.

سرمك: كيف؟

· **الشمّاع**: اقرأ ما كتبه الراحل الكبير العلاّمة الدكتور «كامل مصطفى الشيبي» الأستاذ الجامعي المهتم بالتصوّف بعد احتلال العراق في العام ٢٠٠٣، حيث كتب مقالة – بطلب منّي – قال فيها إنّ الوردي مات مرّتين، تطرق فيها إلى العملية النكراء التي اقترفها رجل دين استحوذ على جامع (براثا) الذي أمر ببنائه الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) والذي دفن فيه الوردي حيث تم إنشاء قاعات وأبنية في المقبرة الملاصقة للجامع. وقد أكلت هذه الأبنية قبور ثلة من علمائنا الكبار أمثال علي الوردي وعلي جواد الطاهر وجواد علي وطه باقر، بحيث – وهذه هي المأساة – لا تستطيع العبور إلى بعض جهات الجامع إلاّ إذا دست على قبور هذه الصفوة الزكية.

سرمك: الآن وقد رحل الوردي الكبير، أسألك لما اتُهمت بحيازة مذكراته؟ وإذا لم تكن لديك فأين هي الآن؟

· **الشمّاع**: اتُهمت بحيازة مذكرات الوردي بسبب صلتي الوثيقة به، كان الجميع يرون الوردي يلوب في أي مجلس لا أكون موجوداً فيه. وأقول لك يا دكتور حقيقة إنني كنت محسوداً جداً من قبل الكثيرين على علاقتي بالوردي وكون أغلب أسراره لدي يسرني بها من دون تردّد، في حين أن المعروف عن الوردي هو أنه صموت مع الآخرين، بل هو لا يسمع – أو يتظاهر بصعوبة السمع

كما أسلفت..

سرمك: كلامك يعني أن المذكرات ليست في حوزتك؟

· **الشمّاع**: أبداً. ولكن كان الوردي كثيراً ما يشير في أحاديثه إلى هذه المذكرات. ومن المؤسف أن هذه المذكرات ضاعت، فمنهم من يقول إنها موجودة عند أحد أبنائه الذي تعمّد إخفاءها لما فيها من معلومات خطرة، ولكنّ أحداً من أبنائه لم يؤيد وجودها أو العثور عليها بعد وفاته، ومنهم من يقول إن الوردي أخفاها عند صديقة بولونية له تعيش في بولونيا، ومنهم من وجّه الاتهام إليّ شخصياً بحيازتها وإخفائها، ولا يعرف أحد أين هي الآن، وربما ستظهر هذه المذكرات في المستقبل مع كتاب (طبيعة البشر) المفقود هو الآخر.. والمأمول ممّن يملكها أن يظهرها للناس لما فيها من أهمية تاريخية كبرى.

سرمك: **يبدو أن لهذه المذكرات أهمية كبرى وذلك من خلال ما نقله الكاتب (حميد المطبعي) في لقائه بالوردي الذي نشره على حلقتين في جريدة (العراق) ٢/كانون الأول/١٩٩٢، حيث سأل الوردي عن سبب عدم سماحه لمذكراته بأن تصدر في حياته، ولماذا هو مصرّ على تأجيل نشرها إلى ما بعد موته؟ فكان جواب الوردي أن مذكراته فيها شيء من الصراحة التي لا يستسيغها الناس، كما أن مذكراته تحتوي على تفاصيل عن الحركة الإصلاحية التي قام بها السيّد «محسن العاملي» في عام١٩٢٩، فهي حركة**

انتقدت الطقوس التي اعتاد عليها العوام باسم الإمام الحسين وهي بعيدة عن روح الثورة التي قام بها الحسين (ع). يقول الوردي: إنّ العوام سوف يغضبون من مذكراته لأنها تصارحهم بما لا يحبون، ومن المؤسف أن بعض المتعلمين الذين يزعمون أنهم مثقفون يؤيدون العوام في أباطيلهم تملقاً وهؤلاء سوف يهاجمون الوردي عند نشر مذكراته مثلما هاجموه عند نشر كتابه «وعاظ السلاطين» في عام ١٩٥٤، وحرّضوا العوام على قتله. ويقول الوردي: إن خطر العوام والغوغاء أقلّ جداً من خطر المتعلمين وأشباه المتعلمين الذي يتحذلقون بأفانين الثقافة الحديثة بينما هم في أعماقهم عوام. ويقول أيضاً: إنّ مذكراته مليئة بالمصارحات حول بعض المواضيع الاجتماعية والجوانب السلبية من المجتمع العراقي (وهو لا يبالي إن نبش الناس قبره بعد موته، أمّا في حياته فهو لا يستطيع أن يتحمل مرة أخرى ما جرى له في عام ١٩٥٤ – والله المستعان على كل حال.

- **الشمّاع**: لتأكيد أهمية المذكرات أقول لك إنّ الوردي كان يهدّد بها بعض المسؤولين، فقد رأيته مرّة يهدّد بها وكيل وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في غرفة سادن الروضة الكاظمية الشيخ (فاضل الكليدار) الذي اصفّر لونه عندما وجد الوردي يهدّد وكيل الوزارة التي يعمل موظفاً فيها. قال الوردي لهذا المسؤول بغضب: قل لوزيرك إنّ مذكراتي ستصدر وسيعرف النّاس من أي طينة هذا الوزير وأمثاله.

سـرمك: هـل أخـبرك الـوردي عـن العنـوان الـذي اختـاره لمذاكرته؟

· **الشمّاع**: أخبرني المرحوم الوردي مرّة أنه وضع لمذاكرته المختفية عنواناً هو: «ريشة في مهب الريح» إشارة إلى هذه الحقيقة التي يؤمن بها، وهي أن الإنسان لا يد له في تكوين شخصيته، وأنّ الطبيعة البشرية قائمة على أساس التفاعل بين الطبيعة الموروثة في الإنسان والقواعد الموجودة في محيطها، معنى هذا أن الوردي يهمل حتى نبوغه ومثابرته وقوة إرادته وتميّز شخصيته في بناء ذاته وتكوين نفسه. وكان يكرّر أمامي: في مذاكرتي أخرجت أغلب الحكام والمسؤولين من «بيت هيبو» وهو بيت سيئ السمعة. وفي أحد أحاديثه قال لي: لقد أجّلت نشر مذاكرتي إلى ما بعد موتي، والسبب الذي دعاني إلى ذلك ناشئ عن رغبتي في تجنب سخط الناس: فلو قرأت مذكراتي المؤجلة لوجدتها مليئة بالنقدات الاجتماعية الشديدة، ولاسيما في ما يتصل بالمعتقدات والطقوس الدينية التي ورثناها من الماضي وأضرّت بنا ضرراً فادحاً. فإني حين رأيت نفسي غير قادر على مجابهة الناس بتلك النقدات في حياتي قررت أن أجابههم بها بعد موتي. وهم إذا أرادوا أن ينبشوا قبري بعد ذلك فليفعلوا ما يريدون، فإن الإنسان عند ذهابه إلى ربّه لا يخشى أحد سواه» هذا ما أثبته في «من وحي الثمانين».

سـرمك: هـل المذكرات هـي «كتـاب العمـر» الـذي كـان يتحدث عنه الوردي كثيراً؟

• **الشمّاع**: كلا. المذكرات ليست «كتاب العمر» كتاب العمر الذي تحدث عنه الوردي كثيراً هو مشروعه في بحث «طبيعة البشر» والذي كان يتمنى أن يكمله قبل وفاته حيث قال في «من وحي الثمانين» في هذا العام – يقصد العام ١٩٩٠ – دخلت سنّ الثمانين وأشعر بأني الآن ينطبق عليّ قول الشاعر العربي القديم:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأمِ

فإن سمعي أخذ يضعف تدريجياً، وهذا بالإضافة إلى الضعف العام في صحتي، كل ما أرجوه في أواخر عمري هو أن يساعدني الله على إتمام عملي الذي أنا منهمك فيه الآن وهو الكتاب الذي أعدّه «كتاب العمر» والذي يبحث في طبيعة البشر، ومن المؤسف أنه بالرغم من الجهود الكثيرة التي بذلتها فيه، لم يتم إنجازه بالمستوى الذي أطمح إليه، وقد ظلّ المرحوم الوردي منشغلاً بهذا الموضوع حتى أيامه الأخيرة، وكان يحدثني دائماً عن تطورات العمل في كتابه المذكور، ويريني مسوداته، ويتحدث في مجالسه الخاصة والعامة عنه، إلاّ أن أحداً لا يعرف، الآن، أين اختفت هذه المسودات، وقد يُعثر عليها يوماً وتظهر كتاباً جديداً يضم آخر ما بحثه الوردي في حياته.. ولكني، قبل مدّة عثرت بين أوراقي على مقالة كتبها الوردي حول الموضوع لعلّها فصل من فصول ذلك الكتاب الذي يسميّه الوردي: «كتاب العمر».

سرمك: لكنني سمعت أن كتاباً للوردي في هذا الموضوع قد صدر في عمّان؟

· **الشمّاع**: لكن الوردي قد أعلن في النهاية أنه لم يستطع أن يكمل بحثه في الطبيعة البشرية وأنه أكبر من طاقته، وقد أحال البحث في هذه البحث إلى الجيل الجديد من الباحثين الاجتماعيين، وقد فوجئت عندما قامت دار نشر في عمّان بإصدار كتاب للمرحوم الوردي بعنوان: «طبيعة البشر» لأنني كنت أعرف أن الوردي يعمل في كتاب من هذا النوع ولكنه أعلن عجزه عن إكماله. إنّ هذا الكتاب لم يصل إلى يدي لحد الآن لأحكم ما إذا كان جمعاً لمقالات كتبها الوردي في هذا الموضوع، أم أنه هو الكتاب الذي كان الوردي يريد تأليفه، أم هو توسيع لمقالة كتبها عنوانها (حول الطبيعة البشرية)، لاسيما وأن الوردي كان قد أعلن في مناسبة سابقة أنّ بعضهم يرى أن الكتاب الذي يعمل فيه حول طبيعة البشر يجب أن يصدر بالرغم من وجود النقص والقصور فيه، فهو مهما كان ناقصاً قاصراً قد ينفع القارئ العربي إذ هو يفتح عينيه على خطأ بعض المفاهيم التي ورثاها من الماضي حول طبيعة البشر وأضرّت بنا من الناحية الشخصية والاجتماعية.

سرمك: لكن الوردي اهتمّ بموضوع الطبيعة البشرية منذ وقت مبكر.

· **الشمّاع**: نعم، ويعود هذا إلى أول كتاب أصدره، فهو يقول في كتابه (شخصية الفرد العراقي) وعلى الصفحة الرابعة: «رأيت إني غير قادر على دراسة الشخصية العراقية ما لم أدرس، قبل

ذلك، الشخصية البشرية بشيء كثير من التفصيل، وإضافة إلى ذلك فإن موضوع الشخصية بوجه عام لم يبحث في اللغة العربية بحثاً وافياً، فإن أغلب من بحثوا فيه أو ترجموا عنه كانوا من المختصين بعلم النفس، ومعنى هذا أن الشخصية لم تبحث إلاّ عن ناحيتها الفردية حيث لم يُعن بالناحية الاجتماعية إلاّ قليلاً».

سرمك: وهل زرت قبر الوردي بعد وفاته؟

- **الشمّاع**: زرته ثلاث مرات، كنت كلّما أذهب إلى جامع براثا لزيارة صديقي عالم الدين السيد عبد المنعم الموسوي أعرج على قبر الوردي وأزوره، لكنّ أحداً لم يزره ولم يستذكره أحد لا جهة رسمية ولا مهنية، لقد تمّ نسيانه تماماً.. لكنني قمت بشيء غريب بعد وفاته بأيام وقد لا تصدّقه، لكنني قمت به مدفوعاً بفضولي الصحفي فأرجو أن لا تعتب عليّ.

سرمك: ما هو الشيء الذي قمت به؟

- **الشمّاع**: كانت لنا صديقة تقوم بتحضير الأرواح، فطلبت منها أن تحضر روح الوردي، وفعلاً قامت بذلك وتحدث معي الوردي طويلاً، أسأله وهو يجاوب.. تحدث معي عن أولاده.. قال عنهم كلمات قاسية.. وقال إنّ رجال الأمن أصابوني بالرعب لأنهم كانوا يطاردونني.. لقد تحدث كثيراً.. صدقني.. وعندما انشغلت المرأة بشيء في المنزل جاء أطفالها وأربكونا قال الوردي: ما رضينا بالكبار.. جاءنا الأطفال.. واختفى.. لقد تمّ ذلك بحضور زوجتي..

سرمك: هذا أمر فيه الكثير من الخرافات.. المهم ما الذي ستفعله بعد رحيل الوردي وأنت تمتلك وثائق وكتابات بخط يده ومعلومات واسعة عن حياته وفكره؟

· **الشمّاع**: أمتلك خزيناً هائلاً من الوثائق والمقالات والكتابات والمعلومات عن المفكر الراحل، ومشكلتي الأساسية هي عدم وجود ناشر منصف يحترم تراث الوردي ويشعر بالمسؤولية الإنسانية والثقافية تجاه هذا المفكر العظيم، لقد طبعت طبعة جديدة من كتابي (من وحي الثمانين) ولم أحصل إلاّ على عدد من النسخ.. ولدي الآن أربعة كتب جاهزة للطبع لكن الأمر يجعلني أتردّد في نشرها، هو إجحاف الناشرين وتعسّفهم وروحهم الاستغلالية.

سرمك: أخيراً.. لقد رحل الوردي.. فهل هناك شيء ظلّ عالقاً في نفسك؟ هل هناك شيء ندمت عليه؟

· **الشمّاع**: شيء واحد بقي في نفسي، فقد كان الوردي يسرّني بكلّ شيء.. حتى في أدق تفصيلات حياته، إلاّ شيء واحد لم يشرح لي تفصيلاته على الرغم من إلحاحي المتكرّر عليه في أكثر من مناسبة وهو مقابلته للقاتل السفّاح الملقب بـ«أبو طبر» حيث استدعته الدولة لتقييم شخصية هذا القاتل الذي نشر الرعب في العراق بدءاً من جرائمه البشعة في بغداد. ألححت عليه بقوّة فلم يقل لي سوى جملة واحدة وهي أن هذا المجرم كان لطيفاً جداً في تعامله، كما أني نادم على عدم تسجيل خطاب ألقاه أمامي ونحن

في طريقنا يوماً إلى مجلس الخاقاني استمر أكثر من نصف ساعة، وقال لي إني سألقي هذا الخطاب في البرلمان عندما أفوز في الانتخابات، وكان فيه تقريع لكبار المسؤولين وتذكير بالأخطاء التي ارتكبوها، وكان هذا الحدث قد جرى عام ١٩٨٩ في أجواء الحديث عن التعددية الحزبية وحرية الصحافة الذي ساد آنئذٍ: كما ندمت على صندوق خبّأت فيه الكثير من الوثائق بخطّ الوردي وأودعته لدى الأخ محمد الخاقاني ولكنه ضاع ولم أعثر له على أثر.

الفصل الثاني

محاولة في تحليل شخصية محلّل الشخصيّة العراقية

حسين سرمك حسن

(إننا في هذه المرحلة المتأزمة من تأريخنا في أشدّ الحاجة إلى التوازن بين دافع الحماس ودافع الموضوعية في أنفسنا ، فليس من الخير أن يسيطر الحماس على تفكيرنا دوماً ، كما أنه ليس من الخير أن تخلو قلوبنا من الحماس).

علي الوردي

لمحات اجتماعية ـ الجزء الأول

تحذير:

مثلما كان العلامة الراحل الدكتور "علي الوردي" يضع تنبيها على الصفحة الأولى من بعض مؤلفاته، ينبه فيه القراء الذين يحملون روحا متعصبة وأفكارا منحازة لمواقف معينة لأنها ستجعل قراءة كتابه المعني غير ذات فائدة، لأن الروح المتعصبة والأفكار المنحازة تضع غشاوة على بصيرة الإنسان وحتى بصره، الأمر الذي لن يجهض الهدف من عملية القراءة برمتها وبكل أبعادها المعرفية حسب، بل سيحول ساحة القراءة وحتى النقد إلى ساحة للصراع النفسي أيضا. هنا تستولي علاقة مرضية بين القارىء والمؤلف تشبه في جوانب كثيرة العلاقة المرضية المستندة إلى الطرح والطرح المضاد بين المريض والمحلل النفسي كما سنرى ذلك قريبا. وعليه فإنني أدعو أي قارىء قام بـ "أمثلة" الوردي و"تصنيمه" إلى عدم قراءة هذا التحليل، لأن هذا التحليل يقوم على فرضية أساسية مفادها أن العلم يتعامل مع أي إنسان مهما كان مستواه وطبيعته "الكارزمية"، كموضوع "محايد" للدراسة العلمية

بأسسها واشتراطاتها المعروفة، وأن أفضل الامثلة على ذلك هي الدراسة التحليلية الموسعة التي قام بها معلم فيينا لشخصية الرئيس الأمريكي "توماس وودرو ولسون" في كتابه "الأعمال العظيمة والشذوذ النفسي - عقدة التماثل مع الأب المقدس". كما أن هذه الدراسة هي محاولة أولى في الثقافة العربية تحاول استكشاف جوهر الكيفية التي ينبني فيها ما هو موضوعي على أسس ما هو ذاتي، خصوصا ما هو مكبوت أو مختزن في اللاشعور الفردي. وعليه فإنني أعود لتحذير القراء الذين أمثلوا وصنّموا الوردي وجعلوا حدود دائرة شخصيته تابوات مقدسة لا ينبغي أن تُنتهك، إلى أن لا يلج عوالم هذا التحليل لشخصية العلامة الوردي لأنه، أي التحليل، سيصبح فرصة "مرَضِيّة" نادرة وشديدة الأذى ترهقه كقارىء باستفزازها لمكبوتاته التي دفعته إلى الأمثلة والتصنيم وحتى الأسطرة، فنقف أمام مواجهة نفسية أصلا ولا صلة لها بالعمل العلمي التحليلي.

يقول العلاّمة الراحل الدكتور «علي الوردي» إنّ هناك عوامل كثيرة أسهمت في بناء شخصية الوردي «الذي يتكلم من وراء أنفه»[1]، ومن بين أهم تلك العوامل كما يقول:

(١) (يتكلم من وراء أنفه): كناية بغدادية عن المتكبر المعجب بنفسه، وتصحُّ على الأفندي الذي يجعله التحذلق في الكلام واستعماله مفردات غريبة عن العوام متكبراً عليهم.

١) نشأتُ في بلدة الكاظمية وهي مزار ديني[(١)] وفيها مدارس دينية[(٢)] وعدد غير قليل من علماء الدين[(٣)]. وقد حدث في أيام صباي جدل ونزاع بين عالمين كبيرين فيها حيث انقسم أهل البلدة إلى فريقين متعاديين كل فريق فيها يمدح عالمه ويذم الآخر[(٤)].

---

(١) تضم مدينة الكاظمية مرقدي الإمامين موسى بن جعفر ومحمد الجواد (عليهما السلام) وهما من نسل الإمام علي بن أبي طالب، والأول هو الإمام السابع، والثاني هو الإمام التاسع عند الشيعة الإمامية، وقد دفنا عند وفاتهما في مقابر قريش التي اختارها أبو جعفر المنصور، قرب بغداد المدورة التي بناها، لتكون مقابر للعرب، وأول من دفن فيها ابنه جعفر. وإلى الآن هناك صحن في المرقد الكاظمي يطلق عليه اسم (صحن قريش).

(٢) كانت الكاظمية تعج بالمدارس الدينية، وكانت حلقات الدرس موجودة في كل مسجد وجامع، وفي أواوين الصحن الكاظمي، ولم يبقَ من تلك المدارس إلا مدرسة الخالصي، وحتى هذه أغلقت مطلع ثمانينيات القرن الماضي، ثم أعيد افتتاحها مجدداً بعد احتلال العراق في التاسع من نيسان ٢٠٠٣ وعادت معها بعض المدارس الدينية.

(٣) من أهم الأسر الدينية في الكاظمية آل الصدر، وآل الخالصي، وآل ياسين، وكان هناك الكثير من علماء الدين إيرانيي الجنسية تم تسفيرهم في سبعينيات القرن الماضي وثمانينياته إلى إيران، واحتضنت الكاظمية الكثير من طلبة العلم والعلماء وأصحاب الفكر.

(٤) العالمان المقصودان هما الشيخ مهدي الخالصي الكبير، والسيّد حسن الصدر. وسبب النزاع والخلاف بينهما أن السيّد محمد ابن السيّد حسن الصدر الذي تسنّم مناصب مهمة في العهد الملكي منها رئيس مجلس الأعيان ورئيس الوزراء كان ميالاً للإنكليز، وكان أبوه السيّد=

٢) تقع الكاظمية[1] على بعد خمسة أميال من العاصمة بغداد، وكانت بغداد ومازالت موضوع صراع بين المحافظين والمجددين. فكان المحافظون فيها يدعون إلى إبقاء كل قديم على قدمه بينما كان المجدّدون يدعون إلى مسايرة الحضارة الحديثة، وقد ظهر هذا الصراع على أشدّه في الجدال الذي نشب حول السفور والحجاب في عام ١٩٢٤[2] وبعده.

٣) كانت العشرينيات من هذا القرن سنوات المراهقة وبداية الشباب لي (الوردي من مواليد عام١٩١٣). وهي كانت في

= حسن واقعاً تحت سيطرة ابنه وتأثيره، بينما كان الخالصي مناوئاً للإنكليز.. والمفارقة أن الخالصي ومحمد الصدر قاتلا الإنكليز جنباً إلى جنب في ثورة العشرين.

(١) الكاظمية: مدينة تقع شمال بغداد، وتبعد عنها قرابة خمسة كيلومترات في الجانب الغربي منها وعلى الضفة الغربية لنهر دجلة بجانب الكرخ وترتبط بجانب الأعظمية بجسر الأئمة وجسر آخر حديث يربطها من جهة الجنوب بكورنيش الأعظمية وجسر قديم في منطقة الشالجية اسمه الصرافية الذي يطلق عليه اسم (الجسر الحديدي) الذي قصفه الأمريكان عمداً أواخر عام ٢٠٠٧. وكانت تربطها بالعاصمة بغداد سكة حديد حتى عام ١٩٤٦م.

(٢) نشبت في العشرينيات من القرن الماضي معركة بين السفوريين والحجابيين استمرت سنوات طويلة اشترك فيها الأدباء، واستمر الأطفال في المناطق الشعبية في بغداد حتى الستينيات يمشون وراء السافرة ويرددون الأغاني التي تعرض بها وبالسفور.

الوقت نفسه السنوات التي أقيمت الدولة العراقية[1] فيها وأخذت معالم الحضارة الحديثة تأتي إلى العراق بزخم شديد. وكنت أشهد معالم الحضارة تتسلّل إلى الناس تدريجاً فتثير فيهم الدهشة من جهة والجدال العنيف من جهة أخرى.

٤) في عام ١٩٢٩ ثارت ضجة كبرى في العراق على أثر الدعوة الإصلاحية التي قام بها المجتهد الكبير السيّد (محسن الأمين العاملي)[2] في سبيل إصلاح بعض الطقوس الدينية غير المستحسنة. فكان أكثر الناس ضد تلك الدعوة كما هو شأنهم في جميع الدعوات الإصلاحية عبر التاريخ[3]، ولم

---

(١) قامت الدولة العراقية عام ١٩٢١ وتوّج الملك فيصل بن الحسين ملكاً على العراق، وعدّ مؤسس الدولة العراقية الحديثة عاونه في ذلك ضباط عراقيون وعرب كانوا في الجيش العثماني ثم اشتركوا مع أبيه الحسين في الثورة العربية إلى جانب الإنكليز ضد العثمانيين.

(٢) السيّد محسن الأمين العاملي: هو السيّد أبو محمد باقر، الحسن ابن السيّد عبد الكريم ابن السيّد علي الأمين العاملي، ينتهي نسبه إلى الحسين ذي الدمعة ابن زيد الشهيد ابن الإمام علي بن الحسين، ولد في قرية شقراء جنوب لبنان. درس في النجف وأقام في دمشق وتوفي في بيروت في ٤رجب١٣٧١هـ ودفن في دمشق جوار السيدة زينب.

(٣) كان الوردي يكثر في مجالسه وأحاديثه من القول بأن النبي محمد (ص) جاهد في سبيل الدعوة الإسلامية تسع سنوات ولم يؤمن به إلا أربعين فرداً، للتدليل على وقوف الناس دوماً ضد أية دعوة إصلاحية أو تجديدية، وكان يردف هذا القول بلازمته المشهورة: (وهذا هو ديدن الناس في كل زمان ومكان).

يؤيدها إلاّ القليل منهم، وكنت أنا من المؤيدين لها ولكني لم أعلن تأييدي لأني كنت مستضعفاً أخشى من اعتداء الغوغاء.

٥) أتيح لي أن أكون من جملة البعثة العلمية التي تُرسل للدراسة في الخارج مرتين[١]، وقد انفتحت عيناي في الخارج على أمور كنت حائراً فيها ومتسائلاً عنها من قبل[٢]، وشاء القدر أن يكون تخصصي العلمي في علم الاجتماع، وهو العلم الذي يؤدي بصاحبه إلى الكثير من المشاكل. وهذا ما عانيته في العراق فعلاً بعد عودتي إليه من البعثة الثانية في عام ١٩٥٠[٣].

ولو تأملنا هذه العوامل التي عدّها الوردي مهمّة في بناء

---

(١) سافر الوردي إلى لبنان وتخرّج في كلية جامعة بيروت الأمريكية عام ١٩٤٣، ثمّ سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ونال شهادة الماجستير في علم الاجتماع من جامعة تكساس الأمريكية عام ١٩٤٨، ثم نال شهادة الدكتوراه في العلم نفسه من الجامعة نفسها عام ١٩٥٠، وعاد إلى بغداد ليقضي عشرين عاماً في التدريس في جامعة بغداد.

(٢) ذكر الوردي معظم هذه الأشياء في الرسائل التي كان يبعث بها من أمريكا إلى قريبه النحات خليل الورد، وهي محفوظة الآن لدى أسرة النحات الورد.

(٣) أنا صنيعة بيئتي وزماني – لقاء مع الوردي – جريدة الثورة – ١٩٩٢/١٢/٢، وكان الوردي يشكو من أن علم الاجتماع يستطيع أن يتحدث فيه جميع الناس، في حين أنهم لا يستطيعون أن يجادلوا الطبيب أو المهندس في اختصاص.

شخصيته في مراحلها المبكّرة بنحو خاص فسنجد أنّها عوامل ذات طبيعة اجتماعية لها أكبر الأثر في صياغة شخصية الإنسان تفكيراً وعاطفة وإرادة. فمكان النشأة الأولى وهي بلدة الكاظمية – وهي بلدة دينية متزمتة جداً آنذاك، كانت له «تابواته» ونواهيه في مجالات العلاقات الأسرية والاجتماعية والسلوك الشخصي والتوجهات الدينية والثقافية. وقد ترافقت نشأة الوردي مع بدء تشكل الدولة العراقية الحديثة وما صاحبها من دخول طلائع القيم والأفكار الحضارية والمنجزات التكنولوجية الحديثة وما ارتبط بها من صراع ضار بين المحافظة والتجديد، وبين القديم والحديث في جوانب كثيرة حسّاسة من جوانب الحياة الاجتماعية بنواحيها كافة، ليس أقلها المعركة الملتهبة التي دارت حول موضوعة سفور المرأة عام ١٩٢٤[١] كما أشار إليها الوردي – وكان عمره آنذاك أحد عشر عاماً – أو الضجة الكبرى التي أثارتها دعوة السيّد (محسن الأمين العاملي) والتي أوشكت أن تصل إلى مستوى الفتنة. ففي خريف١٩٢٩ – كما يقول الوردي في سلسلة مقالات «دروس من حياتي» التي نشرها في مجلة «التضامن» في عام ١٩٩٠ – حدثت ضجة كبيرة حول كتاب صغير جاء من دمشق وصار يباع في الأسواق وعنوانه: «رسالة التنزيه لأعمال الشبيه» ومؤلفه مجتهد شيعي مشهور كان يقيم في دمشق اسمه

---

(١) الغريب أن استهجان ظاهرة السفور في الكاظمية استمر حتى ستينيات القرن الماضي، وكان أتباع الإمام الخالصي يمنعون المرأة السافرة من الدخول إلى مدينة الكاظمية.

السيّد محسن الأمين العاملي[1]، إن الكتاب ينتقد الطقوس المستهجنة التي اعتاد العوام على القيام بها في شهر محرّم بمناسبة ذكرى مقتل الحسين بن علي. ففي رأي مؤلف الكتاب أن تلك الطقوس، بالإضافة إلى كونها مضرة بالفرد والمجتمع، تسيء إلى سمعة الشيعة. ثم يصف الوردي انقسام المجتمع تجاه هذه الدعوة فيجده طبيعياً في ضوء ما يعرف عن طبيعة البشر الذين يقاوم أكثريتهم كل حركة إصلاحية أو تجديدية: «كان الصراع بين المعارضين والمؤيدين في الكاظمية شديداً.

فالأكثرون من الناس قاوموه وشتموا مؤلفه، والأقلون منهم أيّدوه[2]، وكان خطباء التعزية الحسينية[1] من أكثر الناس مقاومة

---

(١) ظل المرحوم الوردي مؤيداً دعوة الأمين حتى وفاته، ومتحمساً لها ويتحدث عنها وكأنها حدثت للتو.

(٢) كان في الكاظمية وحدها ٣٤ موكبَ عزاء على الحسين، فلكل محلة ومهنة موكب، وكانت هذه المواكب كلها تمارس جميع طقوس عاشوراء، يشذّ عنها موكبان هما الخالصي والطلبة، إذ كانا يخرجان بهدوء ويرددان الشعارات الحسينية مع ضربات هادئة على الصدور. وللتوثيق نذكر أسماء هذه المواكب، فمن مواكب المحلات: (البُهيازع، والبَحيّة، وأم النومي، والسميلات، وفضوة الشيخ آل ياسين، والأنباريين (الحاج ناجي)، والشيوخ (الإمام الصادق)، والقطانة، والعكيلات. أما مواكب المهن فهي: (خدمة الجوادين (الذين يعملون في خدمة المرقد الكاظمي)، والخبازين، والصفارين، والقصابين، والزراعة (أصحاب المزارع والعاملين في الزراعة)، والقهواتية، والكببجية (أصحاب مطاعم الكباب، والجركجية (باعة المعجنات)، والجواهرية، والبقالين، والقندرجية(العاملون في صناعة=

مقاومة لدعوة السيّد محسن الأمين، وأخذ السيّد صالح الحلي[٢] الذي كان أشهر تعزوي في ذلك الحين بشنّ حملة شعواء على السيّد محسن وتناقل الناس عنه بيتاً من الشعر في ذمّ السيّد محسن هو:

يا راحلاً إمّا مررْت بجلّقِ[٣] فابصقْ بوجه أمينها المتزندقِ

فالسيّد صالح لم يكتفِ بدعوة الناس إلى البصق في وجه

= الأحذية وبيعها)، والبيّاعة. وكانت هناك مواكب الجمهور والترك والهنود والحسن المجتبي والموسوية والحيدرية والشريف الرضي، وشباب القاسم، وآل ماجد، والسادات، الحسينية وباب الحوائج.

(١) كان أشهر خطباء المنبر الحسيني في الكاظمية السيّد عبد اللطيف الوردي – رحمه الله – الذي مات مقتولاً، واتُّهم أتباع الإمام الخالصي بقتله بتهمة الشيوعية، أو أنه من أنصار السلام، وكانت هذه تهمة غير صحيحة للسيّد – رحمه الله.

(٢) هو السيّد صالح ابن السيّد حسين الحلي النجفي، كان عالماً فاضلاً وخطيباً شهيراً مرموقاً، لم يبزّه أحد في فن الخطابة والقراءة لا من قبله ولا من بعده. ولد في الحلة سنة /١٢٨٩هـ/، لكنه على الرغم من هذه المواهب والشهرة والمقدرة والوجاهة، أضاع نفسه، وكدّر حياته ببعض المواقف المتصلبة والمنحازة ضد هذا وذاك، ومن ذلك موقفه من السيّد محسن الأمين العاملي، فأصبح شخصية ممقوتة في النجف وبات الأشراف والفضلاء يتجنبون محادثته ومجالسته، فغادر النجف وسكن الكوفة إلى أن مرض فتوفي ليلة السبت ٢٩شوال سنة ١٣٥٩هـ، وحمل جثمانه إلى النجف ودفن في وادي السلام بوصية منه.

(٣) جلّق: اسم من أسماء دمشق، ومن أسمائها الشام وشامة الدنيا وكنانة الله والفيحاء.

السيّد محسن بل وصفه بالزندقة أيضاً، ثم يحاول الوردي تقديم تفسير لتردّد الناس وخوفها من قول الحقّ ومساندة دعوة الأمين بضرب مثل حيّ نقله إليه شخص ما: «حدثني رجل كان صديقاً لأحد علماء الدين الكبار في تلك الأيام، وكان هذا العالم قد اتخذ موقف السكوت تجاه دعوة السيّد محسن، فلم يعارضها ولم يؤيدها. وقد سأله الرجل في مجلس خاص عن رأيه الحقيقي في تلك الدعوة. فأخذ العالم ينظر في المجلس يمنةً ويسرةً كي يطمئن من غياب من يخشى منه فيه، ثم قال يصف الطقوس التعزوية بأنها «لعب أطفال» إنّ هذا الرأي من العالم الديني هو رأي الكثيرين من أمثاله، ولكنهم لا يعلنونه خوفاً من العوام، فهم يعتمدون في رزقهم ومكانتهم على العوام.. ويتنافسون فيما بينهم على اجتذاب العوام إليهم. فالواحد منهم لا يجرأ على إبداء رأي مخالف لما اعتاد عليه العوام خشية أن ينفضوا عنه ويلتفوا حول منافسه..» ويختم تحليله بالقول: «إنّ العالم الديني بشر كغيره من البشر، ولو كنّا في مثل ظروفه لصرنا مثله». أي أنّ الوردي وجد تبريراً لموقف رجل الدين المتحسّب هذا. لكنّ الغريب هو أنّ الوردي وعلى هذه الصفحات نفسها وبعد أسطر قليلة يقول إنه قد وضع كتاباً حول المواكب والطقوس الحسينية ويقول عنه: «هو الكتاب الذي لا أدري متى أقدر على إخراجه إلى الناس»، أي أنّه يقف موقف رجل الدين الذي أشفق عليه قبل قليل، ومعنى ذلك أن الوردي نفسه لديه سلوكان في هذا المجال: واحد رافض لتلك الطقوس المستهجنة كما أعلن ذلك السيّد محسن الأمين في كتابه، وهو موقف أصيل يعبّر عن

قناعة راسخة، وثانٍ تحسّبي يهدف إلى دفع الأخطار عن الذات. فهل يعاني الوردي، هنا، من ازدواجية في الشخصيّة؟

يحضرني هنا التفسير الذي قدّمته مجموعة من الباحثين المصريين وهي تحاول تفسير سمة «الازدواجية» التي عدّها باحثون آخرون سمة سلبية راسخة في شخصية المواطن المصري والذي نقلته د. فاطمة حسين المصري[1] في كتابها: «الشخصية المصرية من خلال دراسة بعض مظاهر الفلكلور المصري – دراسة نفسية تحليلة أنثروبولوجية» حيث تقول: «لقد عالج بعض الباحثين المصريين موضوع الشخصية القومية المصرية فتبينوا أن كثيرين ممن تناولوا هذا الموضوع قد نسبوا للشخصية المصرية صفة التناقض، فكان على مؤلفي التربية – نقصد مؤلفي كتاب (التربية ومشكلات المجتمع) - أن يحلّلوا صفة التناقض البادية في الشخصية المصرية، ليوضحوا أن النظرة العابرة السطحية غير الباحثة المدققة سرعان ما تحكم بالتناقض، بينما عند الاختبار والدراسة العلمية تتضح صفة التماثل، والانسجام في الشخصية، ويبدو التكامل بين أجزائها، وذلك عن طريق افتراض طبع أصيل للشخصية القومية، ثم طبع اصطنعته الشخصية لتواجه به المواقف التي فرضت عليها، فقد عاش المصري ثلثي عمره الحضاري خلال

---

(١) د. فاطمة حسين المصري: باحثة مصرية نالت شهادة الدكتوراه في موضوع (الشخصية المصرية من خلال دراسة بعض مظاهر الفلكلور المصري – دراسة تحليلية أنثربولوجية).

خمسة آلاف عام ينعم بالحرية والسيادة ثم قدّر له أن تحتل أرضه كاملة على يد الفرس وهو منذ ذلك التاريخ بين سيّد ومسود يتشكل ويتلّون تبعاً لمقتضيات الظروف والأحوال. ومن هنا كان لابدّ له أن يتخذ قناعاً يختلف باختلاف المواقف ولكنه لا ينسى أبداً أنه مصري يرتدي قناعاً من صنعه، يتقي به شرّ الأعداء ويكسبه المرونة والكياسة عند الحاجة، فإذا ما خلا إلى نفسه فإنه ينزع عن نفسه القناع ليعود مصرياً صافياً نقياً طيّب القلب سمحاً كريماً»[(١)] .

وتواصل د. فاطمة حسين حديثها قائلة: «إنهم يلتمسون في هذا الازدواج أو التناقض وسيلة وقائية أو دفاعية تسمح للمصري بالذود عن حماه وإنّ هذين النمطين اللذين يصطنعهما إنّما هما دليل على ذكائه وقدرته على التصّرف ورغبته الصادقة في البقاء والتغلّب على العقبات مما يصادفه من جور الحكام أو صروف القدر... ولقد خلط المصري بين الأضداد والمتناقضات فخرجت شخصيته ذات نمطين كل منهما يحوي جملة سمات»[(٢)].

---

(١) الشخصيّة المصرية من خلال دراسة بعض مظاهر الفلكلور المصري – دراسة تحليلية أنثروبولوجية – د. فاطمة حسين المصري – الهيئة المصرية للكتاب.

(٢) الشخصيّة المصرية من خلال دراسة بعض مظاهر الفلكلور المصري – دراسة تحليلية أنثروبولوجية – د. فاطمة حسين المصري – الهيئة المصرية للكتاب.

وإذا عدنا إلى الوردي في هذا الموقف المحدّد، الموقف من طقوس العامة وممارساتها في عاشوراء، فسيلفت انتباهنا اعتراف آخر له أعلنه في المكان نفسه /المقال نفسه حيث قال: «كان الصراع بين المعارضين والمؤيدين في الكاظمية شديداً، وقد شهدت في بعض الأحيان جماعة من العوام وهم يبحثون عن كلّ من يؤيد دعوة السيّد محسن الأمين لكي يعتدوا عليه. ولا أكتم القارئ أني كنت من مؤيدي تلك الدعوة ولكني كنت أخفي ذلك في نفسي فلا أبديه إلاّ لمن أثق به؛ فقد كنت أخشى على نفسي من اعتداء العوام»[1].

وإذا كان الوردي يتساوى في هذا الموقف مع رجل الدين المتحسّب حيث يتكتم على موقفه خوفاً من العوام في عشرينيات القرن العشرين حيث التخلف والتعصّب الديني لدى العامة، فما الذي يمنعه من أن يطرح رأيه بوضوح معلن وهو في تسعينيات ذلك القرن حيث منعت الحكومة الناس من ممارسة الطقوس الحسينية نهائياً وصار الجو مهيئاً له للإفصاح عن موقفه الرافض، وفوق ذلك فقد كان ساكناً آنذاك في منطقة الأعظمية التي لن يهاجمه العوام فيها لأسباب معروفة، أي أننا قد نجد له ولرجل الدين ذاك عذراً في العشرينيات ولكننا لن نجد له مبرّراً في التسعينيات، مبرّراً مرتبطاً بالخوف والتهديد في هذا الموضوع تحديداً.

وإذا عدنا إلى المقالة نفسها فسنجد أن الوردي يقدم – بعد

---

(١) مجلة التضامن – العدد (٢٦٤) ١٩٩٠/٤/٢.

المقطع الذي تحدث فيه عن تكتمه على رأيه خوفاً من العامة مباشرة – معلومة تنسف رأيه أو تناقضه في أحسن الأحوال حيث يقول:

«كان الصراع على أشدّه في النجف. وقد حدثنا عنه الأديب المعروف (جعفر الخليلي[1]) في الجزء الأول من كتابه «هكذا عرفتهم»، فهو كان من المؤيدين للدعوة – دعوة السيّد محسن الأمين – وكان جريئاً في تأييده لها، وصار يدافع عنها في جريدة «الفجر الصادق» التي كان يصدرها في النجف حينذاك.

يقول «جعفر الخليلي» في كتابه: إن العوام في النجف أطلقوا على المؤيدين للدعوة لقب «الأمويين»، كما أطلقوا على المعارضين لها لقب «العلويين» وصار سقاة الماء في المآتم الحسينية يرددون في ندائهم في يوم عاشوراء قولهم: «لعن الله الأمين – ماء» مع العلم أن نداءهم قبل ذلك كان: «لعن الله حرملة – ماء»[2].

وهنا سوف نقف أمام أنموذجين متناقضين: الأول يتمثل في

---

(١) جعفر الخليلي: رائد الأدب القصصي، صاحب جريدتي الراعي والهاتف، ومجلدات، (هكذا عرفتهم) و(في قرى الجن)، والموسوعة الفخمة (موسوعة العتبات المقدّسة)، وغيرها من الآثار العلمية والأدبية.

(٢) مجلة التضامن. العدد (٢٦٤) ١٩٩٠/٤/٢، وحرملة هو الشخص الذي رمى الطفل الرضيع عبد الله ابن الإمام الحسين بن علي يوم الطف بسهم وقتله، عندما جاء به أبوه ليطلب من العسكر الذين حاصروه في كربلاء شربة ماء له.

الوردي الذي كان يؤمن بدعوة الأمين ولكنه لا يعلن موقفه خوفاً من بطش العوام المتعصبين، أمّا الثاني فيتمثل في الموقف الجسور والتعرضي - بل الانتحاري- لجعفر الخليلي الذي كان يؤمن بدعوة محسن الأمين ويعلن إيمانه على صفحات الجريدة في مكان يعترف الوردي نفسه بأنه أكثر خطورة من الكاظمية حيث كان الصراع – وبلسان الوردي – على أشده في النجف، كما أن نداءات سقاة الماء تعني أنّ عوام النجف قد كفّروا السيّد محسن الأمين وأهدروا دمه، وهذا بطبيعة الحال يعكس موقف الجهات المتنفذة المشرفة على المواكب وممارسة تلك الطقوس سنوياً في عاشوراء.

سننتقل الآن نقلة خطرة جداً يحفزها الوردي نفسه حيث يقول في المقالة نفسها: «إننا حين ندرس المواكب والطقوس الحسينية نجد أنّها حصيلة عوامل نفسية واجتماعية لا إرادة للناس فيها، ولو كانت أيّة فئة من الناس تحت تأثير مثل تلك العوامل لما اختلفت عن غيرها فيها (...) ثم يذكر خمسة عوامل أساس هي: التنويم الاجتماعي، عامل الوجاهة، عامل التنفيس، تعويض الحرمان من الوجاهة، عامل الشفاعة وأخيراً عامل النذر[1].

والخلاصة أن لا إرادة للإنسان في مواجهة الظروف الاجتماعية والنفسية التي تحيط به، ولو جئنا بأيّة فئة من الناس وجعلناها تعيش تحت تأثير ضغوط هذه الظروف فإنها ستقوم بممارسة الطقوس العاشورائية بالتأكيد!!.

---

(١) المصدر السابق.

وعلى الرغم من بساطة هذا الرأي فإنني سأمضي في مناقشته حتى النهاية بروح موضوعية سائقها احترام فرضيات العلامة الوردي نفسه ومحاولة تأصيلها وفق رؤيته الحاكمة التي أهم مميزاتها هو تواضع العالم الممتزج بالاقتدار، المعرفي الموسوعي.

وموقف الوردي هذا عبّر عنه في مناسبات كثيرة، بل أشبعه شرحاً ونقاشاً، بدءاً من خلافاته الجدالية الواسعة حول قاعدة «من جدّ وجد» حيث يعتقد أنها قاعدة مضلّلة إذ لا علاقة لمستقبل الإنسان بما يبذله من جهد أو يمتلكه من إرادة وروح مثابرة، حيث يقول في أحد لقاءاته. «خلاصة القول إنّ الإنسان في كثير من الأحيان لا إرادة له أو اختيار في تعيين الهدف الذي يسعى إليه في حياته، فالهدف إنمّا تعيّنه القيم الاجتماعية السائدة في مجتمعه، وترى الإنسان راكضاً لاهثاً وراء ذلك الهدف كأنه الفراشة التي تلقي بنفسها إلى اللهب دون إرادة منها، فهو مسيّر ويحسب أنه مخيّر». وحين سأله الصحفي:

- اسمح لي أن أوّجه إليك سؤالاً شخصياً قد يكون محرجاً لك، فأنت تقول إنك نشأت في مجتمع يقدر «الشقاوة»، وكان المتوقع حسب قولك أن تكون في كبرك شقياً أو تتمنى أن تكون شقياً، ولكننا رأيناك في ظاهرك بعيداً كل البعد عن الشقاوة وقيمها، فهل معنى هذا أن قيم الشقاوة كامنة في أعماق نفسك؟ أم ماذا؟

فيجيب الوردي: «يجب أن لا ننسى أن المجتمع الذي نشأت فيه

لم يكن الشقي وحده صاحب المكانة العالمية فيه. فقد كان هناك بالإضافة إلى الشقي أشخاص آخرون لهم مقامهم المرموق. أذكر فيما يلي بعض النماذج الرئيسة منهم:

١- رجال الدين.

٢- الأفندية الذين كانوا يتولون الوظائف الحكومية.

٣- الوجهاء الذين يطلق عليهم لقب «أهل الجيب».

٤- الوجهاء الأغنياء.

٥- الشعراء.

إني – والحديث للوردي – عندما نشأت في هذا المجتمع كنت أتمنى أن أكون في كبري واحداً من هؤلاء المرموقين ولكني كنت أعلم أنّ ظروفي لا تسمح لي بذلك إلاّ في نطاق محدود جداً. وقد تركز أملي في بعض الأحيان على أن أكون شاعراً، ونظمت بعض القصائد غير أني لم أوفق بها. ثم ساقني القدر أخيراً إلى أن أكون أفندياً، وهذا أمر لم يكن بإرادة أو اختيار مني بل إنّ الظروف التي أحاطت بي والمصادفات التي مرّت بي هي التي دفعتني إلى هذا المصير. إنّ الإنسان في كثير من الأحيان كالريشة في مهب الريح، والله هو المعين على كلّ حال»[1].

وفي لقاء آخر وجّه السؤال نفسه إلى الوردي – الإنسان بوجه عام لا إرادة له في صنع شخصيته أو تفكيره، بل هو يخضع للظروف

---

(١) جريدة الجمهورية – ١/تموز/١٩٩١.

فيهمـا – فأجـاب: «إنـه شخـصياً لا يختلـف مـن حيـث تكـوين شخصيته وتفكيره عن غيره من البشر. وهـذا هـو مـا سـوف يـراه القارئ في مذكراته التي ستصدر بعـد موتـه، فهـو في مذكراتـه سجّل جميع الأحداث التي مرّت به بكثير من الصراحة، وسـوف يرى القارئ أنه كان فعلاً كالريشة في مهب الريح في كثير مـن الأحيان.

يقـول الـوردي: إنـي كغـيري مـن النـاس أحـبّ أن أمـدح نفـسي ولكنني مع ذلك أشعر بأنني لم تكن لي إرادة أو اختيار في صنع نفسي إلاّ قليلاً. وهذا هو الذي جعلني أضع مذكراتي بعنوان «في مهب الرياح[1]»، وتصل حالة «التبسيط» بالوردي إلى حدّ أنه يستعيد مقالة له كتبها في إحدى المجلات قبل سنوات قال فيها:

«لولا وجود أنور باشا في تركيا في الحرب العالمية الأولى لكنت أنا الآن عطاراً في أحد أزقة الكاظمية أو كاتب عرائض فيها على أحسن تقدير».

وعندما سـأله الصحفي عن العلاقة بين أنـور باشـا في اسـتنبول وعلى الوردي في الكاظمية أجاب: «كان أنور باشا في أثناء الحرب العالمية الأولى أقوى شخصية في الدولة العثمانية، وكانت له اليد الطولى في إدخال تلك الدولة في الحرب. ومعنى هذا أنه لولا وجود هذا الرجل في تلك الدولة حينذاك لما دخلت الدولة في الحرب ولبقي

---

(١) أنا صنيعة بيئتي وزماني – لقاء مع الوردي – جريدة الثورة ١٩٩٢/١٢/٢.

العراق جزءاً منها فترة من الزمن قصيرة أو طويلة». ويقول الوردي إنه هو وأمثاله من أبناء الفقراء لم يكن ميسوراً لهم أن يدخلوا المدارس في العهد العثماني. وهم إنما أتيح لهم ذلك بعد تأسيس الدولة العراقية واختيار فيصل الأول ملكاً فيها.

ويقول الوردي الذي ولد في عام ١٩١٣ إنه لو كان قد ولد قبل عشر سنوات من ذلك العام لصار يكسب رزقه في السوق كغيره من أبناء أسرته. ولم يكن يخطر بباله أن يكون «أفندياً» في يوم من الأيام»[1].

نستطيع الاستنتاج أن الوردي يمتلك فكرة «قدرية» تقوم على أساس أن لا يد للإنسان في رسم مصيره وأن الأقدار التي ترسمها ظروف خارجة عن إرادته هو هي التي تتحكم به مثل ريشة في مهب الريح. وليس أدل على ذلك - من وجهة نظر الوردي طبعاً – من «دور» أنور باشا – الشخصية المتنفذة في استنبول في تحديد مستقبل الطفل علي الوردي في الكاظمية!!. ولكن الوردي ينسى أن الفضل – في الحقيقة – يعود إلى الطفل علي الوردي في الكاظمية!! ولكنّ الوردي نسي أن الفضل – في الحقيقة – يعود ليس إلى أنور باشا الذي أدخل تركيا الحرب العالمية الأولى، بل إلى مستشار ألمانيا الذي أعلن الحرب، وإذا سرنا حسب تحليله للأمور، فالفضل أولاً وأخيراً إلى الشاب الصربي الذي اغتال مستشار النمسا. ولولا وجود حرب ما كان بإمكان أنور باشا إدخال تركيا فيها والتي

---

(١) جريدة الجمهورية ١/تموز/١٩٩١.

نجم عنها هزيمتها واحتلال القوات البريطانية للعراق وتأسيس الدولة الحديثة فيه والتي كان من مظاهرها فتح المدارس التي وفرت للوردي فرصة التعلّم، وهو يحمد الله لأنه لم يولد قبل هذا الوقت – قبل ولادته في عام ١٩١٣ – لأنه سيكون عاملاً في السوق!!. وهذا ربط عجيب وغريب في تفسير الحوادث والبحث عن مسبباتها وربط العلة بالمعلول، وهو يخالف أسلوب التفكير العلمي الذي دعا إليه الوردي طوال حياته، فنحن نستطيع تذكير الوردي بالعشرات من العراقيين من المفكرين والمبدعين المبرزين الذين ولدوا قبله بعشر سنوات ولم تكن بهم حاجة إلى حرب ليثبتوا ذواتهم ويرسموا مستقبلهم بإرادتهم العزوم.

هل نذكّره مثلاً بواحد من أهم رموز العراق الفكرية والسياسيّة وهو الدكتور المجاهد «محمد مهدي البصير» الذي ولد في عام ١٨٩٥ وحقق ما يشبه المعجزة، فعلى الرغم من أنه كان فاقد البصر إلاّ أنه كان خطيباً وشاعراً في ثورة العشرين واشتغل مجاهداً في العمل السياسي بين عامي ١٩١٩و١٩٣٠، سجنه ومن ثم نفيه إلى جزيرة هنجام قرابة ثمانية شهور، سفره إلى فرنسا ونيله دبلوم الدراسات الفرنسية من جامعة موبلييه في شباط ١٩٣٣ والدكتوراه في الأدب الفرنسي في ١٧/كانون الأول ١٩٣٧. وإذا أضفنا إلى ذلك أنّ البصير قد فقد بصره وهو في الخامسة من عمره سندرك عظمة الإنجاز الذي حقّقه، فهو لم يكن يحتاج إلى أنور باشا ولا إلى حرب عالمية وهو الدليل القاطع على أنّ الإنسان ليس

كما يتصوّره الوردي «ريشة في مهب الريح» تتلاعب به الحوادث وتعبث بمقدراته الظروف الخارجية. ولو كان الأمر كذلك لكان هذا الطفل الأعمى شحاذاً في شوارع الحلّة مثلما توقع الوردي لنفسه أن يكون عطاراً في شوارع الكاظمية.

لكننا نستطيع الرد على أطروحة الوردي من خلال مقترب آخر أكثر تأثيراً، وذلك من خلال مراجعة سيرة الوردي نفسه، والمشكلة أن الوردي يخالف استنتاجاته بلسانه في تلك اللقاءات التي أشرنا إليها آنفاً. ففي أحد اللقاءات سأل الصحفي الوردي لماذا اختار علم الاجتماع دون غيره من العلوم، وهو الذي بدأ أديباً وشاعراً في كتاباته في عام ١٩٣٠، أما كان الأحرى به أن يختص في لغة أو شعر أو فقه كما اختص زملاؤه الذين شاركوه في كتابة الأدب في تلك الحقبة؟ فأجاب الوردي: «اخترت هذا العلم لأن هذا العلم يلائم ذوقي ومزاجي. فقد مرّت بي في طفولتي وبداية شبابي تجارب مرّة وعانيت آلاماً، ورأيت البشر على حقيقتهم من دون برقع. فنشأت عندي رغبة في أن أعرف عن طبيعة البشر شيئاً، ولماذا يسلك إنسان هذا المسلك، ويسلك غيره مسلكاً آخر[١]؟». ومعنى هذا أن الوردي (اختار) بإرادته مسلكاً قرّره بنفسه ولم يترك اختياراته فريسة لفعل الظروف العشوائي. ويعزّز هذا الأمر أن طلب الوردي للابتعاث للدراسة في الخارج قد رفض، فقام الوردي – بإرادته – بالاستعانة بشخصية سياسية متنفّذة آنذاك لتساعده على

---

(١) جريدة الثورة. ١٩٨٥/٩/٢.

تحقيق حلمه في دراسة علم الاجتماع. ولم يخبرنا الوردي عن الظروف والأفراد – غير أنور باشا – الذين منحوه شهادة الدكتوراه غير عرقه وسهره وكدّه ونبوغه؟ وتحضرني هنا الحادثة التي حصل بسببها على شهادة مواطن شرف أمريكي ومفتاح مدينة نيويورك، فهذه الحادثة هي أنموذج مبسّط للكيفية التي يتفاعل بها ما هو ذاتي مع ما هو موضوعي خارجي: «فقد كان الوردي طالباً في جامعة تكساس يدرس علم الاجتماع. وقيل أن رئيس الجامعة هو رئيس قسمه وأستاذه. وكان عمدة مدينة نيويورك صديقاً للأستاذ فدعاه إلى لإلقاء محاضرة علمية، أعلن عنها ودعا إليها، وفي اللحظات الأخيرة تهبط على الرجل مشاغل تمنعه من السفر فاتصل بعمدة نيويورك صديقه طالباً منه عدم تأجيل المحاضرة أو تغيير موعدها قائلاً له: سأرسل لك أميز الطلبة الدارسين عليّ لإلقاء المحاضرة. وكان هذا الطالب هو علي الوردي[1]»..

هنا توفرت فرصة من «الخارج» رسمتها الظروف والحوادث «العشوائية» لكن لو لم يكن الوردي طالباً نابغاً هل كان اختاره الأستاذ لإلقاء المحاضرة بدلاً منه؟ ولو لم يلقِ الوردي محاضرة متميّزة، هل كان عمدة نيويورك منحه شهادة مواطن شرف أمريكي ومفتاح مدينة نيويورك؟

---

(١) من وحي الثمانين – جمع وتعليق سلام الشماع – مؤسسة البلاغ – بيروت – ٢٠٠٧.

ولو عدنا إلى ما قاله الوردي عن طفولته فسنجد أنه قال في أحد اللقاءات ما يأتي: «رحم الله أمّي وغفر لها، إنها كانت تشتهي أن أكون عطاراً وأن أنجح في مهنة العطارة حتى أصير في النهاية شيخ العطارين. لقد كانت معجبة بعطار غني من معارفها، وكانت تريد مني أن أتّبع سبيله. وهذا كان من أسباب انفصالي عن المدرسة في صباي خمسة أعوام صرت في بدايتها صانع عطار، وأخفقت في (صناعتي) هذه إخفاقاً فظيعاً[1]».

والأهم الآن أن الوردي سوف يقدم لنا وصفاً لسلوكه مع صاحب محل العطارة ينسف أسس نظريته القدّرية حيث يقول: «كنت مولعاً منذ طفولتي بمطالعة الكتب، ولكن العطار أستاذي المرحوم كان يعتقد بأن الكتب هي شرّ ما يبتلى بها كاسب يجلس على باب الله. فالكتب في نظره لا تعطي خبزاً ولا تشبع جائعاً. إنه كان يريد مني أن انتصب في جلستي متيقظاً أتصيّد المشترين وأقابلهم بترحاب ووجه بشوش، بينما كنت في قرارة نفسي أكره المشترين، ولا يكاد يقبل أحدهم على الدكان حتى أتمتم باللعنة عليه وعلى أستاذي معه، وكنت أنتهز فرصة غياب أستاذي عن الدكان لأنهمك في مطالعة الكتب. ولا أبالي آنذاك بمن يأتيني أو يذهب عني من المشترين. وكانت العاقبة أن طردني الأستاذ من دكانه شرّ طردة، أحمد الله على هذه الطردة، فقد استطعت بها أن أتفرغ إلى كتبي الحبيبة إلى قلبي، والمظنون أني لو بقيت عطاراً لكنت الآن في دار

---

(١) جريدة الثورة. ١٩٨٥/٩/٢.

المجانين – والعياذ بالله!!»[1].

إنّ الوردي يقوّض هنا – وقد يكون من حيث لا يدري، لا شعورياً بفعل ضغوط الحاجات النرجسية – كل ما طرحه عن كونه صنيعة الظروف وأن لا إرادة أو اختيار له في صنع ذاته. فها هو – وهو طفل غرّ – يرفض محاولات أمه لرسم مستقبله كعطار، ويفرض «اختياره» الإرادي في القراءة ومطالعة الكتب معانداً (أستاذه) العطار الراشد، أي أن الوردي قد عاند الظروف الخارجية وأبطل فعلها وهو طفل بإرادته البسيطة فأين هي الدلائل، في حياته، على أنه كان ريشة في مهب الريح؟

دعوني الآن – وهي محاولة، في حقيقتها، للانتصار للوردي الممعن في جلد ذاته – أنقل إليكم ما قاله الوردي للباحث الفذّ «حميد المطبعي» عن طفولته:

«ولد الوردي في مدينة الكاظمية في عام ١٩١٣ في زقاق، وفي أسرة في سلّمها الطبقي الأدنى، يتردّد على بغداد، وكان (الترامواي) الذي تجره الخيول وسيلة سهلة لتنقله بين البلدتين. (والترامواي) هذا، أعطاه مزيجاً من العلاقات، أعطاه الطيّب والدنيء من الناس، والناس يتناقضون في أهوائهم الاجتماعية. ولكونه يائساً من هذه الكثرة في مجتمعنا، استطاع أن يفهم الناس على حقيقتهم من غير بهرجة أو تزويق، لأن الموسر – في

---

(١) جريدة الثورة. ١٩٨٥/٩/٢.

عرف الوردي – يعيش محفوفاً بالمجاملات والمساعدات من كل جانب، ولهذا فهو يفهم الناس فهما لا يخلو من طلاء وأقنعة مزركشة، وكان هذا (الترامواي) يوصله إلى (سوق السراي) الذي كان في حينه أكبر سوق للكتاب في العراق كلّه. فتقع عيناه على ثقافة مصر، وكانت في أشدّها من جدل العصر.. فيشتري بفلوسه المعدودات، الهلال والمقتطف، وربّما الثقافة والرسالة.. ويتأبط هذا الجدل، يقرأ بعضه قرب (القشلة) وربّما كان يقرأ النفس الأول في الطبع الاجتماعي ومحاكمة التناقضات، وشيئاً فشيئاً تقوده قدماه إلى (دار المحاكم...»)[1].

ما الذي يدفع بطفل في عمر علي أن يذهب إلى دار المحاكم وقد رسمت له الأقدار والحوادث أن يكون عطاراً؟ ما الذي يريده من الحضور المثابر في ساحات المحاكم، وهو أمر لا يفضّله حتى الكبار في زمانه؟

«كانت دار المحاكم تطل على النهر آنذاك.. ويدخل على الساحة.. يشاهد القضاة يتلفعون بكتب القانون، ويأخذ له ركناً ينزوي فيه.. صامتاً.. متأملاً حائراً كقلوب الفقراء، وتُذاع المرافعات، ويأتي المحامون وأرباب المصالح، السجناء والسجّانون، المحتالون والشرفاء، كل الفئات تقف أمام القضاة، ومن الجهة الأخرى كانت تقف أمام الوردي، أو الوردي يقف أمامها، مستفسراً

(١) المصدر السابق. والواقع أنّ هذا الكلام ليس من أسلوب الوردي، وإنّما هو من صياغة حميد المطبعي وتعليقه.

كاشفاً ذلك النبع من أسرار الحياة الاجتماعية التي تعج بها العاصمة عادة، ويخرج من دار المحاكم وفي قلبه قصص، أبطالها معذّبون، مهووسون، أو إن شئت، قل هؤلاء خطاة أو غيرة خطاة، مرّوا أمام الوردي فبصر فيهم أسباب الخطيئة، ومعالم الشهادة، وفجأة وهو الذي يفكر في مصائر أبطاله، يصطدم في شوارع العاصمة وأسواقها بمظاهرات تلعن الاستعمار، ويشترك فيها مثلهم يلعن مثلهم، يرفع يديه، لكنه كان يلعن ويفكر.. يرفع يديه ويدقق البصر وكان في كلّ هذا المزيج يلتقط أنفاسه الأولى، في البحث عن أسباب (لعن الاستعمار) والأسباب التي تدفع القضاة إلى محاسبة المقصّرين، الخيّرين منهم أو الشريرين، حتى استقام له، معنى أن يكون الشرّ ظاهرة في البعض، والخير ظاهرة في البعض الآخر في هذا المزيج الاجتماعي، فجرب أن يكتب في هذا المعنى في بداية الثلاثينيات، فسخط عليه بعض من الخيرين وبعض من الشريرين، لا هؤلاء الإيجابيون يقبلون بتقرير الحقائق، ولا هؤلاء الشريرون يقنعون بمواصفاته وتحليلاته، فتعرّض الوردي للسبّ جهاراً عياناً، لاسيما في مدينته التي أنجبته، ابناً باراً، مهذباً، حكيماً، يحلم فيها بمودة الحكماء وبأساليب المهذّبين. وتحمّل السبّ حتى انتصر، حتى استقام الوردي لمدينته، لبغداد، ولكل المدن الشريفة التي تفكر بالجدل وتحترم منزلة الحكماء، شجرة، جذرها في العمق، وخيرها في العمق، تعطي أكثر مما تمتص، وتهب أنفاسها بلا كدر، بلا عبث من الطبيعة»[1].

---

(١) جريدة الثورة –حميد المطبعي - ١٩٨٥/٩/٢.

ومـن جديـد نـستطيع القـول، وبثقـة: إن الـوردي لم يكـن في طفولته المبكرة ريشة تتقاذفها رياح الظروف والحوادث، كـان، كعادة المفكرين والمصلحين، ذا طفولة متسائلة شاكّة لا تذعن لصروف دهرها ولا لتدخلات الكبار في تشكيل مسيرتها. رفض مشيئة أمّه في أن يكون عطّاراً بطريقته الالتفافية – غير المباشرة – التي وسمت حياته وسلوكه الشخصي والمعرفي، وذلك من خلال الإصرار على قراءة الكتب في محل العطـارة والانـشغال بهـا عـن الاهتمام بالتقاط الزبائن الذين لا يبالي بمن يأتي أو يذهب منهم. وهذه الطريقة لم تكن تخلو من زفرات عدوان على (الآخر) حيث كان يلعن، في سرّه، الزبائن وأستاذه العطّـار، وعلـى الـذات مـن خلال توقع شديد القتامة ويمثّل تمظهراً للموت والانخصاء وذلـك حين ظنّ بأنّه سيودع في دار المجانين – والعياذ بالله حسب قوله – لو بقي عطّاراً.

إنّ ما نسطّره من (تمنيات) و(توقّعات) يخضع لعوامل تمور في لا شعورنا حتى لو أخذت تلك التمنيات والتوقّعات شكل الطرافة أو المزاح. وقد استمر هذا الموقف الالتفافي الرافض عندما فتح لنفسه دكّان عطارة في السوق نفسها التي كان يعمل فيها عـاملاً لـدى العطّار المسكين. ولكنّه – حسب قوله – لم يكن منصرفاً لعمله كلّ الانصراف وكثيراً ما كان يصف نفسه بأنه كـان عطّـاراً فاشلاً.

إن الأمر الذي حكم موقفه الرافض هذا ليس فقدانه لمهارات

البيع والشراء حسب، بل رفضه اللاّ شعوري لمهنة مستكينة لا «بحث» فيها ولا تساؤل ولا إجابات لشكوك ساخنة استولت عليه وتنامت بفعل تصاعد حدّة وعيه من خلال القراءات المبكرة للمجلات والكتب الفكرية التي كان يشتريها من (سوق السراي)[1] بفلوسه القليلة التي كان يصرفها أقرانه على حاجاتهم وملذاتهم الصغيرة. ولم يكتفِ بذلك، بل كان يتنقل بعيداً عن بلدته بواسطة نقل عامة يحتك فيها بالناس من مختلف الأصناف والمشارب ويرى سلوكاتهم اليومية التعاملية الحيّة على حقيقتها بما فيها من آليات دفاعية وتنازعات مصلحية واحتكاكات سلبية، وفي شوارع العاصمة ألقى بنفسه في خضم تظاهرة سياسية تلعن الاستعمار وهو تصرف كان من الممكن أن يعرضه لمخاطر جسيمة وهو في تلك السن المبكرة أقحم نفسه في ذلك الحشد الناقم الغاضب ولم يكن يعي تماماً دوافعها ولا لماذا يُلعن الاستعمار. فالذي دفعه إلى هذا الفعل ليس الشعور/ الوعي السياسي الناضج فهو لا يمتلكه في ذلك العمر، ولكنّ دوافع اللاّ شعور، المتمثلة في تململ غريزة العدوان وتحفّزها وهي ترى الأصوات الزاعقة والقبضات الملّوحة المهدّدة ونداءات اللعنة والسقوط وكذلك الرغبة في إثبات الذات وإشباع دافع المعرفة

(١) سوق السراي، أكبر سوق للكتب والقرطاسية في بغداد، ويعتقد أن موقعها الحالي هو موقع سوق الوراقين في بغداد الشرقية التي بناها العباسيون في بغداد الشرقية لقربها من المدرسة المستنصرية ومدارس عباسية أخرى.

والفضول (التبصصّية المعرفية) والتي تأتي كشروط فوقية تتأسس على الدوافع التحتية الأساس.

ويتستر جانب من هذه الدوافع في (اختياره) المبكر أيضاً لعادة الحضور في ساحات المحاكم وتأمل أحوال الدنيا في جانبها الآثم، وكيف يتم التعامل مع الآثمين والظالمين وهم يقفون أمام ضحاياهم والكيفية التي تتم فيها (رواية) قصّة هذا (الظلم الاجتماعي) وحسمه من قبل المحامين وأصحاب القرار الحاسم وهم: القضاة، فما الذي يجعل طفلاً مثل علي يخصّص قسماً كبيراً من يومه لمراقبة معاناة الناس ومظالمهم في الوقت الذي يسرح فيه أقرانه ويمرحون في ألعابهم أو ينشغلون في معاونة أهاليهم؟ ينبغي أولاً تقرير حقيقة من حقائق التحليل النفسي وهو أنّ لا فعل عشوائياً في الحياة البشريّة مهما كان مظهر هذا الفعل عفوياً ومرتبكاً. هناك دائماً قصدية لا شعورية تتستر خلف اللاّ قصدية الشعورية الظاهرة.

وثانياً، فإن من عادة دوافع اللاّ شعور أن تصيب، من تصرف معين، عصافير عدّة بحجر واحد، وثالثاً: فإن هناك ما نسميّه بـ«فرط التعيّن **Overdetermination**» أي أنّ دافعاً واحداً يمكنه أن ينتج أكثر من سلوك، وأن سلوكاً معيناً قد تقف وراءه أسباب عدّة. ورابعاً: فإن العوامل المحدّدة لبناء شخصية الفرد في الكبر غالباً ما تفعل فعلها في تحديد تلك الملامح خلال مرحلة الطفولة بالرغم من أن هذا لا ينفي إمكانات النمو اللاحق في الشخصية.

قد يكون هناك أكثر من دافع يقف وراء ارتياد علي الصغير دار المحاكم في بغداد منها، كما يظهر على السطح ولا يفسّر اختيار المحاكم تحديداً، الرغبة في المعرفة وفي إشباع الفضول وهذا دافع ليس نوعياً لأنه يمكن أن يقف مهمازاً لأغلب سلوكياتنا في سنواتنا المبكرة خصوصاً. قد يضيف أحد رغبة علي في مراقبة تفصيلات (الظلم الاجتماعي)، هذا الهمّ الذي سيطر على جانب مهم من جهده البحثي والتأليفي، لكنّ الوردي لم يدرك الأبعاد الدقيقة لدور (المصلح) في طفولته ووعيه المحدود لكي نرسم له هذا الاختيار الكبير. يبقى هناك دافع آخر قد يناسب سنّه في تفسير فعله للذهاب لـ(الفرجة) في المحاكم وهو تلبّسه بمشاعر (الضحية) وتماهيه بها والرغبة في طمأنة مخاوفه المضنية من أن يفلت المعتدي من الحساب وأن لا أحد مقتدراً على دفع العدوان والأذى عنه. ومن الأمور التي تسند هذه النظرية هو ميل الوردي إلى تصوير ذاته في مرحلة الطفولة وكأنه ضحية ظروف قاسية في حين أنه عاش طفولة شبه مرفهة قياساً إلى حال أقرانه، فقد كان، خلال طفولته ومراهقته، يلبس (السيدية) وهي غطاء الرأس المميّز للسادة العلويين وهو امتياز وجاهة اجتماعي لمن هم في مثل سنّه، كما أنه عاش مع أمّه وأبيه في بيت جدّه لأمّه في حال موسرة نسبياً لأن جدّه هو السيّد (جعفر عطيفة) الوجيه المعروف الذي كانت (المس بيل) تتنزه في بساتينه أحياناً ورئيس بلدية الكاظمية في العهد العثماني والملكي، كما أن أباه كان صائغاً واستطاع توفير فرصة الالتحاق بالمدرسة له على الرغم

من أنه منعه من الدراسة عندما فقد البصر في إحدى عينيه.

وهناك أيضاً حادثة الطفولة التي ظل يتذكرها طوال سنوات حياته وحتى وفاته معتبراً إياها أنموذجاً لـ(الظلم الاجتماعي) وسطوة القوي على الضعيف.

فقد اصطحبته أمّه إلى مدينة (النجف) لرؤية والده الذي فارقهم وغادر بغداد هرباً من الوشاة بعد أن ترك وحدته في الجيش العثماني (راجع الحوار)، وهناك واحتفاءً من الأب بلقاء ابنه الصغير اشترى له لعبة هي عبارة عن بندقية خشبية. وبينما كان الطفل واقفاً بباب الخان ممسكاً ببندقيته بزهوٍ وفرح جاء طفل أكبر منه مسرعاً وخطفها منه وانطلق. ولم يستطع علي أن يفعل شيئاً وهو يرى الطفل السارق يلوح ببندقيته من بعيد فعاد إلى أمّه باكياً.

لقد عدّ الوردي حادثة الطفولة هذه أنموذجاً للظلم الاجتماعي وهي كما ترى حادثة بسيطة يمكن أن تحصل لأيّ طفل في أيّ مكان من العالم ولابد أن الوردي الباحث الذي يسترجعها كثيراً ويحمّلها ما لا طاقة لها بتحمله قد اختزنها طويلاً استناداً إلى معانيها الرمزية النفسية التي بدونها ستصبح حدثاً تافهاً لا يحمل أيّ دلالة على الظلم الاجتماعي.

يبدو أنّ هذه البندقية التي منحها الأب لطفله تمثل ما هو أكثر من لعبة، إنه فخ الذكورة وإلغاء لمشاعر العجز والانخصاء وتهديداتهما، ويبدو أيضاً أنها من اللحظات الفريدة والاستثنائية في علاقة الابن بأبيه، الأب الذي عرف بتسلّطه وتزمته والذي حفلت

علاقته بابنه بالكثير من التوترات، فيما بعد.

لقد وفرت الهدية البسيطة مادياً والهائلة نفسياً فرصة الانتشاء والتفوّق والتكامل والشعور بالقوّة، وهي فرصة سرعان ما جرّد منها بسلوك الطفل الأكبر الفظ الذي أعاد علي إلى موقع الضحية التي تراقب كل يوم مشاهد مسرحيّة الضيم الذي يلحق بها ومحاولات رفعه في ساحة دار المحاكم. إنّه هنا يشاهد قصصاً عن الظلم الاجتماعي يستعيدها أو يستعيد ويستقرئ ما يشابهها في نضجه. فكل مؤلفاته تتسم بالأسلوب السردي.. فهو راوية اجتماعي من الطراز الأول.. يعرض القصص ويحاكمها ثم يصدر قراره النهائي بشأنها وكأنها قضية من قضايا المحاكم، حتى أنه يعرض الرأي والرأي المضاد مثل ما يطرح محامي الدفاع والمدعي العام أفكارهما.. كما أنه يوفّر لكل قصّة/ قضيّة «شهوداً» من الجانبين ويسرد «مستمعاً» للإفادات والمرافعات المتناقضة بصبر وأناة. وهذه هي خطة الوردي الباحث والكاتب، لكن هل كان علي الصغير وهو يتردد على دار المحاكمة «ضحية» فعلاً؟ هل حلّ عليه أيّ شكل من أشكال الظلم والحيف وهو في عمره المبكر ذاك؟ يمكننا الإجابة بسهولة؛ أنه لا يمتلك أيّ شرط من الشروط العملية لدور الضحية، ولكن من بين إفرازات العلاقة المتأزمة بين الابن والأب هي تخيلات دور الضحيّة المهدّدة، وهذه التخيلات لا تختلف في الواقع النفسي عن تمثلاتها في الواقع المادي الفعلي، بل قد تفوقها قوة في تشكيل سلوك الفرد الفعلي، إن دور الضحية

التخيّلي – على مستوى اللاّ شعور – والذي يتحول إلى سلوك واع ملموس هو من نواتج عملية التكفير عن الشعور المتأصل بالذنب وذلك من خلال جلد الذات وتعذيبها، ففي كل زيارة إلى دار المحاكم – وفي كل كتابة وبحث في الظلم الاجتماعي – يتماهى علي – طفلاً وراشداً – بالضحية ويتمثل آلامها ومرارات قصتها وقد ينفّس عن عدوانه المكبوت بجلدها بدوره لأن السادية هي الوجه الثاني لعملة المازوخية، والأهم هو الوجه الثالث للعملة وهو «التركيب» الناجم عن الاجتماع التفاعلي لـ«أطروحة» المازوخية بـ«طباق»السادية إذا استعرنا الجدل الهيغلي، وفي هذا الاجتماع التركيبي سنجد حياة حافلة بالمتضادات الوجدانية – Ambivalent – والتي يسميّها الوردي ازدواجيات والتي تشمله هو نفسه كما سنرى، لكن المشكلة الكبرى التي ستواجهنا هنا هو ما سيطرح، حتماً، من اعتراضات حادّة عن معنى استكشاف جوانب من شخصية الوردي الإنسان ومحاولة الإمساك بتأثيراتها وانعكاساتها في منجزه الفكري، لاسيما وأن «الحداثويين» قد جعلوا من «موت المؤلف» شعاراً لهم وقاعدة في التعامل مع النصوص بأشكالها كافة، وقد تسلم «البنيويون» العرب راية موت المؤلف فأوغلوا فيها بحقّ حيناً، وبغير حقّ في أحيان كثيرة، لكنّ مواجهة هذه الاعتراضات ستضعنا في مركز معضلة ذات وجهين، الأول هو التعامل مع أطروحة «موت المؤلف»، والثاني هو التعاطي مع مشكلة الصلة بين الذاتي والموضوعي في العلوم الاجتماعية، وبالرغم من أن مصطلح «موت المؤلف» مستعار من طقوس البنيوية

إلى التفكيكية إلاّ أن أيّ تساؤل يطرح في هذا المجال يستحق المناقشة والتوضيح لأنّه سيمّس صلب مشروعنا، إذ ما فائدة صرف الجهد وتبييض الصفحات في تحليل شخصية الدكتور «علي الوردي» وهو ميت الآن في الوقت الذي علينا أن نكتفي بنصوصه الكثيرة المعروفة التي تركها لنا لنستقرئها ونستقي منها العبر والدروس في النظر في حال مجتمعنا وطبيعة شخصيتنا.

يقول المفكر الدكتور «علي زيعور» متحدثاً عن الشروط النفسية لعمل (الناقد) – والوردي في رأيي أقرب إلى الناقد الاجتماعي منه إلى المحلل الاجتماعي، كما أنه يعمل، وباعترافه في المنطقة المشتركة بين علم النفس وعلم الاجتماع وهو ما نسميه بـ«علم النفس الاجتماعي» وليس في حقل علم الاجتماع الخالص: «لفهم النصّ، أو (الفرد)، فهماً متعمقاً لا غنى عن صلة وثيقة أو صداقة بين الموضوع والناقد، صلة قريبة تقوم على الوداد والاحترام. هذه الفضيلة الضرورية هي التراحم حيث المحبة مع حسّ المسؤولية التي تجعلنا نافذي النظر، متبصّرين بجلاء. وإن عدم وجود هذه العاطفة عند الناقد هي التي تجعله يتربص بالهفوات، هادماً، يفتش عن الأخطاء فينفي ويسفّه ويهاجم أكثر من أن يترجم المحبّة والسير بحسب حركتها. إنّ المعرفة الصحيحة للعيوب تنتج هي بدورها من التعاطف الذي ينشأ بين الناقد والقطعة المعروضة للنقد – ككائن خاص له مزاياه وعيوبه – تُقسّم الناقد وتشرّحه، ثم لكونها شيئاً واقعياً فلابد إذن من أن تُحترم وتُحب. لذا تتطلب

فضيلة التعاطف هذه صفات في الناقد ممتازة، وغنى داخلياً وثروة ثقافية وأخلاقية مع إيمان بالقيم والغير، مما يجعل الحكم النقدي (التنقيد) أو (التقييم) قريباً من القاعدة المفروضة من الداخل، بل يصبح ذوقه هو القيم ذاتها بلا انفصال أو تباعد»[١].. «والناقد هو ما يتجسد منه في مهاجمته لتلك الناحية دون تلك. والإغضاء عن نقطة أو مدح أخرى، فتبدو نفسيته بجلاء، وقد تتخفى أحياناً، إلاّ أن مشاغله بصورة عامة توجّه سيره النقدي لا شعورياً أو من جهة أخرى بتفكير ونيّة مدروسة. إنه يختار نفسه، فيعطي نفسه المعنى الذي يودّ، وذلك من خلال عمله أو سلوكه تجاه النقد.. النقد شاشة تعكس توترات الناقد وانجراحاته النفسية الاجتماعية وعصابه»[٢].

وإذا راجعنا منجز الوردي فسنجد أنّ انجراحاته الشخصية قد شكّلت الإطار النفسي الذي حكم رؤيته البحثية. إننا نستطيع الإمساك بخيط المرارة الناقمة الذي يجمع مواقف الوردي المختلفة من الظواهر التي يتناولها. ولو راجعت تراث الوردي المتعلّق بدراسة أحوال المجتمع العراقي وشخصية الفرد العراقي؛ فلا أعتقد أنك ستجد أيّ ملاحظة إيجابية إلاّ في النادر من تحليلاته، وتعليقاته، وهذا الإيجابي – إن وجد – يغرق عادة وسط أمواج التقييمات والأوصاف السلبية المتلاطمة.

إنّ نزوعاً سادياً يسم طريقته في تناول الوقائع والحوادث، نزوع

---

(١) اللا وعي الثقافي ولغة الجسد – د. علي زيعور – دار الطليعة. بيروت.

(٢) المصدر السابق نفسه.

يتخفى، ويتجسّد في الوقت نفسه خلف ستار (السخرية) التي ينبغي أن لا تطبع بطابعها أسلوب العالم الاجتماعي المحايد في عواطفه والمستقر في انفعالاته والذي ينبغي أن تكون استجاباته موضوعية تفرض طرح الحدث ووصفه وتحليله ثم تقديم الاستنتاجات المطلوبة، مهما كانت طبيعتها، محايدة انفعالياً، ولكن حين تطفو بنحو صارخ علامات التهكم التي تصل إلى درجة التشفّي فإنّ هذا يعني طغيان الانفعالية الذاتية على النظرة الموضوعية، حيث يمكن أن نلحظ ملامح (نشوة) و(سرور) بادٍ يرافق (العرض) الذي ينبغي أن يكون عقلانياً متجرّداً.

إنّ سمة الوداد والاحترام والمحبة الممزوجة بحسّ المسؤولية تجاه (الموضوع) المطروح للدراسة تكاد تكون مفقودة في أسلوب الوردي، ومن المفارقات؛ أنّ الوردي لم يكن يعلم أنه كان يقصد ذاته حين كان يتحدث عن فعل العوامل اللا شعورية في إضعاف قدرة العقل البشري على إصدار الأحكام الموضوعيّة حيث قال:

«إنّ العقل البشري بوجه عام لا يستطيع أن ينظر في الأمور نظرة حيادية مطلقة، لأن هناك عوامل لا شعورية عديدة تؤثّر في تفكيره من حيث لا يدري، كالمعتقدات التي نشأ عليها والعاطفة والمصلحة والأنوية وحدود المعرفة والتجارب المنسية والعقد النفسية وغيرها، فالإنسان حين يفكر، يتصوّر أنه حرّ مطلق في تفكيره لأنّه لا يعرف العوامل اللا شعورية المؤثرة في عقله، فنحن حين نتهم

المخالف لنا بالتعصب أو العناد أو الجهل لا ندري أنه هو نفسه يتهمنا بمثل ما اتهمناه به، وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم إذ قال: «كلّ حزب بما لديهم فرحون»[1].

وتتجسّد صفة الانفصال والتباعد عن الموضوع المطروح/ الإنسان/ النصّ، في أنّ الوردي يخاطب هدف دراسته وهو شعبه الذي هو جزء منه بصيغة خطاب الغائب أو الشخص الثالث: (إنهم) (لهم) (مثلهم) (له) (يدعوك) (يحاولون).. إلخ، ولم يضع الوردي نفسه – ولو لمرّة واحدة – في إطار المجتمع الذي يدرسه من خلال استخدام ضمير الـ(نحن).

إنّ وقفة الباحث على تلّة الملاحظات العملية من شروط البحث العلمي المحكم لكنها بـ(برودتها الساخرة المتشفّية) تكون غطاءً للعدوان والانحياز.

لقد وصل الأمر بالوردي إلى حدّ أن يسفّه ويخطّئ أيّ رأي إيجابيّ يطرحه باحث عربي أو أجنبي في الشخصية العراقية أو في سلوك الشعب العراقي. لقد عدّ رسالة الفيلسوف (أرسطو) إلى تلميذه (الإسكندر) الذي طلب منه النصح في كيفية التعامل مع شعب العراق الصعب القياد، عدّها أكذوبة.

وانظر إليه كيف يردّ على الدكتور (عبد العزيز نوار) الذي نشر آنذاك مقالاً في مجلة (الهلال) المصرية يقول فيه إنّ وقفة

---

(١) من وحي الثمانين. مصدر سابق.

العراقيين من أهل بغداد دفاعاً عن (داود باشا)[1] وضد القوات العثمانية التي كان يقودها (علي رضا) والتي أرسلها السلطان محمود الثاني لطرد الوالي المصلح داود باشا في عام ١٨٣١ كانت لأنهم كانوا يحسون بدافع وطني ويشعرون بحقهم في اختيار الوالي الجديد بحكمهم. ويعلّق الوردي على هذا الرأي قائلاً: «إنّ من يقرأ هذا الرأي الذي جاء به الدكتور (نوار) يخيل له أن أهل بغداد في تلك الأيام كانوا يحملون وعياً وطنياً ناضجاً، وأنهم حين شهروا السلاح ضد جيش السلطان إنما كانوا يدافعون عن حقهم في

---

(١) ولد الوالي المملوكي داود باشا في العام ١٧٦٧ وتوفي في العام ١٨٣١، وقد حكم بغداد للفترة (١٨١٦- ١٨٣١) وكان له دور كبير في العديد من الإنجازات التحديثية في تاريخ العراق الحديث، منها جورنا عراق (جريدة العراق)، إلا أن الوالي العثماني الآخر مدحت باشا تفوق عليه في هذا الجانب. في عهده /سنة ١٤٢١هـ/١٨٢٨م وقعت حادثة المناخور حيث حاصرت قواته بقيادة أمير خيالته (سليمان ميراخور) حيث حاصرها واستباح حماها لمدة ٨ أشهر. عندما بدأت الدولة العثمانية بالانهيار واستقل كل والٍ بولايته ومنهم والي العراق داود باشا حيث دعا الناس لبيعته فخضعت مدن العراق جميعاً لطاعته ما عدا الحلة وكربلاء فأرسل جيشاً كبيراً ودخل الحلة ثم توجه إلى كربلاء سنة ١٢٤١هـ فلم يستطع دخولها لأنها كانت محصنة بسور محكم ومتين وحاول مراراً فلم يفلح وقد حاصرها أربع سنوات من ١٢٤٢هـ إلى ١٢٤٥هـ ومع ذلك بقيت المدينة صامدة فقام بقطع الماء والمؤونة عنها فاضطر سكان المدينة إلى إبرام معاهدة صلح فيما بينهم وبين الوالي داود باشا وبذلك سلمت المدينة والمراقد المقدسة من الدمار وسميت هذه الواقعة بواقعة المناخور.

تقرير مصيرهم تجاه تعسّف الحكم العثماني، في رأيي أن معارك عام ١٨٣١ لم تكن تختلف من حيث محتواها الاجتماعي عن معارك المحلات التي زخر بها تاريخ بغداد في عهد المماليك، كل ما هنالك من فرق هو أن أهل بغداد في المعارك الأخيرة كانوا جبهة واحدة ضد جيش السلطان بينما كانوا في معاركهم السابقة يقاتل بعضهم بعضاً، ولكننا يجب أن لا ننسى أنهم في جميع معاركهم – الأولى والأخيرة – كانوا يندفعون في القتال من جراء انتفاضة غوغائية يقودها رؤساء المحلات أو أشقياؤهم دون أن يعرفوا السبب الحقيقي الذي يختفي وراء حركتهم»[1]. ولا يطرح الوردي أيّ سبب لوقوف أهل بغداد جبهة واحدة ضد جيش السلطان بينما كانوا في معاركهم السابقة يقاتل بعضهم بعضاً؟.

إنني – ولكي أثبت أن المؤلف لا يموت، وأنّ ما قدّمه الوردي من أطروحات جليلة خلقت تأثيراً هائلاً في مسار البنية المعرفيّة والريادة التنويرية، والإرهاصات التنويرية في المجتمع العراقي، لم يأت من (فوق)، من (الخارج)، بل بزغ من (الداخل)، من الذات الفردية التي لونت بإسقاطاتها صفحات توصيفه لتمزّقات المجتمع العراقي، وأنّ (ازدواجية) الوردي الصغيرة قد انتفخت من خلال ضخامة موضوع البحث أولاً ومن خلال الاتساع الذي تمنحه المحاولة لنرجسية الباحث المشروخة؛ ثانياً قد اتسعت لتصبح

---

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث – د. علي الوردي. الجزء الأول. مطبعة الإرشاد. بغداد – ١٩٦٩.

(ازدواجية) شعب كامل.

سنستعيد هنا بعض الأمثلة التي تثبت استنتاجاتنا والتي طرحناها عامدين في لقائنا الأستاذ (سلام الشمّاع):

- لقد بدأ الوردي شاعراً، وكتب مسرحية شعرية عن «مجنون ليلى» مثّلها الفنان الكبير(جعفر السعدي)، ثم إذا به يصدر كتابه (أسطورة الأدب الرفيع) الذي يذّم فيه الشعر العربي القديم بمراحله كافة. وكان يعيب على الدولة ومؤسساتها الثقافية إصدار الدواوين الشعرية القديمة وعدم اهتمامها بالمنشورات العلمية، ولكن الملاحظة الهامة التي تنسف (تظاهر) الوردي برفضه للشعر وللعقلية الشعرية في محاكمة الظواهر هو أنه ظل مثابراً على الاستعانة بأبيات الشعر لإسناد آرائه وتخليصه من الإطالة والإعادة التي هي سمة من سمات أسلوبه وتعزيز تأثير آرائه في المتلقي.

انظر إليه وهو في الثمانين من عمره يتحدث عن يأسه من الحياة، وأن الدود هو الذي سيأكل الناس جميعاً فيقول: «إن الإنسان ينبغي أن يردّد مع نفسه دائماً قول الشاعر العربي القديم (وهو لبيد بن ربيعة بن مالك العامري):

ألا كل شيءٍ . ما خلا الله . باطلُ وكل نعيم – لا محالةَ – زائلُ

ثم يتحدث، وهو في الثمانين، وبعد أن أشبع الشعر القديم نقداً، وتسفيهاً، عن (وهم السعادة) فيقول: «ربّ شخص تحيط به أسباب

السعادة ظاهراً ولكنّه يشعر بالنكد والألم من أعماق نفسه، وربّ شخص تحيط به أسباب البؤس في الظاهر ولكنّه في أعماق نفسه راضٍ، يحمد الله على نعمه، يقول الشاعر العربي القديم:

كلّ من تلقاه يشكو دهرهُ ليت شعري -- هذه الدنيا لمن؟!

وقد أمعن الوردي في ذمّ الغناء العراقي عموماً، وفنّ المقام خصوصاً، وعدّه بكائية لا تستوعبها المجتمعات المتحضرة، وقد ألقى الحادثة التي كان هو بطلها على عاتق (آخر) كما يقول (سلام الشمّاع).. وكان يطلب من ابنه (وهو ما قرّره الدكتور حسّان) أن يرسل له أسطوانات قارئ المقام الشهير (رشيد القندرجي).. أضف إلى ذلك أنه كانت تربطه بالمطربة الشهيرة (عفيفة إسكندر) صلة وثيقة.. ولدى (سلام الشماع) صورة فوتوغرافية تقبل فيها عفيفة الوردي على وجنته.. كما أن الوردي كان يدندن المقام مع نفسه في أوقات خلواته أو مع المقربين منه. ولم يكن يتردّد في الاستعانة بأبيات من أغنيات معروفة لإسناد آرائه في المقابلات. كما كان يفعل مع الشعر.

ففي المقابلة التي أجرتها معه صحيفة (قرندل) نقل له الصحفي الذي أجرى الحوار اتهامات بعض الشخصيات الثقافيّة له ابتسم وقال:

- أنا لا أقول فيهم شيئاً، ولكلّ واحد وجهة نظره فيّ..

ثم استعان بمطلع أغنية للفنانة (عفيفة إسكندر) يقول: «خلّهم

يكولون خلهم»[1].

وفي اللقاء القصير الذي أجرته معه صحيفة «القادسية» ونشر على صفحتها الأخيرة، سأله الصحفي عن أحب أغنية عراقية إلى قلبه، فأجاب: «إلمن أروحن واشتكي. مليان كل قلبي حكي»[2]، وهناك صورة نشرتها صحيفة (الثورة) له وهو يجلس بجوار الفنانة (عفيفة إسكندر) في إحدى الحفلات الغنائية.

كتب الوردي وتحدث كثيراً عن مرض الوسواس الذي نسميّه علمياً اضطراب الأفكار التسلطية والأفعال القسّرية Obsessive Compulsive Disorder – ثم ظهر أنه عانى منه كثيراً وراجع بسببه أحد أطباء الأمراض النفسيّة، وقد بقي شيء من هذا المرض في سلوك الوردي، كما كان يقول الوردي نفسه، بالرغم من أنه قد أشار أيضاً إلى أنّه قد تخفف منه بعد أن ذهب إلى أمريكا للدراسة؛ فما الذي حصل في أمريكا لكي يخفف من المرض؟ يحتمل أنه راجع طبيباً للأمراض النفسية فساعده على الشفاء، لكن الأهم هو ما هي الأعراض التي كان يعاني منها قبل سفره إلى الولايات المتحدة والتي تضاءلت بعد وصوله إليها؟ إنّ الاحتمال الأكثر رجحاناً هو أنه كان يعاني من وساوس وأفعال قسرية تتعلق بالنظافة وتحديداً نظافة اليدين بعد الأفعال الإخراجية (وظائف التواليت) وهو اضطراب معروف في الطب

---

(١) من وحي الثمانين. مصدر سابق.

(٢) جريدة (القادسية). ٧/آب/١٩٩٢.

النفسي حيث تتسلط فكرة – يعرف الفرد أنها سخيفة لكنه لا يستطيع مقاومتها – أن يديه قذرتان حتى لو غسلهما مئات المرّات بالماء والصابون. وحين لا يطيّع الفكرة التي تلح على ذهنه يصاب الشخص بقلق شديد. وهناك الكثير من الأدلة على ذلك منها أنه قد أصابته الدهشة وهو يرى الأمريكان يستخدمون المناديل الورقية لتنظيف أعضائهم بدلاً من الغسل بالماء، ومنها أيضاً أنه كان يؤكد – وهو يتحدث عن مرض الوسواس – على قضية التبرّز بصورة مفرطة، تاركاً المظاهر الكثيرة لهذا المرض، فعلى سبيل المثال، وفي لقاء من ثلاث حلقات نُشر في جريدة (الجمهورية) عام ١٩٩١، كان أغلب حديثه عن هذا الموضوع، قال الوردي ردّاً على سؤال (هل أصيب بالوسوسة وكيف تخلص منها وهل يستطيع المصابون التخلص منها مثله؟): «يجب أن لا ننسى أن هناك ظروفاً ساعدتني على التخلص منها. فقد أتيح لي أن أسافر إلى الخارج، كما أتيح لي أن أطلّع على ما ورد في المصادر العلمية عن الوسوسة وأن أستشير الأطباء النفسيين عنه؛ أضف إلى ذلك أني في أواسط عمري شعرت بشيء من النفور من القيود الفقهية المتزمتة واتجهت نحو التحرّر الصوفي على وجه من الوجوه... أعرف بعض أقراني من الذين نشأوا في مثل بيئتي المحلية وابتلوا بالوسوسة ثم استفحلت فيهم بمرور الزمن، فهم لم تتح لهم الظروف التي أتيحت لي، أو هم بالأحرى عاشوا تحت وطأة القيود الفقهية المتزمتة وصاروا يقضون معظم وقتهم فيما لا جدوى فيه»[1]، ثم يتحدث عن سبب شيوع هذا

---

(١) جريدة (الجمهورية) – ١٧/آب/١٩٩١.

الاضطراب في البيئة التي نشأ فيها وفي جميع البيئات التي كانت تشبهها في وضعها الثقافي والاجتماعي – ينسى الوردي أنّ هذا المرض موجود في المجتمعات الغربية بنسبة (٢ – ٣٪) من مجموع السكان؛ وهو المرض النفسي الرابع من حيث الانتشار في أوربا بعد الرهاب والإدمان والكآبة – فيقول: «من الممكن أن نعزو السبب في ذلك إلى كثرة التفاصيل المذكورة في الكتب الفقهية في أمور الطهارة والنجاسة والوضوء وما أشبه، فهي تفاصيل تجعل الكثير من الناس يحاولون الالتزام بها بدافع الحرص على القيام بالشعائر الدينية كما ينبغي، وإذا كان الفرد بينهم لديه استعداد وراثي للوسوسة فإنه لابدّ أن يصاب بها قليلاً أو كثيراً»[1].

ثم يضرب مثلاً على التعقيد الذي قام به الفقهاء في الطقوس الدينية فيأتي بمثال في مجال الوظائف الإخراجية؛ فيقول: «دعني أقدم لك مثلاً بسيطاً على ما فعله بعض فقهائنا من تعقيد في أمور الطهارة والنجاسة. فالمعروف عن المسلمين الأوائل أنهم كانوا يستنجون بالأحجار عند التغوط في بعض الأحيان. ولكن بعض فقهائنا لا يجيزون الاستنجاء بالورق وهي الطريقة السائدة الآن في البلاد المتقدمة، وقد أدى ذلك إلى كثير من العنت والأذى لدى الموسوسين من المسلمين الذين يسافرون إلى الخارج، فترى الواحد منهم إذا دخل مرحاضاً أجنبياً عمد إلى الاستنجاء بالماء فيه مما يؤدي إلى تقذير المرحاض وإلى إثارة التذمّر والتقزز لدى أصحاب

---

(١) المصدر السابق نفسه.

المسكن الذي يقيم فيه»[1]. ثم يتحول إلى الحديث عن تطرق المؤلفين المسلمين القدامى إلى هذا المرض فيشير إلى كتاب «ذم الوسوسة» الذي ألفّه «ابن قدامة المقدسي»[2] في القرن السادس الهجري وينقل نبذة من مقدمة هذا الكتاب فتأتي مركّزة بنحو كبير على النجاسة والأعضاء التناسلية حيث يقول المقدسي: «إنّ من الموسوسين من يغسل عضوه غسلاً يشاهده ببصره وينكره.. وذلك أنه يصدّق الشيطان في إنكار يقين نفسه.. ومن انتهت طاعته لإبليس إلى هذا الحدّ فقد بلغ النهاية في طاعته، ثم أنه يقبل قوله في تعذيب نفسه ويطيعه في الأضرار بجسده وتكرار الغوص في الماء البارد، وتارة بكثرة استعماله، وربما فتح عينيه وغسل داخلها حتى يضرّ ببصره، وربما أفضى إلى كشف عورته للناس، وربما صار إلى حالة يسخر منه الصبيان ويستهزئ به من يراه»[3].

وبالمناسبة فإننا حين نراجع الكتب الفقهية فإننا سنجد تركيزها الأكبر على النجاسة والطهارة والقذارة والنظافة وهذا

---

(١) جريدة (الجمهورية) – ١٧/آب/١٩٩١.

(٢) ابن قدامة المقدسي: هو الإمام العلامة المجتهد موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدّامة بن نصر المقدسي الجمّاعيلي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي. ولد بجمّاعيل إحدى قرى مدينة نابلس سنة ٥٤١هـ، في أسرة عُرفت بالعلم والصلاح. هاجر مع أهل بيته وأقاربه إلى دمشق وله عشر سنين. توفي يوم الفطر سنة ٦٢٠هـ ودفن بجبل قاسيون خلف الجامع المظفري، وقد شيعّته دمشق بجنازة حافلة خاشعة.

(٣) جريدة (الجمهورية) – ١٧/آب/١٩٩١.

يؤيد رأي معلّم فيينا (فرويد)[1] في أنّ الشعور المتأصل بالذنب لدى الإنسان – الإنسان حيوان مذنب – ونزوعه إلى التكفير هو العامل الرئيس في نشوء الأديان وطقوس العبادات. ولعلّنا حين نشاهد طقوس الأفراد مفرطي التديّن في التطهر والخوف من النجاسة نتذكر المثل الشعبي القائل: «ضمير المؤمن صاحي وضمير الحقير ميت».

ويمكننا القول: «إنّ الطقس يمثل جملة الشروط التي تبقى فيها أشياء أخرى – غير محرّمة بعد تحريماً تاماً – مسموحاً بها تماماً. كما أن معنى طقس الزواج الديني هو السماح للشخص الورع بالمتعة الجنسية التي تصبح في غير هذه الحال ملطخة بالخطيئة. وعندما نقول إن قمع بعض الدوافع الغريزية ونكرانها يشكّل جانباً من الأساس الذي قامت عليه الممارسة الدينية، فإن هذا لا يعني أنّ هذه الدوافع جنسية خالصة كما في العصاب، وإنّما هي غرائز أنانية ضارة بالمجتمع علماً بأن المساهمة الجنسية في أغلب الأحيان ليست مستبعدة. ولقد اعتدنا أن نعزو الشعور بالذنب المنبثق عن إغواء لا تنطفئ جذوته أبداً والحصر المرتقب في شكل خوف من القصاص الإلهي، اعتدنا أن نعزوها إلى مضمار الدين قبل أن

(١) سيغموند فرويد (٦أيار ١٨٥٦- ٢٣أيلول ١٩٣٩): ولد في النمسا من أبوين يهوديين استقر أجدادهم بمنطقة فراييرغ بعد أن فروا من ملاحقة اليهود في كولن، ورغم أنه صار لاحقاً ملحداً لكنه كان يؤكد أهمية الديانة اليهودية في تكوينه. عاش في فيينا قرابة ثمانين عاماً.

نعزوها إلى العصاب، ويبقى قمع الغرائز في مضمار الحياة الدينية ناقصاً وغير مكتمل أبداً؛ ربّما بسبب المركبات الجنسية المختلطة بها، وربّما بحكم الصفات العامة للغريزة، بل إن الانتكاسات الشاملة والعودة إلى ارتكاب الخطيئة أكثر تواتراً لدى الشخص الورع مما لدى الشخص المعصوب، وهي تشترط نوعاً جديداً من النشاطات الروحية: أفعال الندامة والتوبة التي لا يعسر علينا أن نجد نظائر لها في العصاب، وبنحو خاص العصاب الوسواسي»[1].

المهم أنّ الوردي – وحسب شهادة سلام الشمّاع – دخل في أحد المجالس نقاشاً طويلاً لمدة ساعتين عن النجاسة والطهارة والاستنجاء بالحجارة[2].

ومن الولايات المتحدة يقوم الوردي بتسجيل أسطوانات يرسلها إلى أولاده في بغداد يطلب منهم عدم التبرّز في الشارع، كما ذكر لنا ذلك – سلام الشماع – وهذا جانب من ألعاب اللاّ شعور حيث المبرر الظاهر لتصرف الوردي الغريب الذي كان أولاده بشهادة ولده حسّان يضحكون منه، هو الحرص على صحة أولاده في حين أن السبب الباطن هو القلق الذي تعاني منه الشخصيّة الوسواسيّة (التسلطية الإلزامية) المنهمّة بالمعاني والصراعات الرمزية للوظائف الإخراجية، هذه الشخصية التي يحمل الوردي من سماتها الكثير؛

---

(١) إبليس في التحليل النفسي – سيمغوند فرويد – ترجمة جورج طرابيشي – دار الطليعة. بيروت. ط/١/ - ١٩٨٠.

(٢) مجلة (إنّ) – العدد ٣ - ٢٤/حزيران/٢٠٠٣ – ص١٤ - ١٥.

على الرغم من أننا يجب أن نضع في أذهاننا أنّ «سمات الشخصية هي من الصفات الظاهرة للشخصية، وهي في مجموعها لا يمكن أن تتساوى مع الواقع الفعلي للشخصية والذي يشمل إلى جانب ظواهر الشخصية جميع الإمكانيات التي لا يستطيع الفرد التعبير عنها في الظاهر، أو التي يحتفظ لنفسه بها لسبب أو لآخر أو التي لا يعرفها عن نفسه، وتظل لذلك كامنة خفية عليه وعلى الغير، كما أنها تشمل الإمكانيات التي لابدّ من توفر الظروف الملائمة لإظهارها»[1] ولعل هذا يذكرنا بقول لـ«الفونس كار» يقول فيه: «لكل إنسان ثلاث شخصيات: تلك التي يعرفها، وتلك التي هو عليها، وتلك التي يظن بأنها له». وآخر لـ«ديستويفسكي»[2] يقول فيه: «لكل إنسان أمور لا يفضي بها لأحد إلاّ لأصدقائه، وله أمور أخرى في ذهنه لا يظهرها لأصدقائه وإنما لنفسه، وحتى بالسّر، غير أنّ هنالك أشياء أخرى يخاف الإنسان أن يفضي بها حتى

---

(١) النفس – انفعالاتها وأمراضها وعلاجها. د. علي كمال – دار واسط – لندن – ط/٢/ - ١٩٨٣.

(٢) ديستوفسكي: (١٨٢١- ١٨٨١م): أحد أكبر الكتّاب الروس ومن أفضل الكتّاب العالميين، وأعماله كان له لها أثر عميق ودائم على أدب القرن العشرين. ولد مديناً، وعاش مديناً، ومات مديناً. سيرته مليئة بالحزن والبؤس والفقر. عانى من مرض (الصرع) وتوفي به. يعد من أفضل من غاص في أعمال النفس البشرية، وكشف عن جوانبها المظلمة، إلى درجة أن عالم النفس (فرويد) قال: «تعلمت سلوك النفس البشرية من روايات ديستوفسكي». من أعماله: الجريمة والعقاب، الأخوة كارمازوف، الأبله، ومذلون مهانون.

لنفسه، ولكل إنسان مثل هذه الأشياء مخزونة في ذهنه».

«وعلى ذلك فإن ما يظهر من سمات الشخصية على اختلافها وتعددها ما هو إلاّ بعض جوانب الشخصية، وأن الأجزاء الأخرى وربما الأهم، مخفية عن الظهور، وأنّ ما من ضمانة في أن يكون الظاهر من سمات الشخصية دليلاً صادقاً على ما تبقى منها متستراً عن الظهور. وهذه النظرة المتكاملة لخصائص الشخصية، تجعل من الصعب، إن لم يكن من المتعذر، التوصل إلى الفهم الكامل لشخصية أيّ إنسان، مهما بدا واضحاً أو محدداً في سمات شخصيته»[1].

إنّ من سمات هذه الشخصية هو أنّها شخصية تميل إلى العناد والحفاظ على الثبات في التفكير والسلوكات. ولعلّ أهم ما يميز النشاط الفكري للوردي هو أنّه يقوم على مرتكزات ثابتة تمسك بها بـ«عناد» عقوداً طويلة بإصرار عجيب يلفت الانتباه على الرغم من أنّ حركة الحياة قد قدمت معطيات تجاوزت الكثير منها وكان للوردي أن يضعها في اعتبار تحليلاته ووجهات نظره. اقرأ أفكار الوردي التي طرحها في كتبه: شخصية الفرد العراقي، مهزلة العقل البشري، أسطورة الأدب الرفيع، وعاظ السلاطين، لمحات من تاريخ العراق الحديث بأجزائه الثمانية، الأحلام بين العلم والعقيدة، خوارق اللا شعور، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، منطق ابن خلدون.. التي أصدرها في الخمسينات

---

(١) المصدر السابق.

والستينات، ثم اقرأ مقالاته عن القيم البغدادية التي نشرها في صحيفة (الجمهورية) على شكل حلقات.. وراجع كتاب – سلام الشمّاع – (من وحي الثمانين) الذي تحدث فيه وهو في تسعينات القرن العشرين – في الثمانين من عمره – فستجد الأفكار نفسها لا يحيد عنها قيد أنملة، فهل يعقل أن الحياة في المجتمع العراقي لم تتغير أبداً خلال نصف قرن تقريباً، نصف قرن شهد انتفاضات وانقلابات وثورات وحروباً كونية وتنميات انفجارية...إلخ؟.

ومن سمات هذه الشخصية أيضاً هي سمة التكرار والإعادة، وقد اعترف الوردي بذلك مراراً وأشار إلى أن التسمية التي أطلقها عليه بعضهم: «الدكتور صاقول» هو وصف حقيقي لأنه، فعلاً يعيد، ويصقل الأفكار نفسها التي طرحها منذ الخمسينات. وهي أيضاً شخصية تهتم كثيراً بالتفاصيل إلى حدّ الإفراط، وهذا ما يتضح بصورة جليّة في أسلوب الوردي السردي الذي يصل، أحياناً، إلى حدّ الإملال، وبالمناسبة فإن هذا الأسلوب السردي يتعارض، في كثير من الأحوال، مع الأسلوب العلمي الذي يميل إلى التكثيف والتركيز والتخلّص من التفصيلات غير الضرورية.

ومن السمات الأخرى في هذه الشخصية، وهي عموماً سمة عصابيّة، هو أنها تصنع من الحبّة قبّة، وتؤسس نتائج هائلة على أساس ركائز بسيطة لا تتحمل ثقل البناء الاستنتاجي الضخم. فلكي يفسّر الوردي مبدأ الشفاعة الراسخ في حياة المجتمع العراقي فإنّه يأتي بحادثة بسيطة فيسفّه بها «تحليلياً» داسّاً السمّ

في العسل وهي طريقة عدوانية هادئة – وأرجو التفريق بين العنف Violence الذي يتضمن الاستخدام الماديّ للقوّة لإلحاق الأذى بالآخر وبين العدوان Aggression الذي هو مفهوم أوسع في علم النفس ويعني أيّ شكل من أشكال السلوك الذي يهدف إلى إيذاء الغير أو الذات أو إلى ما يرمز إليهما، أي أن العنف هو جزء من العدوان. وللعدوان صور عدّة منها العدوان عن طريق العنف الجسدي، والعدوان باللفظ، بالكيد والإيقاع والتشهير والتنابز والمشي بنميم. وقد يتخذ العدوان أشكالاً أخرى كإسراف الوالد في مطالبه ونواهيه، وتضييق المعلم على طلابه بإفراطه في النقد والتهديد وطلب النظام، أو يبدو العدوان في الغمز والتندّر حين تتم النكتة اللاذعة عن عداء دفين، بل إنّ الإهمال والاستخفاف بشخص أو بشيء قد يكون ضرباً من العدوان الشديد.. وكذلك، الحسد وهو تمنّي زوال النعمة عن الغير.. وقد يكون العدوان موجهاً نحو مصدر العدوان والإحباط بصورة مباشرة أو «مزاحاً – Displaced» نحو كبش فداء Scapegoat لا ذنب له» أو مرتداً إلى الذات.

أقول استخدم الوردي الحادثة التالية: «إنّ أهل الريف في حاجة إلى قبور مقدّسة لكي يلجأوا إليها في شفاء أمراضهم وحلّ مشاكلهم، وهذه الحاجة تؤدي إلى ظهور القبور المقدّسة بينهم على أيّ حال، حسب المبدأ القائل: «الحاجة أم الاختراع، وهناك قصّة يتناقلها أهل العراق، وقد يذكرونها في مجال النكتة، وخلاصتها

أنّ رجلين، في إحدى النواحي الريفية، عثرا على جثة حمار ميت فدفناه وأقاما عليه قبّة، وصارا سادنين لها، فصار أهل الريف يقصدونها للتبرك، وينذرون لها النذور ويحلفون بها، وحدث ذات مرّة أن تخاصم السادنان، فاندفع أحدهما يحلف بصاحب القبّة، فقال له زميله متعجباً: ألسنا نحن الذين دفنّاه بأيدينا؟»[1]. ومن المؤكد أن المؤرخ الذي يرى أن ظاهرة الشفاعة تقوم على أساس مبدأ أنّ «الحاجة أم الاختراع» والذي يلمح إلى أن القباب يمكن أن تبنى على أيّ شيء كحمار ميت مثلاً، لا يمتلك الرؤية الكافية التي تعينه على الإمساك بجذور هذه الظاهرة الخطرة؟

ويساند الباحث (محمد مبارك) في كتابه: «محاولة في فهم شخصية الفرد العراقي» الوردي في رأيه هذا وفي سخريته واستخفافه بظاهرة الشفاعة حيث يقول: «ولعلّ مبدأ الشفاعة – على ما يذكر علامتنا الدكتور علي الوردي – الذي نتشبث به، يندرج في هذا الإطار أيضاً (...) فهي صفقة في تجارة وجولة في مغالبة قد يربحها الشاطر الفهلوي أمام السماء، كما ربح صفقته وجولته في الأرض ولم لا، والدنيا – منذ البدء، لا تؤخذ إلاّ غلابا! فلم لا تكون الآخرة كذلك؟»[2].

---

(١) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي – د. علي الوردي – مطبعة العاني – بغداد – ١٩٦٥.

(٢) محاولة في فهم شخصية الفرد العراقي – محمد مبارك – منشورات البزاز – لندن – ١٩٩٤.

وفي مخطوطة كتابي: «محاولة في تحليل الشخصية العراقية – الجزء الأول). والذي سيصدر بعد وفاة الكاتب إن شاء الله حسب العبارة التي كان الوردي يثبتها في خاتمة كتبه – قدّمنا ردّاً شافياً وافياً على الوردي ومبارك في تقصي جذور ظاهرة الشفاعة في العراق والتي تعود إلى آلاف السنين نقلنا – مثلاً:

«صحيح أنه كان للعراقي آلهته الكبار (أنو، إنليل، أنكي/ أيا، عشتار...إلخ) إلاّ أنه كان ينظر إليها – كما يقول (جاكوبسن) كقوى نائية ليس له أن يتضرع إليها إلاّ في الشديد من الأزمات، ولا يفعل ذلك إلاّ عن طريق الوسطاء، أمّا العلاقات الشخصية الوثيقة – كعلاقة الفرد بالسلطات التي في عائلته من أب وأم وأخ وأخت أكبر منه – فلا توجد إلاّ بينه وبين إله واحد فقط – إلهه الشخصي)[1] «وقد كان لكل عراقي قديم إلهه الشخصي ينصب له تمثالاً صغيراً في (محراب) صغير في بيته – لاحظ المحاريب الصغيرة (الروازين) التي كانت تحفل بها البيوت العراقية القديمة في الكاظمية ومدن الجنوب وبيوت الطين في الأرياف والأهوار، ولم يكن الملك فقط يفتخر بأنه ابن الإله أو لعدّة آلهة بل أصبح كل إنسان ابناً لإلهه الذي يشفع له ويرعاه ويرعى شؤون عائلته في السرّاء والضرّاء، أي أنه كان لدى العراقيين القدماء (شفعاء) في كل بيت بعدد أفراد العائلة.

---

(١) ما قبل الفلسفة. فرانكفورت وآخرون – ترجمة جبرا إبراهيم جبرا – دار مكتبة الحياة – فرع بغداد – ١٩٦٠.

يعمل العراقي للتقرّب منهم ليرعوهم ويمدوهم بالنعمة الوافرة من ناحية، وبالعمر الطويل وما يتضمنه ذلك من حصانة ضد المرض والموت من ناحية أخرى. وتعكس الأسماء الشخصية الظهور الطارئ لفكرة الإله الحامي للإنسان وتجعل هذه الفكرة؛ الإنسان الذي كرّس نفسه للإله الشخصي يسرع إلى أن ينفذ الأسماء التي كانت ترمز إلى الحماية يوفرها أحد الآلهة الكبار. وهو يفعل ذلك تفضيلاً لإلهه الخاص به.

إنه قد يختار إلهاً آخر وذلك حسبما تقرّره الحاجة. كما أنه قد يختار اسماً مثل (إلهي ملاذي) أو (إلهي اصغ إليّ) أو (إلهي هو أبي) أو (الإنسان لإلهه)[1] وقد تكون هذه التسميات، مع تحوير تفرضه طبيعة وتركيب الديانة الإسلامية، محكومة بالدوافع نفسها التي جعلت قسماً من المسلمين يسمّون بـ: عبد الرحمن، مال الله، مجيب الرحمن، عبد الله...إلخ أو بعض التسميات المرتبطة بشفعاء الشيعة مثل: عبد علي، عبد الزهرة (أي الزهراء)، عبد العباس..إلخ، ويشيع ذلك في القسم الجنوبي من العراق – المهاد السومري الذي احتضن المد الإسلامي – بنحو خاص، وقد حاول بعض الباحثين تفسير سرّ خوف عراقيي الجنوب بنحو خاص من القسم بالأولياء الشفعاء أكثر من خوفهم من القسم بالله وبنحو خاص الخوف من الإمام (العباس بن علي) – وقد ذكر ذلك الوردي نفسه أيضاً – وكيف يعقدون راية العباس مثلاً للحصول على هدنة لا يمكن

(١) المصدر السابق نفسه.

خرقها في خلافاتهم العشائرية، فبيّن بأنهم، أي العراقيين، يخشون ردّة فعل بشرية مشخّصة أكثر من ردة فعل قوة مجرّدة حيث يسقط الفرد نوازعه العدوانية وقسوته على الشفيع الإنسان والحقّ هو أن الميل لتشخيص الإله على صورة البشر هو ديدن العراقي القديم، وبذلك يكون الشفيع إلهاً (شخصاً) حاضر الفعل والإرادة وسريع البطش مثل ردّ فعل أيّ فرد بشري، إنّ الشفيع هنا هو الإله الشخصي الحامي القريب وليس الإله المجرد المتعالي البعيد، ومازال (التشخيص) واحداً من أهم امتدادات الذهنية الأسطورية في العقلية العراقية الحاضرة، ثمّ ما هي المصالح والصفقات والتجارة وجولة المغالبة التي يتحدث عنها (محمد مبارك) والتي تسيطر على سلوك مواطن يسكن كوخاً طافياً في أقصى الأهوار يقطع مئات الكيلومترات ليصل إلى شفيعه، ولأنّ تحليل الأعمال الأدبية يعد من طرق دراسة الشخصية القومية، فإنني أدعو الباحثين ممن يستهينون بظاهرة الشفاعة وبارتباط المواطن العراقي بشفيعه إلى قراءة تحليلنا لقصّة (الشفيع) للمبدع العراقي (محمد خضير) من مجموعته القصصية (المملكة السوداء) ليتلمسوا انعكاسات هذه الظاهرة النفسية والاجتماعية حتى على المبدع نفسه.

إنّ هذه المداخلة التحليلية التي قدمتها لظاهرة الشفاعة وهي طويلة نسبياً لا تعني أنني من أنصار هذه الظاهرة، بل هي محاولة لإظهار الكيفية التي تتدخل فيها سمات شخصية الوردي في تشكيل تحليلاته واستنتاجاته الفكرية، فكثيراً ما يبني الوردي

جبلاً من الاستنتاجات الفكرية من حبّة بسيطة من حبّات الوقائع التاريخية، وتزدحم كتب الوردي بحوادث وحكايات عن الحمير والسكيرين والأشقياء والعجائز وذكريات المسنين والنوادر ليدعم أفكاره أو لينطلق منها لإقامة تصورات واسعة سلبية تشمل شخصية شعب بأكمله.

إنّ من المعضلات الأساس التي تواجهنا ونحن ندرس العلاّمة الوردي هو أنه لم يكن يعد نفسه عنصراً من «العينة – Sample» التي درسها وحلّل طباعها وشخّصها وهو الشعب العراقي، ولا أقصد بطبيعة الحال أن الوردي لم يكن يحسب نفسه عراقياً فهذه سذاجة ما بعدها سذاجة، ولكنني أقصد، وعلى وفق مفاهيم علم الاجتماع، أنّ الوردي، شاء أم أبى، هو جزء من الموضوع الذي درسه، وهذا الأمر الحساس سوف يضعنا في قلب دائرة إشكالية أكبر تتعلق بصلة الذاتي بالموضوعي ليس في علم الاجتماع حسب، بل في العلوم الإنسانية عامة.

فقد انقسم المختصون حول هذه المعضلة إلى ثلاث مجموعات: الأولى ترى أن الغلبة في العلوم الإنسانية هي للعوامل الذاتية، في حين ترى الثانية العكس، أي أن الدور الحاسم هو للعوامل الموضوعية، أمّا الثالثة فقد حاولت الإمساك بالعصا من طرفيها بالقول بالتأثير المتوازن والتفاعلي لكلا الجانبين: الذاتي والموضوعي.

يمثـــل الجانـــب الأول العـــالم «فيلـــهلم دلتـــاي[1] Wilhelem Dilthay – (١٨٣٢- ١٩١١م) الذي أكد أنّ ظواهر الطبيعة غريبة عنّا ولذلك فإن إدراكها يتم عن طريق المعرفة العلمية بأسسها «الرياضية» المعروفة، في حين أن الأمور الإنسانية والظواهر الاجتماعية هي أمور ذاتية تدرك من الباطن، ولذا فالإنسان وعناصر المجتمع عنده من نمط واحد، وطالما أنّ الإنسان يعيش حياته الداخلية ويدرك نفسه من الباطن، فإنه يستطيع أن يتصوّر حياة الآخرين الداخلية، وأن يفهم حياة المجتمع من الباطن لأنه يشهد شبيه الظواهر الحيّة في نفسه، وفي نطاق التجارب النابضة يمارس الإنسان مثلها في حياته الداخلية، ويرى «دلتاي» أنّ المعرفة في العلوم الإنسانية تقوم على الفهم الذاتي، ولذا فهي واقعية فردية، في حين أن المعرفة في العلوم الطبيعيّة تقوم على التفسير الذي تعتمد فيه على الأسباب والتصوّرات المجردة. وبذلك تكون مهمة علم الاجتماع عنده متمثلة في البحث عن المعاني والصور الكلية للفعل والثقافة وفهمها»[2].

---

(١) فيلهلم دلتاي: فيلسوف ألماني (١٨٣٣- ١٩١١) درّس في برسلو وبرلين. بيّن في مؤلفه الأساس (المدخل إلى دراسة العلوم الإنسانية) أن نموذج العلم ذا النزعة الوضعية والطبيعية لا يطبق على العلوم الإنسانية التي ينبغي أن تكون قائمة على الفهم. من مؤلفاته: أفكار في علم النفس الوصفي والتحليلي، نظرية تصورات العالم (١٩١٠).

(٢) البناء الاجتماعي للشخصية في المجتمع العربي – د. نادية عمر الجولاني. مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية – ١٩٩٣.

ومن الأمور المهمة التي طرحها «دلتاي» والتي ترتبط بموقفنا من أطروحات الدكتور «علي الوردي» هي أن المعرفة الإنسانية تقوم على الفهم لا التفسير، في حين أن المعرفة في العلوم الطبيعية تقوم على التفسير لا على الفهم، وهو يؤكد هنا أنّ عناصر الموضوع في العلوم الطبيعية تأتينا من الخارج عن طريق الحواس، وبذلك يؤكد أن منهج المعرفة الذي يناسب العلوم الطبيعية هو التجريد والتحليل، ولهذا يتم التفسير في العلوم الطبيعية بالاعتماد على الأسباب والتصوّرات المجرّدة، وهذا هو الشكل الذي تأخذه الموضوعية في العلوم الطبيعية. وفي حين أن العلوم الإنسانية علوم فكرية، وهي على خلاف ذلك حيث تدرك موضوعها وتفهمه فوراً قبل أن تتهيأ لك معرفته العلمية، و«دلتاي» لا يرى أن هذا الفهم يتم عن طريق العقل والذكاء وحده، ولكنه يتم من خلال جميع قوى النفس الانفعالية أيضاً، وبذلك يكون الفهم مقترناً بميل أو نفور، حب أو بغض»[1].

أمّا الاتجاه الثاني المتميّز للموضوعية فإن أفضل من يمثله هما: «أوغست كونت» و«دوركهايم»[2] اللذين أكدا «شيئية» الظواهر الاجتماعية، شأنها في ذلك شأن بقية الظواهر الطبيعية، وهما

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) إميل دوركهايم: فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي وباحث في الأخلاق (؟ - ١٩١٧) يرى أن المجتمع أكثر من تجمع الأفراد بكثير، إنه موجود يفكر ويعمل على نحو مختلف تماماً عما يفعله أعضاؤه. من مؤلفاته: (الانتحار، دراسة في علم الاجتماع (١٨٩٧)، التربية وعلم الاجتماع (١٩٢٢)، الأشكال الأولية للحياة الدينية: النظام الطوطمي في أستراليا (١٩١٢).

يذهبان إلى أنه بتطبيق الإجراءات المنهجية العلمية في دراسة الظواهر الاجتماعية تطبيقاً صحيحاً، يمكن دراسة الحياة الاجتماعية ونظمها دراسة موضوعية، وهما ينطلقان من المفهوم الفلسفي التقليدي الذي يرى إمكان وجود الحقائق الواقعية أو المعرفة الخارجية المستقلة عن العقل الإنساني، أي عقل الملاحظ، وطبقاً لهذا الرأي المتعلق بموضوعية المعرفة، فإن هذه المعرفة قد توجد باعتبارها حقائق اجتماعية وتاريخية، ومن ثمّ يمكن للباحث أن يكشف عنها بواسطة البحث العلمي»[1].

أما الاتجاه الثالث الذي يزاوج الذاتية بالموضوعية فتمثله بأحسن صورة الفلسفة الظاهراتية كما صاغها: «هوسيرل»[2] والوجودية كما جاءت لدى «هيدغر»[3]

---

(١) البناء الاجتماعي للشخصية في المجتمع العربي – مصدر سابق.

(٢) إدمون هوسرل: فيلسوف ألماني (١٨٥٩ – ١٩٣٨) هو من مؤسسي الفينومينولوجية، يرى أن الوجود يجب أن يدرك في الظاهرة لأن الظاهرة هي الواقع الوحيد وهي لا موضوعية ولا ذاتية ولكنها قبل موضوعية وتقع في علاقة الشعور – العالم. مؤلفه الرئيسي هو: الأفكار الموجهة للفينومينولوجيا والفلسفة الفينومينولوجية (١٩١٣).

(٣) مارتن هيدغر (١٨٨٩- ١٩٧٦): أحد أكبر الفلاسفة الوجوديين على مرّ التاريخ. بل إن عبد الرحمن بدوي يرى – كما في موسوعته – أن هيدغر هو المؤسس الحقيقي للوجودية. إنه نوع من الفلاسفة الكبار الذين كوّنوا نسقاً فلسفياً مترابطاً يبحث في الوجود والحياة وهو أمر لم يتكرر كثيراً في القرن العشرين، حيث سيطرت الفلسفات الوضعية التي حاربت المذاهب الشمولية التأملية وعدّتها مذاهب فارغة لا تؤدي ألفاظها إلى نتائج عملية.=

و«كارل باسبرز»[1]. «فهوسيرل» يأخذ موقفاً وسطاً بين الذاتية والموضوعية، فهو يعترف بموضوعية العالم وقيامه قياماً سابقاً على معرفتنا له، ثم يذهب إلى أن مدخل الظاهرات «الفينومنولوجيا **Phenomenology**» لا يمكن أن يُفهم إلاّ على أساس ردّ العالم إلى الذات، فهذا الرّد عنده هو الذي يعطي للعالم معنى (عن طريق فعل الشعور)، فلا يكفي عنده أن يدرك الشعور العالم ماثلاً أمامه، بل لابدّ من أن يحاول إعطاءه معنى، ولن يتسنَ له هذا إلاّ بردّ العالم إليه»[2].

ولو افترضنا، على سبيل المثال، أننا كلفنا طبيباً مختصاً في التحليلات المختبرية المرضية أن يحسب لنا عدد كريات الدم البيض **Leukocytes** لمريض ما على شريحة موضوعة تحت عدسة الميكرسكوب (المجهر)، هل سينفعل لهذا الأمر؟ الجواب: لا، لكنه سينفعل لهذا الأمر في حالات استثنائية من بين أهمها أن

= وفي وقت القفزات العلمية الهائلة وخصوصاً في مجال الفيزياء الرياضية (النظرية النسبية، نظرية الكوانتم). صاغ هيدغر مذهبه المعني قبل أي شيء ببحث الوجود بما هو موجود متبعاً منهجاً شديد الصرامة، وأحياناً شديد الصعوبة.

(1) كارل باسبرز: طبيب نفسي، عالم نفس وفيلسوف ألماني (أولدنبرغ ١٨٨٣ – بال، سويسرا، ١٩٦٩) هو من أدخل سيكولوجيا الفهم والفينومينولوجيا في الطب النفسي كرد فعل ضد التيار ذي النـزعة العضوية. من مؤلفاته: علم النفس المرضي العام (١٩١٣).

(2) البناء الاجتماعي للشخصية في المجتمع العربي – مصدر سابق.

يكـون لديـه طفـل مـصاب بـسرطان الـدم (ابيـضاض الـدم – اللوكيميا **Leukemia**) وقد يسبب له هذا الانفعال إغفال العدد الحقيقي زيادةً أو نقصاناً. ولذلك لا يجوز لطبيب جرّاح أن يجـري عملية جراحية لولده، ولا لطبيب نفسي أن يعالج المرض النفسي لابنته.

وارتباطاً بالمثال السابق وهو من حقل العلوم الطبيعية، فإن أساليب الفهم عند «دلتاي» متمايزة عن أساليب العلم، فالفهم أساس عنده في تكوين المعنى الكامل عند دراسة لغة أجنبية أو دراسة ثقافة أجنبية أو فترة تاريخية، والتي تتكـون مـن خـلال تجميع بعض أجزاء الصورة الكلية التي توضح له معنـى الفعـل والثقافـة، إن الـشخص الـذي يريـد أن يـتعلم لغـة أجنبيـة، لـن يـستطيع أن يفهـم شـيئاً ولكـن عنـدما تتـضح لـه العلاقـة بـين الأشياء والواقع، وتتضح له الرموز اللفظية التي تعبّر عن هـذه الأشياء والمواقف بصورة تدريجيـة، فإنـه يـدرك معنـى الكـلام ويصير مفهوماً له، وبالمثل عند قيام عالم الاجتماع بدراسة ثقافة أجنبية أو فترة تاريخية، فإنه يعتمد على الفهـم بتجميـع أجـزاء الصورة الكلية التي توضح له معنـى الثقافـة والأفعـال. وبـذلك يذهب «دلتاي» إلى أن المهارات التي يحتاجها عالم التاريخ أقرب ما تكون إلى مهارات شاعر منها إلى مهارات العالم، وذلك لأن المنهج العلمي والمتمثل عنده في البحث عن القـوانين العامّـة، لا أهمية له في العلـوم الاجتماعيـة لأن القـوانين الـتي يبحـث عنهـا

ليست بذات أهمية في هذه العلوم»[1].

إنّ من يقوم بالدراسة والبحث في العلوم الطبيعية هو العالم – وهو الإنسان ولكن المادة المطروحة للدرس والبحث هي مادة جامدة لا ردود أفعال لها تجاه الباحث ولا تتواصل معه نفسياً. ولذلك لا توجد وشائج نفسية بين الباحث وبين مادة البحث (موضوعه)، ولكن في مجال العلوم الاجتماعية والنفسية خصوصاً والعلوم الإنسانية عموماً، فإن الباحث والمبحوث من مادة واحدة، فكل الظواهر التي تعالجها هذه العلوم ترتبط مباشرة بالإنسان الذي يشكّل مادة البحث الأساس، ومن المستحيل أن لا يجري (حوار) بين الباحث وموضوعه، حوار يتأسس عليه «إسقاطات» واستجابات ونقلات انفعالية بالغة التأثير، ففي حقيقة الأمر تنطلق الدراسة من (باطن) الباحث وتحصل علاقة تشبه الطرح والطرح المضاد في عمل التحليل النفسي.

وقفة لالتقاط الأنفاس:

كان الفيلسوف «أرسطو»[2] يعتقد بأن عدد أسنان المرأة أقل من عدد أسنان الرجل، وبالرغم من أنه متزوج من امرأتين إلاّ أنه لم

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ق.م) فيلسوف يوناني قديم كان أحد تلاميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب في مواضيع متعددة تشمل الفيزياء، والشعر، والمنطق، وعبادة الحيوان، والأحياء، وأشكال الحكم.

يكلف نفسه – ولو لمرة واحدة طوال حياته الزوجية المديدة – أن يفتح فم إحدى زوجتيه ويحسب عدد أسنانها ليتأكد من رأيه.

ومن يدرس تفصيلات حياتي الفيلسوفين «شوبنهور»[1] و«نيتشه»[2] فسيجد أن موقفهما من المرأة وهو موقف شديد السلبية

---

(١) شوبنهور: للفيلسوف الألماني شوبنهور نظرة تشاؤمية للحياة. طبعت كتاباته وفلسفته. هذا الفيلسوف كان في القرن التاسع عشر، وبعد ثورة عصر الأنوار وسقوط نابليون ومعه جمهورية فرنسا الأولى في عام١٨١٥م، صوت فلسفة أوربا، بعد أن نجح في آخر سنوات حياته في فكرة أن الحياة إرادة (رغبة) هي المحرك الأول والباعث الأول للمعرفة ولكل نشاط إنساني، وأنها هي دافع الحياة، وسبب استمراريتها. وحده العبقري هو الذي يستطيع أن يخضع هذه الإرادة المهيمنة على غالبية البشر للمعرفة ويجعلها تحت حكم العقل وسيطرته، يتفق مع (كانت) على أن الحياة مجرد فكرة: صورة حسية تمثل مظهر الشيء ولكنها يستحيل أن تكون الشيء نفسه. له فلسفة متكاملة تتناول الحياة، الفن، العبقرية والدين، وفي الفن مثلاً يعتقد أن مهمته هي أن يحرر المعرفة من تسلط الإرادة وهيمنتها ونسيان الذات الفردية ومصالحها المادية، وبالتالي الحقيقية هي حكمة الموت، وفي النهاية فالوسيلة الوحيدة لقهر الإرادة تكمن في إيقاف منبع الحياة (إرادة التناسل)، ففي اعتقاده أن الغريزة الجنسية هي الملوم لأنها أقوى ما يقوّي شهوة الحياة، ببساطة المتهمة كما يعتقد شوبنهور هي المرأة، فالرجل ولو سما بعقله على إرادته فهذه المخلوقة تعود إلى إغرائه بالتناسل لينسى بعض الوقت أن سحر المرأة ومفاتنها قصيرة الأمد، ويسوق شوبنهور بعد ذلك رأياً جدِّياً سلبياً يلصق بالمرأة الكثير من شرور هذا العالم وبؤس هذه الحياة.

(٢) فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠): فيلسوف ألماني، عالم نفس، وعالم لغويات متميز، تميز بشخصية عدوانية جداً، وكونه ناقداً حاداً للمبادئ=

والتطرف، لا علاقة له لا بالفلسفة ولا بالمعرفة ولا بالأمانة العلمية، بل بتجارب وصراعات مختزنة في اللاّ شعور.

عودة:

قلنا إن العلاقة بين الباحث الاجتماعي ومادة بحثه – الإنسان – تتضمن إسقاطات «ذاتية متبادلة تشبه علاقة الطرح – Transference » «والطرح المضاد Counter transference» في العلاقة النفسية التحليلية، ففي الطرح يقوم المريض بإسقاط مشاعره المختزنة تجاه أحد أبويه مثلاً – سلباً أو إيجاباً – على الطبيب النفسي المعالج فيقوم الأخير، بدوره، بإسقاط مشاعره الخاصة المختزنة في اللاّ شعور على المريض الذي فتح أبواب المكبوت اللائب. ترى كيف نفسر زواج المحلل النفسي «أوتورانك»[1]

= الأخلاقية، والنفعية، والفلسفة المعاصرة، المادية، المثالية الألمانية، الرومانسية الألمانية، والحداثة عموماً. كثيراً ما توصف أعماله بأنها حامل أساس لأفكار الرومانسية الفلسفية والعدمية ومعاداة السامية وحتى النازية ولكنه يرفض هذه المقولات بشدة، ويقول بأنه ضدّ هذه الاتجاهات كلها. في مجال الفلسفة، يعدّ نيتشه في أغلب الأحيان مصدر إلهام للمدارس الوجودية وما بعد الحداثة. روّج للأفكار اللا عقلانية والعدمية، استخدم بعض آرائه أيديولوجيو الفاشية فيما بعد.

(١) أوتورانك: عالم نفسي نمساوي (فيينا ١٨٨٤ – نيويورك ١٩٣٩) تلميذ نابه من تلاميذ فرويد، هو الأول في تطبيق التحليل النفسي على الأساطير والقصص الخرافية. من مؤلفاته: (أسطورة ولادة البطل(١٩٠٩)، صدمة الولادة (١٩٢٨)، دراسة غشيان المحارم (١٩١٢) وغيرها).

من الروائية «أناييس نن»[1] التي راجعته كمريضة نفسية طلباً للعلاج وكي يحلّل شخصيتها ثم انفصاله عنها بعد سنتين؟ وكيف نبرّر منطقياً – اضطراب حياة «بروبير»[2] وعلاقته الزوجية حين شارك «فرويـــــد» في تحليـــــل الحالـــــة المرضـــــية للفتـــــاة «أنّـــــا» أو «Anna «O» والتي سمّي فرويد ابنته الأولى «أنّا» باسمها؟

لقد شغلت «أنّا – Anna»[3] تفكير «بروبير» فكان لا يفتأ الكلام عنها في كل مناسبة، مع «فرويد» ومع زوجته إلى درجة أن هذه الأخيرة بدأت تشعر بالغيرة وانتابها شعور باليأس والكآبة،

---

(١) ولدت أناييس نن في باريس سنة ١٩٠٣ وعاشت حياتها كما تكتب. وفي باريس كما في الولايات المتحدة، كان لها حضور طاغٍ في الكتابة والحب والأفكار والمذكرات الغنية وبالتجارب والكتابة الروائية وهذه أهم رواياتها المفتوحة على أشكال الحب والحياة. وهي روائية معروفة من أسرة إسبانية – فرنسية – دانمركية. أصدرت العديد من الأعمال الروائية والقصصية التي لاقت اهتمام النقاد والقرّاء ومن أهمها: (شتاء المكر – تحت الجرس الزجاجي) بالإضافة إلى كتاب (اليوميات)، وهي تعتمد في معظم أعمالها على التحليل النفسي للشخصيات، وترتبط كل الأفعال والانفعالات والتطورات والإخفاقات بالحالة النفسية لشخوصها.

(٢) جوزيف بروير: طبيب أعصاب نمساوي (١٨٤٢-١٩٢٥) عمل سيغموند فرويد معاوناً له في دراسة حالات الهستيريا ونشرا معاً كتاب (دراسات في الهستيريا ١٨٩٥).

(٣) أنّا أو: هي المريضة (بيرثا بابنهيم) التي عالجها جوزيف بروير وسيمغوند فرويد، وهي من حالات الهستريا المشهورة في تاريخ التحليل النفسي، أطلق اسمها فيما بعد على مؤسسة شهيرة للإصلاح الاجتماعي.

و«بروبير» لا يدرك مدى التغلغل الذي حصل بنفسه من جراء هـذه العلاقة، وبعدما تفاقمت مشاعره أدرك المنـزلق والمنعطف الذي لم يحسن تفاديه، فقرّر فجأة قطع العلاج معها، وفي آخر لقـاء معهـا أعلمها بقراره، وأنّه منذ الآن بإمكانها أن تستعين بطبيب غيره. في المساء استدعي بنحو طارئ لمعاينة «أنّا» على أثر نوبة آلام مبرحة، فوجدها تعاني من مغص هستيري شبيه بآلام الولادة، وشخصّ لها أنها مصابة بالحَبَل الوهمي، وعلى الأثـر حـاول تهـدئتها وتنويمهـا بالرغم من اضطرابه وشعوره بالقلق وهو يتصبب عرقاً بـارداً، ثـم اعتذر وقفل راجعاً إلى منـزله.

ويقول «إرنست جونز» كاتب سيرة «فرويد»: إن «بروبير» تـرك «فيينا»بعد ذلك ليمضي شهر عسل جديد مع زوجته التي حملت منه وأنجبت فتاة كان نصيبها الموت انتحاراً بعد ستين عاماً خلت..».

ويقول «فرويد» بعد هذه الحادثة بعشر سنوات إن «بروبير» طلب منه نصيحة بشأن فتاة تعاني من أمـراض مختلفـة، فـشخّص «فرويـد» في الحال إنها تعاني من حبل وهمي. وفي الحال ارتجف «بـروبير» وتنـاول قبعته وعصاه وتركـه دون أن يفـوه بكلمـة. السؤال الآن: مـاذا دهـا «بروبير» حتى يتراجع هذا التراجع؟ وما هو دور هذه الشابة الهستيرية في زعزعة رجل علم رزين واثق من نفسه لا غبار على سمعته».

يفسّر الـدكتور «عـدنان حـب الله»[1] ذلـك مـستعيناً بأطروحـات

---

(١) التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان – عدنان حب الله – مركز الإنماء القومي – بيروت.

«جاك لاكان»[1] فيقول: «إذا كانت الهستيريا تمثل المدخل إلى التحليل النفسي، فلا يعود ذلك إلى الصدف، إنما لأنها جزء لا يتجزأ من تجربة فكرية تطال الطرفين معاً. عندما تتحدث المريضة عن أعراضها تبدو على نحو (S) على اعتبار أنها منقسمة على ذاتها، أي غائبة عن المكان الذي تتكلم به أعراضها (S) أي دال منسق)، ولا تلجأ إلى الطبيب إلاّ لأنه في موقف المفترض أنه عارف، أو على الأقل يعرف أكثر منها عن حالتها وتتمثل في S1 (s۱ أي دال المعلم).

وهذا المعلم الذي يعتمد عادة على المنهجية العلمية التي تدرج عليها من حيث أنه لا يُسأل عمّا يحركه من رغبات وهوايات، ويجد نفسه لأول مرة بأنه يُسأل عن تفكيره، وعن رغباته وهواياته التي تتحرك لا يدري، فهذه التجربة كانت ومازالت فريدة من نوعها، فخلافاً لما كان يُتصوّر بأن العلاقة بين شخصين ثنائية، يتبين له في الواقع بأن هناك طرفاً ثالثاً على الأقل يسيّر الحوار، وعدم اكتشاف هذا الطرف الثالث كان من نتيجته في قصّة «أنّا. أو» و«بروبير» أن الأولى اصطنعت حبلاً وهمياً، والثاني لجأ إلى الهروب كمخرج أمام ما اكتشف، ولم يعد باستطاعته السيطرة عليه ، فما حصل عنده كانت نتيجة ردّة فعل لما يحصل عند

---

(١)جاك لاكان: طبيب فرنسي (باريس ١٩٠١ – باريس ١٩٨١) هو الرئيس القديم للعيادة في كلية الطب بباريس، اتجه نحو الطب النفسي ونشر عام ١٩٣٢، أطروحة تلفت الأنظار (في ذهان البارانويا (الذهان الهذائي) بعلاقاته مع الشخصية) قبل في رابطة التحليل النفسي بباريس عام ١٩٣٦).

الأولى، والعكس صحيح، فالمقارنة عنده كانت نتيجة ردةّ فعل لما يحصل عند الأولى، والعكس صحيح، فالمقاومة كما يقول «لاكان» هي مقاومة المحللين أنفسهم، فالمحلّل لا يسمع ما لم يكشف النقاب عنه في نفسه»[1].

إن الطرف الثالث، اللا شعور، يلعب دوره بطريقة العلاقة الطرحية السابقة نفسها في توجيه اختبارات الباحث في علم الاجتماع وأحكامه، وهذا ما عبّر عنه «جان بول سارتر»[2] بطريقة أخرى حين قال:

«إنّ الحقيقة حقيقة مواقف تقوم على الالتحام المباشر بين المفكر والوجود، إنّ كلّ ما يوجد بالنسبة إليّ لا يمكن أن يستمد معناه الوجودي إلاّ منّي أنا وفي نطاق ضميري».

ويفرّق «أندريه أمار» بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية من

---

(١) التحليل النفسي من فرويد إلى لاكان. مصدر سابق.

(٢) جان بول إيمارد سارتر: ولد عام ١٩٠٥ في باريس وتوفي فيها في ١٥نيسان ١٩٨٠. فيلسوف وروائي ومؤلف مسرحي فرنسي. بدأ حياته العلمية أستاذاً. درس الفلسفة في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية. حين احتلت ألمانيا النازية فرنسا، انخرط سارتر في صفوف المقاومة الفرنسية السرية. بعد الحرب أصبح رائد مجموعة من المثقفين في فرنسا. أثرت فلسفته الوجودية، التي نالت شعبية واسعة، على معظم أدباء تلك الفترة. منح جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٤. تميزت شخصياته بالانفصال عنه وبدت وكأنها موضوعات جدال وحوار أكثر منها مخلوقات بشرية، غير أنه تميز بوضع أبطاله في عالم من ابتكاره.

حيث درجة تأثر الإنسان بطبيعة الظاهرة التي يتناولها وهو في ذلك يذهب إلى أن العلوم الإنسانية تدرس الظواهر التي يكون الإنسان فيها المؤثر والمتأثر. وبذلك يفرّق بينها وبين الظواهر الفيزيولوجية التي يكون الإنسان فيها متأثراً فقط، وعن الظواهر الفيزيائية التي يكون فيها الإنسان مشاهداً وملاحظاً لها فقط. ويرى أنّه لابد من التفريق بين الظاهرة الإنسانية والعقل الإنساني، فالعقل متصل بحرّيتي وهو عبارة عن تدخلي في العالم وتأثيري فيه. أمّا الظاهرة فهي فعل وقع وظهر وانفصل عني. وبذلك يصبح الفعل ظاهرة بحدوثه وانفصاله عني، وظهوره في الواقع، وتصبح الظاهرة «فعل» بإدراكي لها وإطلاعي عليها، ولو لم أكن سبباً في إحداثها، ومن ثم يذهب إلى أن الظاهرة والفعل يتعلقان بموقفي الفكري، حيث أنظر إلى الماضي فأجد الظاهرة وأشعر بالحاضر وأحياه فأقوم بالأفعال، فالظاهرة توجد في العالم الخارجي، غير أنها صدرت عن الفعل، وهو بذلك يذهب إلى أن الحياة جميعها عبارة عن انتقال من الفعل إلى الظاهرة، ومن الظاهرة إلى الفعل.

وبذلك يرى «أمار» أنّ العلوم الطبيعية تعتمد على ظواهر المادة ومن ثم تكون فكرة الظاهرة فيها أساس. وعليه يتناول الباحث فيها أحكام الوجود المادي، لا أحكام القيم. في حين أن العلوم الإنسانية تقوم على قضايا إنسانية، تستند في مصادرها إلى أفعال، لا إلى ظواهر، ولذلك فهي تعتمد أحكام القيمة أكثر من اعتمادها على أحكام الوجود. إذ أن كل فعل نقوم به له معنى

يتصل بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا أي بشخصيتنا. فإذا جردنا قضايانا الإنسانية من معانيها وغاياتها التي تضمن وحدتها وتماسكها، نكون بذلك قد عرّيناها من حياتها النابضة وتناولناها كجثة هامدة لا حراك فيها، ولا تفصح فيها عن ماهيتها الحقيقية».

إنّ الوردي هو جزء من نسيج «الموضوع» الذي يدرسه شاء أم أبى، يقرر شعورياً أن يقف منفصلاً فوق تلة البحث ليراقب ويرصد ويحلّل، فيقرّر لا شعوره الحضور الحيّ وسط جمع الظاهرة المدروسة، مشتبكاً معها وممتزجاً بها وممرّراً مكبوتاته تحت أغطيتها ومفرّجاً عن دوافعه من خلال «ممارسة» عرضها وتشريحها، يتحدث الوردي عن الصراع بين قيم البداوة وقيم الحضارة الذي واجهه المواطن العراقي مع إنشاء الدولة العراقية الحديثة وكيف واجه منجزات الحضارة الحديثة وقيمها ومفاهيمها.. فيقول: «إني في كتاباتي حول المجتمع العراقي أذهب إلى القول بأن هذا المجتمع هو حصيلة صراع أو تفاعل طويل بين الحضارة والبداوة (...) ويمكن القول إن الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى في العراق شهدت صراعاً شديداً بين القيم العشائرية التي كانت سائدة من قبل، والقيم الحضارية التي بدأت تأتي. وهذا الصراع نلاحظه في كل منطقة في العراق، غير أنه يختلف شدة وضعفاً تبعاً لظروف المنطقة من حيث بعدها وقربها عن التأثير

الحضاري»[1].

ولكن إذا كانت قيم الحضارة الحديثة ومنجزاتها قد جاءت لتصدم المواطن العراقي بعد الحرب الأولى تدريجياً فيلقى في أتون صراع ملتهب بين قيم البداوة التي تربى عليها – حسب الوردي – وبين قيم الحضارة التي اقتحمت عالمه مستنداً إلى «جدار» جمعي يعزّز إرادته في مقاومة التغيير، فإن هناك مواطناً عراقياً قد (خلع) من أرضية مجتمع البداوة وتمّ رميه فجأة في وسط مجتمع الحضارة، هذا المواطن هو: علي الوردي، فقد اقتلع هذا المواطن فجأة من الكاظمية، وتحديداً من محله الأنباريين، المحلة التي حاصرته بمظاهر التخلف حيث ممتهني حرف التنجيم وفتح الفأل والاتصال بالجن.. وحيث التمييز الاجتماعي.. والخداع.. وقمع المرأة.. ليلقى في نيويورك.. في الولايات المتحدة.. وحيداً من دون أي غطاء جمعي مهما كان لونه.. وقد كانت صدمته شديدة بما رآه وانذهاله لا حدّ له بما شاهده.. وقد تجسد ذلك في رسائله التي أرسلها من هناك إلى قريبه الفنان «خليل الورد»[2] وكان مندهشاً فيها حتى من وجود المناديل الورقية – الكلينكس– التي حلّت له

---

(١) من وحي الثمانين. مصدر سابق.

(٢) خليل الورد: نحات ركز على تجسيد عذابات المرأة الشعبية وعالمها، بتماثيل من الحجر والخشب. كان من جماعة بغداد للفن الحديث التي أسسها الفنان جواد سليم وتضم مشاهير الفنانين التشكيليين منهم خالد الرحال. من أقارب الدكتور علي الوردي وله مراسلات مهمة معه.

مشكلته الوسواسية الكبرى، ومن ذلك اكتسبت أهميتها الهائلة رمزياً، وقد عبّر الوردي نفسه عن حدّة هذه النقلة العجيبة في حياته في مقالة نشرها في إحدى الصحف عنوانها: «من على ظهور الحمير إلى الجمبو» وكان الوردي يقصد من ذلك أنه سافر في طفولته مع أهله على ظهور الحمير وهو الآن يسافر على طائرة الجمبو، معنى هذا أنه إذا كان المجتمع العراقي قد تحوّل خلال مدّة قصيرة نسبياً من مجتمع تسوده قيم البداوة إلى مجتمع تتصارع فيه هذه القيم ضد قيم الحضارة، فإن الوردي الفرد، قد تحول من فوره من شخص يرزح تحت تأثيرات قيم البداوة إلى شخص تتصارع في داخله القيم التي ترعرع عليها – على الرغم من رفضه الظاهري – ضد قيم الحضارة الكاسحة التي لا تناسب حاضنته الاجتماعية السابقة لو عاد بهذه القيم إليها، لأن مصيرها الرفض القاطع. وقد وجد الوردي حلاً تسووياً، وهو أن يقوم بدور الرافض لكل قديم دون أن يقدم بديلاً ناجزاً يستفز موروثه الراسخ في أعماقه على الرغم من إيمانه الظاهر به، وهو بديل لا يمكن أن يمرّ بلا صراع أو معاناة. وقد عبّر عن عذاب صدمته بالحضارة الغربية من خلال مقارنة حاله بحال الدكتور «حسين علي محفوظ»[1] حيث كرّر في

---

(١) ولد عام ١٩٢٦ في محلة الأنباريين بمدينة الكاظمية لأسرة ينتهي نسبها إلى شمس الدين محفوظ بن وشاح محمد الأسدي الحلّي. يعدّ واحداً من أعمدة الثقافة والمعرفة، وأحد رواد الفكر واللغة والأدب والشعر ليس في العراق حسب، بل في العالم العربي والإسلامي، ممن لا زالوا على قيد الحياة، فهو علامة العراق وشيخ بغداد وأستاذ الأجيال. (وُضع الكتاب

اللقاء التلفزيون الذي أجراه معه «سلام الشماع» أنه يغبط الدكتور محفوظ لأنه لم يحتكّ بالحضارة الحديثة احتكاكاً قوياً فظل مؤمناً مطمئن النفس مرتاحاً على عكسه هو الذي سافر للدراسة في أمريكا واحتكّ احتكاكاً مباشراً بالحضارة الحديثة، وكان دعاء الوردي هو: «اللهم ارزقني إيمان العجائز» كما يرى دائماً (أن من آمن بحجر كفاه)[1].

إننا لو لاحقنا الآليات النفسية الدفاعية (Defense Mechanisms) التي يستتر بها صاحب الشخصية التي افترضنا طرازها لدى الوردي فسنجد أنّها قادرة على أن تكشف لنا مغاليق في السلوك الحياتي والفكري له، استعصت على الكثيرين طويلاً. فقد حدّد التحليل النفسي ثلاث آليات دفاعية كبرى تقرر شكل السلوك ونوعه، الفكري والعملي، الذي يقوم به الشخص وشكل سمات شخصيته ونوعها، وهي: العزل والإبطال، والتكوين العكسي: **Isolation, Reaction, Formation,Undoing** على التوالي. ففي العزل يحتمي الأشخاص من المؤثرات والمحفزات المثيرة للقلق. فتحت الظروف الطبيعية يشعر الأشخاص بالحالة الوجدانية، والتصور الذهني معاً لأيّة فكرة مثقلة بالعواطف، سواء كانت تخيلاً أم ذكرى لحادثة سابقة، ولكن في العزل تفصل الحالة الوجدانية والمثير الذي اشتقت منه يفصلان عن المحتوى الفكري ويدفعان خارج

قبل وفاة العلامة محفوظ).

(١) من وحي الثمانين – مصدر سابق.

الشعور. وإذا كان العزل ناجحاً بصورة كلية فإن المثير والحالة الوجدانية المصاحبة له يكبتان تماماً ويدرك الشخص شعورياً الفكرة مجردة من العواطف المرتبطة بها، أمّا في الإلغاء والمحو فبسبب التهديد المستمر المتمثل في خشية الفرد من أنّ الحافز قد يفلت من قبضة العزل الدفاعية الأولية يلجأ الفرد إلى آلية دفاعية ثانية تواجه الحافز وتكبته وتخفف من القلق الناجم عن بزوغه في الوعي. والفعل القسري يتضمن التعبير السطحي لعملية دفاعية تهدف إلى تخفيف القلق والسيطرة على الحافز الكامن الذي لم يسيطر عليه العزل بصورة كافية، والآلية المهمة جداً في العملية الدفاعية الثانوية هي آلية الإلغاء أو المحو.

وكما تشير التسمية فإن المحو هو فعل قسري يقوم به الفرد كمحاولة لمنع أو إلغاء النتائج التي يتوقعها لا منطقياً من الحافز أو الفكرة المتسلطة المخيفة.

وأمّا التكوين العكسي أو التشكيل الارتكاسي فإننا نلاحظ تكوين سمات في الطبع الشخصي أكثر من تكوين أعراض سلوكية مثلما يحصل في الآليتين السابقتين، وكما يشير المصطلح فإن التكوين العكسي يتضمن إظهار طُرُز سلوكية ومواقف فكرية مناقضة تماماً للحوافز الكامنة، وتظهر للمراقب عادة مبالغاً فيها وغير ملائمة، وتبقى هناك ملاحظتان مهمتان تتعلقان بسمتين إضافيتين، الأولى هي سمة «التجاذب الوجداني أو التضاد العاطفي – **Ambivalence**» وتعني حرفياً تذبذب الإنسان

بين ميلين متعارضين متواجدين معاً، كل منهما يشده في اتجاهه، وفي الحقيقة «فإن التجاذب الوجداني هو الخاصية الأساس للحياة العاطفية، فليس هناك مطلقاً في علاقتنا بكائن ما عواطف صافية. كل عاطفة لابدّ أن تتضمن نقيضها في آن معاً، ولو أنه في الحالات العادية لا يبرز إلاّ وجه واحد: الحب، أو الحقد، إلاّ أن الوجه الآخر كامن وضمني قد يتفجر في ظروف معينة، ومن هنا نفهم تحول، الحب إلى حقد، أو تحوّل النفور إلى حب[1] قد تكون حادثة طرد الوردي لصديقه وتلميذه – سلام الشمّاع – بقسوة تفجراً لهذا النمط من الصراعات وهو من المظاهر الطبيعية في الطفولة وبنحو خاص في المرحلة الشرجية السادية. **Anal sadistic stage**- من النماء النفسي الجنسي. أمّا السمة الثانية فهي «التفكير السحري – **Magical thinking** – وفيها يكشف «النكوص – **Regression**» الطرز المبكرة للتفكير ومنها القدرة الكلية للفكرة حيث يعتقد الأشخاص أن مجرد التفكير في شيء يكفي لوقوعه في العالم الخارجي من دون وساطة الأفعال المادية والجسمية[2]»، فإذا أردنا بعد هذا العرض الموجز أن نتتبع مراحل النماء النفسي للعلامة الوردي في محطاتها الرئيسة فسنجد أن نقطة الانطلاق الكبرى – كما يؤكد ذلك التحليل النفسي – تتمثل في علاقة الوردي بأبيه. فبالرغم من أن علياً هو الابن الوحيد في العائلة ولا يوجد غيره لأبيه الذي من

---

(١) Synopsis of psychiatry– kaplan and sadock– ٨ th edilion.
(٢) Synopsis of psychiatry – kaplan and sadock –٨th edilion.

المتعارف عليه أنه يحبّ ويعتزّ، بل يدّلل ولده الوحيد عادة، إلاّ أننا نجد العلاقة بينهما يسودها التوتر ومنذ مرحلة مبكرة. فقد قام الأب بمنع ابنه من الذهاب إلى المدرسة بعد أن أصيب بمرض في عينه أدى إلى فقدانه البصر فيها، ولا نعلم ما هي الصلة بين المرض ومنع الابن من مواصلة الدراسة إلاّ إذا وضعنا في حسابنا العقلية الخرافية والرجعية التي يحملها الأب. كان اهتمام الأب منصبّاً على التزمّت الديني وعلى التفكير الخرافي الذي تجسده الكتب المحافظة آنذاك. بينما كان الابن الصغير يتحمل المشقة وضيق ذات اليد ليشتري الكتب والمجلات التي تدعو إلى العلم والانفتاح العقلي والتنوير، في الوقت الذي يقرأ فيه الأب كتباً من نوع «السيف البتار على من يقول المطر من البخار»، ومن المتوقع أن الابن قد ذاق الكثير من المعاناة على يدي الأب، وأنه لأسباب معروفة – تربوية ودينية واجتماعية – قد كبت عدوانه الدفاعي ضد الأب فبقيت شحناته لائبة في لا شعوره، أضف إلى ذلك أن الحوادث تشير إلى أن الأب كان عصبياً نزقاً، وليس أدلّ على ذلك من «الحوادث التي ذكرها سلام الشمّاع والدكتور (عبد الأمير الورد).

فحين كان يمر الوجيه المشهور (السيد عطيفة) الذي تزوج الأب في بيته كان يبصق أمامه، وحين كانت الريفيات الساذجات اللائي يلتبس عليهنّ الأمر ويسألن السيّد حسين: أنت ابن علويّة طاهرة؟ فيجيب: لا، أنا ابن علويّة نجسة، ثم يدلّهن على دكان قريبه.

وكان علي رافضاً لإرادة أبيه بصورة مباشرة وغير مباشرة، الصورة غير المباشرة تتمثل في فشله مرتين في العطارة – كعامل وكصاحب دكان – مجهضاً جهود أبيه، أمّا الطريقة المباشرة فتتمثل بسفره للدراسة في لبنان، ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية خلافاً لإرادة أبيه الذي كان يعتقد أن تعيين ابنه في مدرسة للبنات هو منقصة وعيب فادح. أمّا ردّ فعله حين عاد علي من أمريكا كمختص في علم الاجتماع فهو هجرانه البيت إلى فندق ثم بيت أبي الدكتور الورد ثم تمت مصالحته من قبل علي بطريقة التفافية، ومن المواجهات الأخرى التي يجب الانتباه إليها هي أن عليّاً كان أولّ شخص وافق على تغيير لقبه من الورد إلى الوردي استجابة لرأي الدكتور (مصطفى جواد) وهي «ثورة» على الإرث الأبوي وهي محاولة «أوديبية» منكّرة «لقتل» الأب المتعسّف كان هو العامل الرئيس في إصابته بالوسواس من خلال التربية الدينية المتزمتة التي تقوم في معظمها على الطهارة والنجاسة.

إنّ أغلب مسارات العلاقة بين الابن والأب توصل إلى تنمية الرغبة في قتله، والتحليل النفسي بعد قتل الأب في القطيع البدائي مفتاح نشوء الحضارة، فقد أدى – إلى تحريم – القتل وتشريع القوانين، وإلى تأسيسه العائلة وتحظير المحارم ونشوء الدين.. وغيرها، ولكنني أرى أنه ليس الشروع بالقتل الفعلي هو الذي أشعل فتيل التطور الحضاري ولكنها «الرغبة» في قتل الأب ما دام الضمير /الأنا الأعلى يتساوى في لا شعور الابن. فـ«اعتباراً من لحظة

نشوء الأنا الأعلى يسقط قلق الإنسان من افتضاح أمره ويمّحي كلياً الفرق بين اقتراف الشر لأنه لا يمكن لشيء أن يبقى مخفياً عن الأنا الأعلى ولا حتى الأفكار والخطط. ويبدي الضمير المزيد من الصرامة في سلوكه، ويدلل على المزيد من الريبة والشك كلما اشتدّ الميل بصاحبه إلى الورع والتقى، والمفارقة تكمن تحديداً في أن أولئك الذين سيدفع بهم ضميرهم إلى قطع أبعد شوط على طريق القداسة هم الذين سيتهمون أنفسهم في خاتمة المطاف بأنهم كبار الخطاة.. والأنا الأعلى لا شعوري إلى حدّ كبير ويظل محتفظاً بقدرته على الحكم والعقاب إن فعلنا ما يخالفه أو حتى لمجرد تفكيرنا فيه، فالنيّة عند الضمير مثل الفعل سواء بسواء.

«والضمير هو الإدراك الداخلي لانتباذ بعض الرغبات التي تساورنا، والضمير:

- يولد على أرضية الازدواجية الوجدانية **(Ambivalence)** وشروطه هي ذاتها شروط الحرام والعصاب الوسواسي، والعصابي تكون صحوة ضميره ردّ فعل على الإغراء الذي يترصده في اللا شعور.
- صلة القربى وثيقة بين الضمير وبين الحصر (القلق) ففي استطاعتنا أن نصف الضمير بأنه (وعي مولّد للحصر).
- عندما يأخذ حرام ما صورة نواهٍ في المقام الأول فهذا الحرام يتوجه (مثل العصاب) إلى رغبات إيجابية لها يدين

بنشأته، فلا ضرورة لتحظير أو تحريم ما لا رغبة فيه لأحد وتكرار وصية (لا تقتل) سببه وجود مقابل لها في اللا شعور (يرى جيمس فريزر صاحب «الغصن الذهبي» أن المجتمعات لا تصدر قوانين تعاقب مقترفي جرائم السفاح بالمحارم بأقسى العقوبات إذا لم تكن هناك رغبة فعلية لدينا لاقترافها).

- إنّ الضمير كليّ العلم ولا قيمة للتمييز بين العدوان بالنية والعدوان المحقق، وفي شروط كهذه يصبح الجرم الذي لم يتعدَ نطاق القصد والنية قميناً بتوليد شعور بالذنب مماثل لذلك الذي يتولد عن فعل عنف فعلي..»[1].
- إنّ الشعور بالذنب هو المشكلة الرئيسة لتطور الحضارة وإن على الإنسان دفع فاتورة تقدم هذه الأخيرة بنقصان في السعادة ناجم عن تعزيز ذلك الشعور، يقول «هملت»: «هكذا يجعل الضمير منّا جميعاً جبناء»[2].

ووفق مواصفات الضمير /الأنا الأعلى هذه يكون من مسارب تصريف الشعور بالذنب المتوقعة المبكرة هو أن يلجأ علي الطفل إلى دار المحاكم ليشاهد بعينه تفصيلات رواية «الظلم الاجتماعي» التي بدأت بـ«قصة» وسرقة «سلاحه/بندقيته الخشبية» بطريقة

---

(١) الطوطم والحرام – سيموند فرويد – ترجمة جورج طرابيشي – دار الطليعة – بيروت – ط/١/ - ١٩٨٢.

(٢) المصدر السابق.

متعسفة تشبه ما يفعله «الشقاة والقبضايات » الذين جعلهم محورا لبحوثه، والأدهى من ذلك أنه صعد بهم ليرسمهم أنموذجاً للشخصية العراقية (والمبالغة المفرطة من سمات الشخصية الأنموذج التي افترضناها للوردي).

لقد كانت ثورة الابن على سلطة الأب و«الرغبة» في «قتله» وتجريده من سلطته كاسحة ومفرطة لدى الوردي إلى الحد الذي ألغى فيه أيّة سمة إيجابية في شخصية الأب المرجعية/ المواطن العراقي، وقد خلق العدوان اللا شعوري لدى الوردي غشاوة على بصيرته فوقع في شرك عظيم حيث أن تصوّره لازدواجية المواطن العراقي جاء غريباً – من دون أن يدري – ومخالفاً لمفهوم الازدواجية «العلمي» الذي طرحه هو نفسه والذي تناوله الباحثون الاجتماعيون في مصر عن ازدواجية شخصية المواطن المصري، فمن المفترض أن يكون للمزدوج وجهان: سلبي وإيجابي، وهذا ما قرّره الباحثون المصريون.

لقد حاول الوردي تبسيط فرضية الازدواجية من خلال مثال بسيط يقدّمه للقارئ فيقول: «نجد هذا واضحاً في الشخص الأمّي الجاهل خصوصاً حين يتناول الخمرة ويخرج بها طبيعته الكامنة من أعماقه، فنراه عندئذٍ يتغني بأغاني العويل والشكوى ولعله يبكي تأثراً بها، إنّما هو لا يكاد يلمح في من حوله بادرة احتقار له حتى ينقلب دفعة واحدة إلى أسد هصور فيشهر خنجره يريد أن يسقط به (الدول السبع)، وهذا الشخص لا يتردد في أن يفعل مثل

ذلك في حياته الاعتيادية أحياناً. إنه قد يواجه سياط الجلاوزة بالشكوى إلى ربّه من ظلم الظالمين حتى إذا مشى خطوات ورأى من هو أضعف منه صار بدوره (جلوازاً) ونسي عندئذٍ ربه الكريم»[1].

ثم يخرج الوردي بنتيجة عامة من هذا المثال الفردي البسيط ليؤسس فرضية كاملة فيقول:

«إنه بعبارة مختصرة يسلك سلوك البدوي الغالب تارة، وسلوك الحضري المغلوب تارة أخرى. والظاهر أنه اعتاد على هذا الازدواج في شخصيته منذ زمان بعيد حتى صار لديه تقليداً اجتماعياً لا داعي للعجب منه»[2].

والمثال الذي ضربه الوردي غريب؛ والأغرب منه ما بناه على أساسه فهو نفسه يقول: «إن الشخص، أمّي وجاهل.. ترى ما الذي يقوم به شخص أمّي وجاهل حين يسكر؟ الخمرة يمكنها أن تطيح بعقل أكثر الأشخاص المثقفين وعياً وتماسكاً، فما بالك بشخص جاهل أمّي يسكر؟ ثم ألا توجد أعداد هائلة من البشر في أمريكا وأوروبا وروسيا.. إلخ يسكرون ويغنون ويتشاجرون؟ وما هو سلوك المليون ونصف من سقط المتاع الذين يسكنون الأرصفة في الولايات المتحدة؟ ثم ما هو رد فعل شخص أمّي وجاهل وسكران لعبت الخمرة بعقله وهو يرى أشخاصاً يظهرون له الاحتقار لأنه يغني آلامه ويشكو دهره؟

---

(١) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. مصدر سابق.

(٢) المصدر السابق.

خذ باحثاً آخر مثل الدكتور «مصطفى حجازي» في كتابه «التخلف الاجتماعي – سيكولوجية الإنسان المقهور» وانظر إليه كيف يحلّل السوداوية في أغاني الجماهير المقهورة فيقول:

«الطبيعة، الأرض، الوطن، هي جميعاً الأم، فهناك علاقة وثيقة على المستوى اللا واعي بين الطبيعة، النمط الحسّي من الوجود، اللاّ عقلانية والصور الأمومية، الغذاء، الدفء، الانسجام مع الطبيعة، الأرض الخيّرة، كلها تعبير عن صورة الأم الطيبة التي تعطي الحب والدفء مع الحليب منذ فجر الحياة.. وما رومانسية بعض الأدباء والشعراء وتغنيهم بالطبيعة سوى أحلام عودة إلى تجربة الاندماج الطفلي مع الأم الحنون المعطاء، على العكس تمثل الطبيعة القاسية الغاضبة والنابذة التي تمنع حبها وتحرم حنانها الذي يدخل إلى الطفل السكينة.. عدم القدرة على السيطرة على الطبيعة يجعلها تبدو اعتباطية في نظر الإنسان المتخلف، وهو يثير في لا وعيه أكثر المخاوف طفلية وبدائية، الخوف من هجر الأم له، الخوف من الوحدة والخواء الداخل. قلق الهجر يثير أقصى درجات العدوانية الأثرية التي تتوجه إلى الأم النابذة في حركة انتقامية تدميرية، ولكن هذه العدوانية غير محتملة وهي لذلك لا تتحول إلى الخارج، فتسقط على صورة الأم التي تأخذ عندها طابعاً قاسياً مفرطاً في عنفه (...) الحياة القاسية، كالطبيعة الغاضبة ليست مصدر معاناة لأسباب اقتصادية معيشية محضة، بل كذلك لما تفجره من عدوانية طفلية كامنة في أعماق اللا وعي، ترتد على الذات على شكل تهديد خارجي،

الإنسان المقهور الذي يرضخ لاعتباط الطبيعة معرض بالتالي لتحرك هذه الانفعالات الأثرية في نفسه، وهو تحرك يفقده كل شعور بالأمن ويضعه أمام خطر الفناء. وينعكس هذا القلق خصوصاً في موضوع الهجر والفراق الشائع في الأغاني الشعبية، في قسوة الحبيب وتجاهله للإنسان المحب الذي يجترّ آلامه، ويعاني من خوائه الداخلي، إنّ هذه السوداوية الشائعة في أغاني الجماهير المقهورة، لا تعبر عن الحرمان الجنسي الفعلي فقط، بل هي وسيلة للتعبير عن الحرمان الوجودي.

قسوة الحبيب وتجاهله ليسا سوى الرمز لقسوة الحياة ووطأتها، وهذه بدورها تعود فتتصل بموضوع الحب من خلال إثارة قلق الهجر الطفلي، وحدة وعذاب يعكسان عجز الإنسان المقهور إزاء الطبيعة والحياة واعتباطها، ويثيران أشد حالات انعدام الشعور بالأمن، الخوف من الهلاك الذي تتضمنه صورة الأم القاسية. وهكذا يتصل العاطفي بالاقتصادي، ويتصل الاقتصادي بالطفلي اللا واعي، في وحدة جدلية»[1].

هكذا يحلّل «حجازي» شيوع الشكوى والهجران والبكاء في أغاني الجماهير المقهورة – والعراقي منها – ولكن انظر إلى رأي آخر يرى أن الحزن سمة أصيلة وراسخة ليس في الغناء العراقي حسب بل في الشخصية العراقية أيضاً.

---

(١) التخلف الاجتماعي – سيكولوجية الإنسان المقهور. د. مصطفى حجازي – معهد الإنماء العربي – بيروت – ط/٤/ - ١٩٨٦.

فمن الدلائل الخطرة نفسياً واجتماعياً، هي أن أسطورة الخليقة البابلية هي الأسطورة الوحيدة بين أساطير شعوب الأرض التي تقول إن العراقي الأول قد خلق من طين ودم وليس من طين وماء مثل باقي العالمين، وقد أخذ الدم من شرايين إله ثار على الآلهة الكبرى وذلك من خلال ذبحه وتمزيق جسده. (سمي الإنسان العراقي الأول «للّو» ولا أعلم هل لهذا صلة بالكيفية التي كانت تهدهدنا بها أمهاتنا – في الجنوب خصوصاً «دللّول.. يا الولد يا بني دللّول...».

أما أسطورة الخليقة السومرية التي سبقت البابلية فتقول إنّ العراقي خُلق من دم فقط!!، كما أن الأسطورتين هما الأكثر عنفاً بين أساطير الخليقة في الكون حين يمزق الإله – الابن جسد الأم «تعامة»[1] إلى نصفين يصنع منهما الأرض والسماء.

ولو راجعت تاريخ العراق بأكمله ستجد أنه تاريخ أحزان ودموية، وحتى في مراحل الرخاء فإنها ممزوجة بالتحسب والقلق والتعب والتضحيات الخرافية.

ويرى الدكتور «فوزي رشيد»[2] رأياً آخر يختلف عن رأي «حجازي» ويكّمله، فإذا حاولنا العودة إلى الجذور لاستكشاف المنابت البعيدة للحزن في الغناء العراقي فسنجد ذلك أولاً في

---

(١) من اسمها صحراء «تهامة»..

(٢) الدكتور فوزي رشيد: باحث عراقي معروف في مجال الآثار. له العديد من الدراسات والمؤلفات عن الحضارة العراقية القديمة.

الكتابة الصورية السومرية والتي تقوم على «علاقة متينة بين الصور المرئية والغرض المعنوي المُراد تدوينه بواسطتها. وهذه الحقيقة التي تحتويها طبيعة الكتابة المسمارية مكنتنا من معرفة لون الألحان السومرية القديمة منذ قرابة (٣٢٠٠ق.م) وذلك من خلال تحليل العلاقة القائمة بين كلمة (مغنّي) وبين نوعية (الصورة المرئية) التي دوّنت بها كلمة مغني.. حيث تبين أنّ العلامة المسمارية التي تلفظ «نار – Nar» وتعني مغنّي تمثل في الأصل صورة لرأس (ابن آوى)، وعند التساؤل عن نوعية العلاقة الموجودة بين كلمة مغنّي وصورة رأس ابن آوى سيبدو لنا واضحاً بأنها علاقة صوتية ولا يمكن أن تكون بدنية. وعلى هذا الأساس لابدّ وأن كانت تراتيل الأغاني السومرية القديمة مشابهة في أدائها، لصوت ابن آوى مما دعا ذلك الكاتب السومري أن يختار صورة الحيوان المذكور ليدوّن بواسطتها كلمة مغنّي، هذا وأننا نعلم جميعاً بأنّ صوت ابن آوى من الأصوات الحزينة الشبيهة بالعويل والمثيرة للخوف، وهذه الحقيقة بحدّ ذاتها إشارة صريحة إلى أن الألحان السومرية القديمة حزينة ومقاربة إلى النواح والعويل»[1].

وفي إشارة مهمة إلى توضيح جانب من جذور الحزن والنواح بين النساء العراقيات. يقول «رشيد»: «وزيادة على ذلك فإن النصوص المسمارية قد عرّفتنا إلى نوع آخر من الألحان الحزينة التي احتفت النساء في أدائه»، حيث كان يستخدم بنحو خاص في المآتم وفي

(١) الغناء العراقي القديم – د. فوزي رشيد – مجلة (آفاق عربية).

إحياء ذكرى الأموات.

والألحان التي تُستخدم في مثل هذه المناسبات لا تختلف بشيء عن الألحان التي تستخدمها «العدّادات» في أيامنا الحالية في المآتم والمناسبات الحزينة، والدليل على هذا الاستنتاج هو أن المرأة التي كانت تؤدي هذا النوع من الألحان تُدعى باللغة السومرية «Ama – ir – ra» وبالآكادية «Ummu bikitti» وتعني حرفياً «أم البكاء» أي بمعنى المرأة الخبيرة في استنزال دموع الآخرين. وقد أشار الباحثون في مجال الدراسات المسمارية إلى وجود لهجات عدّة ضمن اللغة السومرية منها لهجة الـ «Eme – Sal» والتي تعني حرفياً (لغة النساء) وهذه اللهجة بالذات قد استخدمت في أغلب الإنتاجات الأدبية السومرية. وكون مغني الـ«كالا – Gala» وهو المتخصص بالأغاني الدينية الحزينة لا يغني أيّ نصّ كان ما عدا النصوص المكتوبة بلغة النساء فإنّ ذلك يدفعنا إلى التخمين بأنّ المناحات وأغاني الرثاء كانت قبل ظهور مغني الـ«كالا» من اختصاص النساء فقط، وعندما شارك الرجال النساء في هذه المهنة فقد حافظوا على الطابع القديم نفسه الذي كان يؤلف باللهجة المدعوة بلغة النساء»[1].

ويشير «رشيد» أيضاً إلى وجود «إشارات أخرى ضمن اللغة السومرية تؤكد أن الألحان السومرية القديمة كانت ألحاناً تحمل في طياتها طابع الحزن والنوح. ومن هذه الإشارات هو أن العلامة

---

(١) المصدر السابق.

المسمارية الخاصة بكلمة أغنية والتي تلفظ باللغة السومرية «شير Shir»[1].

والذي يلفظ بالأكادية «صراخو – Sarahu» وكذلك عن الفعل يغني والذي يلفظ بالأكادية «زمارو – Zamaru» وإن دلت هذه الحقيقة على شيء فإنما تدلّ على الشبه الكبير الذي كان موجوداً في العصر السومري القديم بين الغناء والنواح وإلاّ لما دوّن الأكاديون كلا الفعلين بالعلامة السومرية الخاصة بكلمة أغنية..»[2] .

وإذا عدنا إلى معنى الـ«كالا» فسنجد – حسب رأي د. رشيد - «أنّ هذا النوع من المغنّين متخصص في أغاني الرثاء وأول ظهور لهم ذكوراً وإناثاً كان في حدود (٢٦٠٠ق.م) وهم أيضاً من صنف الكهنة المرتبطين بالمعبد على الرغم من تمتعهم أحياناً بحرية ممارسة حياتهم الخاصة في مجال البيع والشراء والتملّك. وأن كلمة «كالا» تعبّر كذلك عن المغني والمغنية لأن اللغة السومرية لا تفرّق بين الذكر والأنثى. هذا وأن النصوص ذات العلاقة بالموضوع قد بيّنت لنا بنحو لا يقبل الشك على أن المغنيين كان بعضهم متخصصاً في العصر السومري القديم بقراءة الأغاني الجنائزية فقط والتي كانت تعتمد بنحو رئيس على ترديد النصّ بأسلوب

---

(١) يوصف الذئب بـ «الشير» ويغني المطرب العراقي (يا شير ليش تعوي حالك مثل حالي).

(٢) الغناء العراقي القديم – د. فوزي رشيد – مجلة (آفاق عربية).

شبه غنائي أكثر من اعتمادها على الآلة الموسيقية المرافقة لمغنّي الكالا.. هذا وقد اتسعت خلال العصر السومري الحديث (حوالي ٢١٥٠ – ٢٠٠٠ق.م) مجالات تخصّص مغنّي الـ«كالا» حيث بدأ يقوم بغناء قصائد الرثاء التي كانت تؤلف بخصوص المدن والمعابد – أكبر عدد من قصائد الرثاء في العالم حسب (كريمر) اكتشف في أرض سومر – التي ينالها الدمار بواسطة الأعداء أو الكوارث الطبيعيّة وكذلك ترديد الأغاني الحزينة التي تدفع سامعها إلى البكاء فيهدئ بذلك قلبه الحزين..»[١].

وإذا تنبهنا الآن إلى التطويع والتحوير الذي حصل من خلال التلاقح الخلاق بين الثقافة العراقية القديمة الراسخة، بمراحلها المختلفة، والثقافة الإسلامية الوافدة والتي امتد حتى يومنا هذا، ألا يمكن أن نفترض أنّ مهمة (الرادود) في العزاء الحسيني بل قارئ مقتل الشهيد الحسين (ع) وحتى طقس النوح الحزين والنعي الذي يستثير بكاء المستمعين في نهاية المحاضرة الدينية لرجال الدين الشيعة هي ذات صلة وامتداد بمهنة مغنّي «الكالا» السومري القديم، لاسيما وأننا قد وجدنا ممارسة سنوية عراقية قديمة هي تمثيل أسطورة الخليقة[٢] بطريقة تشابه (التشابيه) وهي اللفظة

---

(١) المصدر السابق، ويشير د. رشيد إلى أنّ أحد أنواع الألحان السومرية يجري بطريقة تشبه أداء أغنية (يا عنيّد يا يابه) العراقية التي يغنّيها (حضيري أبو عزيز.

(٢) المصدر السابق.

العامية التي تصف طقوس إعادة تمثيل مقتل الإمام الحسين بن علي في المحافظات الجنوبية.

قد يسأل القارئ الآن: ما علاقة هذه المناقشة الطويلة حول الحزن والنواح بالغناء؟

والجواب هو أننا انطلقنا في هذه المداورة الطويلة من ملاحظة الوردي على غناء الشخص العراقي الجاهل والأمّي وعويله لنُري القارئ ما الذي نقصده بالمنهج العلمي – وإن اختلفت مقترباته في التحليل النفسي أو البحث الأسطوري وغيرها – فهناك «ظاهرة» تتمثل في الحزن والنواح تبعتها «فرضية» للتفسير ثم بحث في الأسباب ومحاولة للإمساك بعوامل عامّة و«متكرّرة» للتفسير و«منطقية» في حين أن الوردي يشاهد سلوكاً فردياً فيصفه ولا يبحث في أسبابه بل يتمسك بنتائجه ليقيم عليها فرضيات ضخمة، ولا أعلم ما الذي يتوقعه الوردي من شخص أمّي جاهل تنهال عليه سياط الجلاوزة غير الشكوى إلى الله من ظلم الظالمين! لكن إذا كانت هذه الاستجابة هي القاعدة في شخصية الشعب العراقي وهو التخاذل أمام سياط الجلاوزة ولعب دورهم مع من هم أضعف منهم فكيف نفسّر اشتعال ثورة العشرين بوجه القوة البريطانية العظمى آنذاك؟ وكيف نفسر انتفاضات الشعب العراقي وثوراته المتكررة بوجه (الجلاوزة) السلطة في القرن العشرين؟

إن الازدواجية في الغناء – وفي أوجه كثيرة من السلوك الفردي والعام – هي التي يمثلها الوردي حقّاً، فهو يحبّ الغناء ويردّده،

وتجمعه علاقة مع المطربين والمطربات، ويحبّ المقام ويدندن به، ويطلب أسطوانات لقرّاء مقام معينين في حياته اليومية الخاصة، لكنّه يذمّ الغناء ويعلن سخطه على المقام في سلوكه العام وذلك من خلال مؤلفاته وتنظيراته، أي أننا هنا أمام نوعين متناقضين من السلوك. ولكن الخطأ الأكبر الذي وقع فيه الوردي هو أنه جعل، في كثير من الأحيان، ازدواجية المواطن العراقي ذات وجهين سلبيين، فهو يرى أن الازدواجية العراقية قد مرّت بمرحلتين: ازدواجية قديمة (في العهد العثماني) سببها التناقض بين التوجهات والتعليمات الدينية والقيم المحلّية، وهو في كل موضع يعدّ القيم المحلية فاسدة ومتخلفة والتعليمات الدينية غير حضارية، وازدواجية حديثة سببها التناقض بين قيم الحضارة الجديدة والقيم السلوكية القديمة (العصبية والقرابة والجيرة والنخوة والدخالة والزاد والملح وغيرها)، وفي الحالتين فإن ازدواجية شخصية العراقي ذات وجهين سلبيين لا يحملان أيّ طابع إيجابي: وجه بدوي متخلف متعصب نهّاب وهّاب، ووجه حضري خانع مغلوب، كثير الشكوى، أي أنّ العراقي حسب آراء الوردي لا يمتلك مثل المواطن المصري: ازدواجية ذات وجه إيجابي (ابن البلد) وآخر سلبي (الفهلوي) بل يمتلك شخصية ازدواجية ذات وجهين سلبيين، أحدها هو (قناع) فرضته طبيعة الصدمة الحضارية التي تحتاج إلى مرحلة انتقالية طويلة كي تترسخ القيم الجديدة في السلوك العام والخاص. لكن لماذا لم يلتقط الوردي هذه الحقائق التي طرحناها والتي كانت أمام بصره في البحث والتحليل؟

نعود الآن إلى تشوّش (البصيرة) الذي تخلقه ثورة الابن الجامحة العاصفة على السلطة الأبوية. ثورة تبغي القضاء على الأب واستئصال موروثه بصورة جذرية، هي ثورة اجتماعية عارمة بحق؛ أشعلها الابن الناقم بعد أن عاش هو نفسه الصدمة الأولى خلال دراسته في الولايات المتحدة، وقد طالت ثورته المجالات الاجتماعية كافة. كانت عيناه تتجهان دائماً إلى الأمام، إلى الهدف المتمثل في «قتل الأب» دون أن يمنح نفسه فرصة النظر إلى الداخل والتأمل في شخصيته هو بالذات حيث يبدو أن الموروث الأبوي كان ثقيلاً وشديد التأثير في بنيته الشخصية فكانت الازدواجية العامة على أساسها. كما فرضت سمات شخصيته والآليات النفسية التي تحكمها، فعلها في مواقفه الفكرية، فكان مشروعه سلسلة من عملية «الإبطال أو الإلغاء» لما يتكرر في السلوك العملي ويثير القلق في أعماق لا شعوره، وقد كان في الكثير من مواقفه يحمل قناعاً[1] تفرضه آلية التكوين الضدّي أو الإرجاع الارتكاسي.

ويمكن القول إن الوصف الصحيح لسلوك الوردي الفكري والعملي هو أنه سلوك «متضاد» تعايشت فيه الدفعات السلبية والإيجابية على حدّ سواء، إنّ الكثير من مراجعات الوردي وتحليلاته وانتقالاته من الحوادث إلى النتائج فالتعميم كانت تتم وكأنها محكومة بعقلية «سحرّية» بعضها ذو طابع خرافي يعارضه هو نفسه في الكثير من المواقف.

---

(١) الشخصية **Personality** من **Persona** ومعناها القناع.

ومـن المفارقـات أن الـوردي الـذي هـو مـن أهـم رواد الحركـة التنويرية في تاريخ المجتمع العراقي الحديث، شئنا أم أبينا، يدخل نقاشاً حامياً مع الشيخ العلامة «جـلال الحنفـي»[1] محـوره: الجـنّ، رجل العلم يدعو إلى الإيمان بالجنّ ورجل الدين يرفض (كذا!!) في حين أنّ الأخير أحقّ بموقف الأول لأن الدين نصّ على وجود الجـنّ في آيات القرآن الكريم.

يرى الوردي أنّ - علم الخارقية- [2] وهو صاحب أول كتـاب عن الباراسيكولوجي في تاريخ الثقافة العربيّة علم معترف بـه في الأوساط العلمية في جميع أقطـار العـالم والحنفـي يعـدّه نوعـاً مـن

---

(١) ولد العلامة الموسوي الشيخ جلال الحنفي سنة١٩١٤، وتوفي في الرابع من آذار ٢٠٠٦. أكمل دراسته الابتدائية سنة ١٩٣٠ثم التحق بكلية الإمـام الأعظم. نظم الشعر منذ صباه، أصدر مجلة الفتح عام ١٩٣٩. وصدر منها ثلاثة عشر عدداً ثم توقفت ليعيد إصدارها بعد احتلال بغداد في التاسع من نيسان عام٢٠٠٣، التحق بالجامع الأزهر للدراسة فيه عـام ١٩٣٩، وقـد شغل العديد من الوظائف الدينية حتى وفاته. عمل في الصحافة والتعليم والخدمة في المساجد. سافر إلى العديد من دول العالم. انتدب عام ١٩٦٦ لتدريس اللغة العربية في معهـد اللغـات الأجنبيـة في بكـين، وتعلّم اللغـة الصينية هناك.

(٢) نـشر الـوردي سلـسلة مقـالات في مجلـة (التـضامن) في لنـدن منتـصف الثمانينات من القرن الماضي عن (الباراسايكولوجي) أو (علم الخارقية) كما يسميه، وفي الحلقة المنشورة في العـدد (١٨١) في ٢٧ أيلـول ١٩٨٦ ذكر أنّ (يوري ميللر) الذي يمتلك قدرات خارقة هو بريطاني، والمشهور أنه إسرائيلي، واسمه (يوري كيللر) وليس (ميللر).

«الساختات والتخريفات والحنقبازلغيات» وهو «استخفاف بالعقل الـذي وهبـه الله عبـاده ليميـزوا الحـقّ مـن الباطـل والخبيـث مـن الطيب»[1].

إنّ الوردي – تحت غطاء علم الخارقية وعبر كتابات كثيرة – كـان يمـارس مـا يعتقـد بـه هـو نفسـه في أعماقـه – لقـد تحـدث بإسهاب عـن خـوارق «الـشيخ الطهطـاوي المـصري» الـذي عـاش في بيت والد الممثل «يوسف وهبي» الذي نقل عنه أفعالاً خارقـة، فهـو – مـثلاً – يقـذف الجنيـه[2] في الهـواء فتتـساقط الفاكهـة مـن كل نوع!!

ولكن أين كان يعيش هذا الشيخ قبل أن يستضيفه الباشا في بيته؟ كان يعيش في مقبرة، يقضي معظم أوقاته عارياً يعيش مما يتصدق به زوار المقبرة من فضلات طعام أو نقود قليلة. ولم يسأل الوردي نفسه لماذا لم يرم هذا الشيخ الخارق جنيهاً في الهواء ليستر عريـه ويـسدّ رمقـه[3] ومـن الغريـب أن الـوردي يـدعو في سـنواته الأخيرة إلى الزواج عن طريق الإنترنت وإنشاء نوادي متخصصة لها مثلمـا يحـصل في الغـرب كمـا يؤيـد في إحـدى مقالاتـه الممارسـة الجنسية قبل الزواج بين من ينوون الزواج من الرجال والنساء، ولا

---

(١) المجالس مدارس – سلام الشمّاع – جريدة (الجمهورية ١١كانون الثاني ١٩٩٢).

(٢) الجنيه عملة مصرية.

(٣) جريدة الثورة – ١٩٨٥/٩/٢.

نعرف على وفق أيّ مقاييس ولا لأيّ أهداف اجتماعية يدعو إلى ذلك في مجتمع كمجتمعه وهو الذي تزوّج زواجاً تقليدياً لم يرَ فيه وجه زوجته إلاّ في ليلة الزفاف!!. والوردي الذي كان يسخر من المآتم وكان حين يحضرها يردّد: جاق بيق.. جاق بيق.. بدلاً من أن يقرأ سورة الفاتحة، كان يصلي صلاة الصوفية ماشياً على جسر الأئمة، ويستشهد بالآيات القرآنية في كتبه ومقالاته وأحاديثه وكان يقول في سنواته الأخيرة: بأيّ وجه سوف أقابل ربّي؟ ويشرب كأساً من الخمرة كل ليلة.. ومن نتائج الرغبة في قتل الأب هو الشعور بالذنب – راجع سمات الضمير التي ذكرناها- الذي يفرضه الضمير /الأنا الأعلى/ وهو القاضي الحاكم في الجهاز النفسي، تلك المشاعر التي كبتها الوردي طويلاً ثم طغت فأوصلته إلى حالة الاكتئاب وتمنّي الموت حيث كان يفكر في الانتحار ويسأل عن مادة (السيانيد) القاتلة، وهذا قبل أن يُصاب بالتبوّل الدموي الناجم عن سرطان المثانة ليحلّ المرض المميت محلّ الرغبة في معاقبة الذات وتدميرها بفعل الشعور بالذنب، وقد تصاعدت هذه المشاعر بفعل الإحباط والاعتراف بالأخطاء، ويتمنّى أن يمتد به العمر ليراجع ما كتب. وقبلها قال إن النوازع التي وقع تحت تأثيرها في مرحلة الشباب ثلاثة: نزعة السعي وراء ملذات الشباب بقدر المستطاع، ونزعة التديّن من أجل ضمان الآخرة ونزعة الثقافة الحديثة، وأنّه كان تائها ضائعاً بين هذه النزوات الثلاث، لا يدري كيف يوفّق بينها، وعندما بلغ الشيخوخة أخيراً، وضعفت عنده النزعة الأولى، أدرك

أنّه أصبح كالغراب الذي أضاع المشيتين مع الأسف الشديد[1].

ولا أبرئ نفسي:

من فتوحات التحليل النفسي اعتبار الأحلام طريقاً ملوكية إلى اللاّ شعور ومكبوتاته وأنها بالرغم من مظهرها الساذج والمفكك أحياناً، ذات معنى ولها وظيفة تتمثل في إشباع الرغبات المكبوتة وأن لها مضمونين: مضمون ظاهر - «Manifest Content» و«مضمون كامن – Latent Content – وأن «عمل الحلم – Dream Work» هو نقل الرغبة المكبوتة من المضمون الكامن لإشباعها عبر المضمون الظاهر وذلك عبر آليات الإزاحة والتكثيف والصياغة الثانوية، والتصوير اللفظي والترميز، المهم أنني وخلال عملي المضني في هذا المشروع في إجراء الحوار مع الأستاذ (سلام الشمّاع) ثم في طرح تأملاتي التحليلية حول شخصية العلامة الوردي غرقت إلى أذني كما يقال في تفصيلات حياة الوردي وأفكاره، وذات ليلة حلمت حلماً بالوردي: كنت في الحلم صاحب مجلس، ولم أكن في حياتي صاحب مجلس ولم أحضر قط مجلساً، يجلس فيه الوردي في الزاوية مرتدياً غطاء رأس أسود (كوفية) ويجلس لصقه تماماً – سلام الشمّاع – وهما يتهامسان ولا أسمعهما، فأقوم إليهما وأعرض أمام الوردي مسوّدة كتابنا «محاولة في تحليل شخصية الدكتور علي الوردي» وأقول له بأننا أكملنا الكتاب وسوف ننشره، ثم أعرض عليه إضبارة فيها أكثر من (٥٠٠)صورة

---

(١) المصدر السابق.

للوردي في مراحل مختلفة من حياته فيستعرضها مندهشاً ويقول: من أين حصلتم عليها؟ أنا لم أرها مطلقاً سابقاً»، فاتركه يستعرض الصور وأذهب لأجلب قنينتي مشروبات غازية من المطبخ. في المطبخ كانت كلّ عائلتي تتحدث بضجيج فظيع حتى أمّي المتوفاة، أطلب من زوجتي أن تعطيني قنينتين من الثلاجة، تفتح باب الثلاجة المملوءة كلها بقناني المشروبات ولكنها تصرخ: هناك قنينتان ناقصتان، من أخذهما؟ ويبدأ نقاش طويل وصاخب بين زوجتي والحاضرين حول القنينتين المفقودتين – ثم أستيقظ من النوم».

خاتمة مهمّة:

قد يقول قارئ إنك قدمت لنا صورة سلبيّة عن العلامة الدكتور «علي الوردي» لا تتناسب مع جهوده التنويرية والتثويرية الهائلة، فأقول إنّ محاولة تحليل شخصية العلامة الراحل لا تسيء إلى جهوده المشهودة أبداً. إنها فرصة لتأمل دواخلنا وللنظر في الكيفية التي يتدخل بها لا شعورنا في صياغة قناعاتنا ورؤانا وسلوكياتنا بصورة مستترة وكيف يوقعنا في مصائده الماكرة وألعابه الخلاقة. نعم، اللاّ شعور خلاّق وفاعل ومسؤول عن إنجازاتنا الإبداعية، وأطروحاتنا الفكريّة التي نعتقد، خطأ، أن الشعور مسؤول عنها بصورة كاملة في حين أنه وكالة حسيّة فقيرة، وأقول الآن:

أولاً: إن الموضوعية حال في الذاتية، بقدر ما يمكن أن نقول:

إنّ الذاتية، حال في الموضوعية. فالمعرفة في صميمها إنما هي علاقة بين ذات وموضوع، المخاطب فيها إنما هو حال في المتكلم، فإذا ما اكتملت معرفة الذات كان ذلك إيذاناً بمعرفة الآخر في الذات، ومن ثم ستظل الموضوعية الحقّة، هي الفطنة إلى حتمية الذاتية. تلك الموضوعية التي تغيب عن منظّري جمهرة من المدارس التي استندت إلى وهمها في رحلة اصطناعها لمفاهيمها، بتقليدها للعلوم الطبيعية متناسين أن لا وجه للقياس بين قطعة الحديد والإنسان أو حتى كلب بافلوف وفأر ثورندايك، وأن نظرية تعلّم تنطلق من الكلب اختلفت نتائجها وقوانينها من نظرية تعلم أخرى انطلقت من القرد، آنئذٍ أحسب أنّ القارئ سيعضد معنا رأي «إميرسون» إذ يرى أنّ ما في مخ العالم آنئذٍ، إنما هو ذاته ما في مخ الكلب أو الفأر أو القرد[1].

وثانياً: نحن نرى في التحليل النفسي أنّ القصّاب والملاكم والقائد العسكري والطبيب الجرّاح والناقد (والناقد الاجتماعي) كلّهم «يصعّدون - **Sublimation**» غريزة غير مقبولة هي الغريزة العدوانية لتصبح مهنة نافعة للمجتمع، القصّاب يقطع الأجساد واللحوم ويهرس العظام ويسفح الدماء ليبيع اللحوم للناس، الملاكم، يدمّر خصمه ويكسر فكّه أو أنفه وقد يقتله بنزف دماغي فيصفق له المشجعون ويُمنح الأموال الطائلة، أمّا القائد العسكري فهو يقود جنوده إلى الموت فيقتلون ويجرحون

---

(١) جريدة الثورة – ١٩٨٥/٩/٢.

مـن أجـل الـدفاع عـن الـوطن أو أداء الواجـب المقـدّس، والطبيـب الجـرَّاح يـشق الجـسد بالـسكين ويقطـع الأعـضاء ويـستأصلها ويرميهـا في سلّة المهمـلات مباركـاً بالإعجـاب بمهارتـه وبـشكر المريض الذي أنقذ حياته وخلّصه من الآلام، أمّا الناقد الاجتماعي فإنه يكشف سلبيات المجتمع ويعرّيـه ويهـدم مـا هـو قـائم ويـشعل صراع الأبناء ضد الآباء، ويشن المعارك الساخنة.. كلّهم يفرّجون عن العدوان المكبوت في مجالات مفيدة.. لكن شتّان بين القصّاب الـذي يبيعنـا اللحمـة في نهايـة شـارعنا وبـين الـوردي، العلاّمـة المفكـر، رائـد التنـوير الاجتمـاعي في العـراق، الـذي مـلأ الـدنيا وشغل الناس.

وما هو رأي القارئ في هذه الحادثة العجيبة؟:

عندما قلت: في أثناء الحوار مـع الأسـتاذ (سـلام الـشمّاع) وهـو يشرح لي الحادثة التي بدأ الوردي فيها الصياح في وجه شخص غير موجـود بعـد أن توقفـت الـسيارة الـتي تقلـهما فجـأة وسـط الظـلام الدامس وكان الوردي منطلقاً في انتقاد تصرفات أجهزة الدولة، وبدأ بالصياح: «لا تضرب.. أنا لم أفعل شيئاً..»قلت: إن هذا تعبير عن خوف مكبوت وهو تكوين ضدّي كعمل دفاعي نفسي، فإنّ هـذا التحليـل لم يحـض بموافقـة (الـشمّاع) مثلمـا قـد لا يحظـى بموافقـة الكـثيرين مـن القـرّاء بفعـل الـصورة المثاليـة الـتي رسمـت للـوردي، لقـد اعتـدنا حـسب قـول الأديـب الفرنـسي

«أندريه جيد»[1] أن نرى النصف الأعلى فقط من شخصية المبدع. لكنني سأصدم القارئ بدرجة أكبر فأنقل له ما قاله لنا الشيخ «جواد الخالصي» عندما زرناه: سلام الشمّاع وأنا، في بيته بدمشق للحصول على معلومات إضافية غير معروفة عن العلامة الوردي فقدّم لنا الكثير، لكن الأخطر الذي أذهلنا هو الذي سيذهل القارئ بدرجة أكبر.

قال الشيخ الخالصي: «في الثمانينيات تم اعتقالي في مديرية الأمن العامة ببغداد لأسباب سياسية، وذات يوم، وبعد أن طالت مدّة اعتقالي جاء أخي الشيخ «هادي» للسؤال عني في استعلامات مديرية الأمن العامّة، فأجلسوه في غرفة الانتظار، وبعد لحظات

---

(١) ولد أندريه جيد في باريس في ٢٢تشرين الثاني ١٨٦٩ في عائلة برجوازية بروتستانتية، ولم تكن دراسته في المدرسة منتظمة، فعاش طفولة مشوشة. في مراهقته استهوته اللقاءات الأدبية فأخذ يرتاد الصالونات الأدبية والأندية الشعرية. كان يملك ثروة أغنته عن العمل فانكبّ على القراءة والمطالعة. سافر إلى الجزائر سنة ١٨٩٣ واكتشف هويته المثلية عن طريق علاقات جنسية مع مراهقين عرب. اقتنع بعد تعرفه على أوسكار وايلد نهائياً بأنه ينبغي أن يعيش «حسب طبيعته» فتزوج قريبة له عام ١٨٩٥. وواصل نشاطه الأدبي ونشر بين ١٩٢٤ ـ ١٩٢٦ ثلاثة كتب هامة أشاد في إحداها بحبّ الغلمان وتطرق في الثاني إلى الكتابة والمثلية، وسطر في الثالث سيرته الذاتية. أغرته الشيوعية مدة من الزمن إلا أن رحلته إلى الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٣٦ أقنعته بلا إنسانية النظام الستاليني. التزم بعد ذلك بالنضال ضد الاستعمار. حصل على جائزة نوبل للأدب سنة ١٩٤٧.

شاهد العلامة الوردي الذي كانت تربطنا به علاقة حميمية ووثيقة، خارجاً من مديرية الأمن فقام احتراماً له وسأله الوردي: ماذا تفعل هنا؟ فأجابه شقيقي: استفسر عن مصير أخي الشيخ (جواد الخالصي). وسأله: وأنت ما الذي تفعله هنا دكتور؟ فأجابه الوردي: أنا أعطي محاضرات تثقيفية لضباط الأمن العامّة.

هنا، ومع هذه الحادثة التي ستستفز المختزن في لاشعورنا عن صلة الجلاد بالضحية ومرارات التجربة السياسية التي عصفت بالبلاد والسمة المازوخية المتأصلة في شخصياتنا، ستكون الساحة التحليلية فرصة لتفجّر كل ما هو مكبوت في نفس القارىء – العراقي خصوصا والعربي عموما- ، بصورة تجعل التعليقات على سلوك العلامة الوردي هذا، ووجهات النظر التفسيرية حول دوافعه، مادة لعمل تحليلي شديد الثراء سوف نقوم به بعد أن يطرح القراء أفكارهم لتبرير هذا التصرف. وهذه المادة قد تصبح أيضا محاولة تطبيقية أولى في العمل الثقافي العربي تقوم بتفحص الآليات النفسية العميقة لاستجابة القارىء بصورة شاملة ودقيقة. وقد تكون، في الوقت نفسه، مدخلا لتفحّص دوافع الناقد وآلياته الدفاعية.

الفصل الثالث

ليس دفاعاً عن الوردي

(إن الازدواج ينشأ في المجتمع عند وجود نظامين متناقضين من القيم الاجتماعية فيه. فالفرد الذي ينشأ في مثل هذا المجتمع يتلقى منذ طفولته نوعين من الإيحاء الاجتماعي ، أحدهما يدفعه نحو تقدير أخلاق معينة ، والآخر يدفعه نحو تقدير أخلاق مناقضة لها. وهو لذلك قد يتخذ في حياته العملية سلوكين مختلفين من حيث لا يدري).

علي الوردي

[من وحي الثمانين]

هذه محاولة علمية جسور لا أحسب أنها مسبوقة.. خطوة باتجاه تحليل رموزنا الثقافية والفكرية والسياسية والفنية والتعمّق في اكتناه شخصياتها ومعرفة أسرار إبداعها..

إنّ ما أقدم عليه الدكتور حسين سرمك، وهو طبيب نفسي، أديب، سابقة ثقافية هي الأخطر من نوعها، فقد تصدى، في هذا الكتاب لأخطر مهمة، وهي تحليل شخصية العلاّمة الراحل الدكتور علي الوردي، الذي يعدّ أخطر عالم اجتماع في تاريخ العراق، بل هو الأخطر في تاريخ الأمة العربية، بعد ابن خلدون.

أسميّها محاولة، لأني أرى أنها لمّا تزل تحتاج إلى الكثير حتى تقف على قدميها، كما يقال، ولأنّ التصدي لتحليل شخصية رجل قضى حياته يحلل المجتمع العراقي، والطبيعة البشرية مهمة عسيرة، فضلاً عن خطورتها، وأنّ مجرد التفكير بخوض غمارها من دون استكمال العدّة لذلك يعدّ انتحاراً.

ولكن الدكتور حسين سرمك المُعتدّ بأدواته العلمية وقلمه وقدرته على الغوص في بحر لجيٍّ، مثل شخصية الدكتور علي الوردي، عندما يقرر أن يحاول، فإنّ علينا أن لا نثنيه عن محاولته، وأن نقدّر له عزمه، وأن ننتظر ما يأتينا به من صيد، بعد خوضه

هذا البحر.

إني شخصياً لا أستبعد أن يحذو باحثون كثر، الآن أو في المستقبل، حذو الدكتور سرمك، وينسجون نسجه، وقد يطوّرون المحاولة، فتغدو مدرسة في التحليل النفسي قائمة بنفسها، عراقية المنشأ، عالمية الانتشار، فمسيرة الألف ميل تبدأ، دائماً، بخطوة واحدة.

أقول قولي هذا مع أني غير متفق مع الدكتور سرمك في الكثير مما ذهب إليه في تحليله، فقد رافقت الوردي طويلاً، وتعلّمت منه الكثير، وأصبح بإمكاني، بعد تلك الصحبة، أن أعرف معالم شخصيته في الأقل.

أعرف تماماً أنه ليس من حقي أن أفرض آرائي على علم النفس، لأني، ببساطة شديدة، لست مختصاً في هذا العلم، إلا أن ذلك لا يعني أني لن أناقش تحليلاً بهذه الخطورة، بما أمتلك من معلومات وحقائق وومضات تولدت من معايشتي للوردي الذي ملأ دنيا العراق وشغل ناسه.

كان دوري في الفصل الأول من هذا الكتاب مؤرخاً لحياة الوردي، كما شاهدته وسمعت منه، واطلّعت على شؤونه وشجونه، وكما قرأته وعشت أيامي معه. وقد حاولت قدر إمكاني ومستطاعي الابتعاد عن العاطفة والاجتهاد الشخصي، وبكلمة أشدُّ وضوحاً: حاولت أن أكون راوية أميناً، أتحدث في حدود الوثائق التي أملكها.

انعطافة لابدّ منها:

صرخ الأستاذ محمد الخاقاني[1] مستغرباً، وكان من أشخاص قليلين مقربين إلى شيخنا الوردي، عندما أعلمته بفكرة هذا الكتاب: «ومن هذا الذي تجرأ على الوردي بعد وفاته؟!».

والواقع، إنّ من حق «الخاقاني» أن يصرخ مستغرباً، وهو يرى علماً شامخاً مثل الوردي ممدداً على مشرحة علم النفس، بعد أن كان المجتمع العراقي كلّه ممدداً على مشرحته، وتحت رحمة مبضعه.

خرج الوردي من تحليل المجتمع العراقي بحصيلة علمية مازالت تشغل الناس وتملأ الزمان، ومازالت، منذ ولادتها، إلى الآن، محطّ جدل، ومثار مناقشات، وباب مساجلات، فما ضرّنا أن نفسح المجال لعالم يضع الوردي على مشرحته، ثم ننتظر الثمرات، وهذه الثمرات قد لا تظهر في هذا الكتاب، وإنما في كتب لاحقة يضعها سرمك، أو سواه ممن ستدهشهم المحاولة، وتغريهم بولوجها، واكتناه مجاهليها، التي ربّما لم يوفق سرمك في اكتشافها، وقد يفنّدون ما ذهب إليه، ويأتوننا بما غفل عنه،

(١) هو الأستاذ محمد بن الشيخ عيسى الخاقاني، ولد في عام ١٩٦٣، أدار مجلس الخاقاني الثقافي الأسبوعي في دار والده في الكاظمية وكان أحد مؤسسي ذلك المجلس، أكمل دراسته في كلية اللغات متخصصا بالأدب الفارسي حيث نال شهادة الماجستير في الأدب المقارن عن رسالته الموسومة (حافظ الشيرازي وغوتة) في ١٩٩٩.

ويطلعون علينا بما هو جديد.

المحاولة صعبة، والخطوة الأولى في كل أمر ليست يسيرة، وإذا لم نفسح المجال للمحاولات فلن نتوصل إلى شيء، وكان «عباس بن فرناس» قد دفع حياته ثمناً لمحاولته الطيران، ولو أنه لم يحاول، هل كنّا سنرتقي إلى السماء بالطائرات المتطورة، وننتقل بين بقاع أرض الله الشاسعة بسرعة فائقة؟!!

إذن، أنا مع المحاولة، وأشجّع عليها، ولكن لي عليها ملاحظات وملاحظات، لن تقلّل من أهميتها في أية حال.

الشخصية الكاظمية:

على الرغم من المجهود الكبير الذي بذله الدكتور حسين سرمك في هذا الكتاب، ابتداءً من فكرته، مروراً بالحوار الموّسع الذي أجراه معي، وانتهاءً بالتحليل الذي خرج به لشخصية الوردي، إلاّ أنه أغفل أموراً هامة كان ينبغي أن يلتفت إليها ليصل إلى التشخيص الدقيق.

وأول هذه الأمور - من دون مقدمات - أنه لم يدرس شخصية الفرد الكاظمي، فمدينة الكاظمية على الرغم من وقوعها على مرمى حجر من العاصمة بغداد، إلا أن شخصية أبنائها – ومنهم الوردي طبعاً – تميّزت عن شخصية أبناء بغداد، ليس لأنّ بيئتها محافظة، أو (متزمتة) فقط، وإنما كانت هذه المدينة تتلقف

التطور الحضاري والتجديد وتستقبل منجزات الحضارة الحديثة بعد بغداد مباشرة، وهي قد أوجدت حلاً لإشكالية المكان المحافظ، أو (المتزمت)، وسايرت التقدم، بعد حين، من دون عقد، إلاّ أن بعض ما جاءت به الحضارة الحديثة فشل في اختراق أسوار المدينة، واستطاع القسم الأعظم من تلك المنجزات بسط سيطرته على حياة النّاس في المدينة شيئاً فشيئاً حتى زال الانغلاق.

أريد أن أقول، إضافة إلى ما ذكره الدكتور علي الوردي، أو إلى ما لم يذكره بتفصيل: إن مدينة الكاظمية تضمّ مرقدي إمامين من أئمة الشيعة الإمامية المعتقد بعصمتهم، وهما الإمام السابع من الأئمة الإثني عشر موسى بن جعفر، والإمام التاسع محمد بن علي الجواد (عليهما السلام)، ولم يستطع ما جاءت به الحضارة الحديثة اختراق أسوارها بسهولة، بل إنّ بعض ما جاءت به هذه الحضارة لم يستطع اختراق هذه الأسوار إلى هذه اللحظة، مثل دور السينما، ودور اللهو الأخرى، في حين استطاع المذياع ومن بعده التلفاز الانتشار في المدينة شيئاً فشيئاً، لكن بعض الميسورين أدخلوا السينما إلى بيوتهم، كما حوّلوا بساتينهم في ظاهر المدينة إلى دور للهوهم، ولهو أصدقائهم المقرّبين بعيداً عن أعين المجتمع، فكانوا يستمتعون بالخمر والنساء في هذه البساتين، ثم إنهم حين ينتهون من لهوهم السرّي، كانوا يسيرون في طرقات المدينة، ويحييهم النّاس بتبجيل واحترام، غير عالمين أنّ هذا الحاج، أو ذلك الجلبي، أو ذيّاك الأفندي، كانوا قبل ساعات في أحضان المجون

السّري المستبشع عندهم.

إن نظـرة الازدراء الاجتمـاعي كـانـت تـصيب بحممهـا الفقـراء فقط، فهؤلاء لم يكونوا يملكون أوكـاراً سـريّة ليليـة، فكـان يجتمع عدد منهم على نهر دجلة المحيط بالمدينة من أكثر من جانـب، ويرسـلون أحـدهم إلى بغـداد ليجلـب لهـم المـشروبات الروحية[1]، فكان من السهل أن يراهم من يمرّ أمامهم فينقل ما شاهده منهم إلى الآخرين، فيصبحوا محطّ ازدراء، ومادة للحديث بين الناس في المجالس والمقاهي والبيوت والأسواق، ولعلّ ذلك وجه من وجوه الظلم الاجتماعي الذي حاربه الوردي.

أما دور اللهو والسينـما في بغداد، وحتى المبغى العام، فكـان الكثيرون يرتادونها من دون أن يـراهم أحـد، وربّمـا مـن بـين مـن كان يرتاد هذه المباغي ودور السينما واللهو أولئك الذين ينظرون نظرة ازدراء لأولئك الفقراء الذين يمارسون لهوهم على نهر دجلة، على أطراف بساتين المدينة.

رأيت مرّة إمام جامع في المدينة كـان في الوقت نفسه خطيـب جمعة يجلس في أحد فنادق بغداد في شارع السعدون وهو يحتسي الخمرة، التي ينهى الناس عن احتسائها في خطبه، وكان يرتدي

(١) الغريب أنّ هؤلاء كانوا يرتدون السواد في شهر محرّم ويسهمون بحماسة لا نظير لها في الطقوس التي كانت تُقام في العاشر من محرّم بمناسبة مقتل الإمام الحسين عليه السلام، ويمتنعون عن تناول المشروبات الكحولية في شهر رمضان، ولكنهم لا يصومون ولا يصلّون.

لباساً عصرياً، وهو حليق اللحية أصلاً، وقد توفي هذا الإمام ودفن، كما يدفن أي تقي خاشع زاهد!!..

من السيّدية إلى الفيصلية:

وإذا ابتعدنا عن هذه الناحية، فسنجد أن ثمة صراعاً اجتماعياً عاناه الوردي وأبناء جيله بخلعهم زيّهم التقليدي، وارتدائهم زي الأفندية، وكان الوردي، مثلاً، قد اسبتدل في العام ١٩٢٦- أي عندما بلغ عمره ١٣ سنة - (السيّدية) التي كان يضعها على رأسه، والتي كانت تحظى باحترام العامة وتقديسهم، واستعاض عنها بـ«الفيصلية»، وهي غطاء رأس أول من ارتداه الملك فيصل الأول مؤسس الدولة العراقية الحديثة، وجاراه الأفندية في ذلك، للتعبير عن أنّ المجتمع انتقل إلى عهد جديد ومرحلة حضارية مختلفة، وقد كان هؤلاء (الأفندية) يضعون على رؤوسهم الطرابيش في العهد العثماني البائد..

ولستُ مضطراً إلى القول: إنّ أي تجديد كان يواجه بمعارضة شديدة من المجتمع، وإنّه كان يشقّ طريقه في حياة الناس بصعوبة بالغة[1].

---

(١) أخبرني المرحوم النحات خليل الورد أنه عندما أخذ يضع على رأسه القبّعة مع الملابس العصرية أخذ الناس يسألونه بسخرية: سيدنا.. هل تعلّق هذه القبّعة إلى جانب عمامة أبيك؟.. إنهم كانوا يعتقدون أن العمامة يجب أن تظلّ إلى أبد الآبدين لا يغيرها مغير ولا تتأثر بتطورات الزمان.

وأرى أنه كان على الدكتور حسين سرمك أن يدرس هذه الأمور وغيرها، ويضعها في الحسبان قبل أن يقرّر التصدّي لتحليل شخصية الوردي.

تأثير المكان في الشخصية:

واتصالاً بهذا الموضوع، يتبنى الدكتور حسين سرمك تحليل الدكتور مصطفى حجازي في كتابه (التخلف الاجتماعي – سيكولوجية الإنسان المقهور) للسوداوية في أغاني الجماهير المقهورة، والذي يركّز على تأثير المكان الذي يولد فيه الإنسان ويعيش، فحجازي يقول: «الطبيعة، الأرض، الوطن، هي جميعاً الأم. فهناك علاقة وثيقة على المستوى اللا واعي بين الطبيعة، النمط الحسّي من الوجود، اللا عقلانية، والصور الأمومية. الغذاء، الدفء، الانسجام مع الطبيعة، الأرض الخيّرة، كلها تعبير عن صورة الأم الطيبة التي تعطي الحبّ والدفء مع الحليب منذ فجر الحياة. وما رومانسية بعض الأدباء والشعراء وتغنيهم بالطبيعة سوى أحلام عودة إلى تجربة الاندماج الطفلي مع الأم الحنون المعطاء، على العكس تمثل الطبيعة القاسية، التي تحمل خطر الهلاك وخطر الكوارث المختلفة صورة الأم القاسية الغاضبة والنابذة التي تمنع حبّها، وتحرم حنانها الذي يُدخل إلى الطفل السكينة.. عدم القدرة على السيطرة على الطبيعة يجعلها تبدو اعتباطية في نظر الإنسان المتخلف، وهو يثير في لا وعيه أكثر

المخاوف طفلية وبدائية، الخوف من هجر الأم له، الخوف من الوحدة والخواء الداخلي. قلق الهجر يثير أقصى درجات العدوانية الأثرية التي تتوجه إلى الأم النابذة في حركة انتقامية تدميرية. ولكنّ هذه العدوانية غير محتملة، وهي لذلك تتوجه إلى الخارج، فتسقط على صورة الأم التي تأخذ عندها طابعاً قاسياً مفرطاً في عنفه (...) الحياة القاسية، كالطبيعة الغاضبة ليست مصدر معاناة لأسباب اقتصادية معيشية محضة، بل كذلك لما تفجّره من عدوانية طفلية كامنة في أعماق اللا وعي، ترتد على الذات على شكل تهديد خارجي. الإنسان المقهور الذي يرضخ لاعتباط الطبيعة معرّض بالتالي لتحرك هذه الانفعالات الأثرية في نفسه، وهو تحرّك يفقده كل شعور بالأمن ويضعه أمام خطر الفناء».

إني أفهم من هذا النص، أنّ للمكان الذي يولد فيه الإنسان ويعيش تأثيراً في بناء شخصيته، ولكننا نرى الدكتور سرمك يتبنى هذا التحليل، ويغفل دراسة الأرض التي ولد فيها الدكتور علي الوردي وتأثيرها في بنائه النفسي وبناء شخصيته، واكتفى سرمك بالاستناد إلى لقطات ذكرها في بداية تحليله اقتبسها من الوردي يتحدث فيها عن مدينته، وما ذكره الوردي عن هذه المدينة لم يكن كل شيء عنها.

تعالوا نستمع إلى العلاّمة الشيخ محمد حسن آل ياسين وهو يحدثنا عن هذه المدينة والأرض التي أقيمت عليها والأحداث التي شهدتها.

يقول آل ياسين: «إنّ أولّ ما نعلّمه عن منطقة الأرض التي تجثم الكاظمية اليوم في طرفها الشرقي أنها كانت برواية بعض المؤرخين جزءاً قريباً من الحدود الفاصلة بين دولة الآشوريين من شمالها والكيشيين من الجنوب، في العصور البابلية الأولى، أي قبل الميلاد ببضعة عشر قرناً، ويروى أن منازعات وحروباً قد وقعت فيها أو قريباً منها بين الدولتين.

والظاهر أن هذه المنطقة قد حظيت لسبب أو لآخر باهتمام خاص من حكومة الكيشيين، حيث نجد أن الملك كوريكالزو ملك الكيشيين يومئذٍ قد بالغ في العناية بهذا الجزء من رقعة ملكه ببنائه لمدينة عقرقوف العظيمة التي كانت تسمى حينذاك (دور كوريكالزو)، ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم في جوار الكاظمية على نحو ستة أميال عنها من جهة الغرب، وهي تنطق بالمهارة الفائقة المبذولة في بناء هذه المدينة الكبيرة وصرحها الشاهق.

وهكذا تظل عقرقوف هي الأثر الأول الذي وصل إلينا علمه في أصل الأرض التي سميت بعض أطرافها بـ(مقابر قريش)، ثم (مشهد باب التين)، ثم (المشهد الكاظمي)، فـ(الكاظمية) بعد ذلك بعشرات القرون».

كانت زقورة عقرقوف تشاهد من أسطح منازل الكاظمية، وتنسج العجائز الأساطير المثيرة حولها، أفلم يكن لها تأثير في نفوس أبناء الكاظمية.. ألم تثر تساؤلات الصغار والكبار على حد سواء؟

ويضيف آل ياسين:

«وترشدنا كتب البلدان إلى أن القرى والمدن الواقعة جنوب أرض الكاظمية وشرقيها وجنوبها الغربي قبل الإسلام كانت كثيرة متعددة، تتسلسل وتتلاحق حتى تصل إلى مدينة (المدائن) الضخمة شرقي دجلة و(سلوقية) الكبرى غربيها، وكلتا المدينتين الأخيرتين عاصمة كبيرة لدولة كبيرة، وتعدان من العواصم الفخمة الرائعة في تلك العهود.

ومن أقرب تلك القرى إلى أرض الكاظمية (سونايا) التي كانت واقعة في الجنوب الشرقي للكاظمية الحالية، وهي (قرية قديمة... ينسب إليها العنب الأسود الذي يتقدم ويبكر على سائر العنب مجناه، ولما عمرت بغداد دخلت هذه القرية ضمنها ولعلي بن أبي طالب «رضي الله عنه» مشهد فيها يعرف بمشهد المنطقة «جامع براثا اليوم»). ومازالت تسمى حتى اليوم بـ(المنطقة) بين الكاظمية والكرخ.

وآخر عهدنا بأرض الكاظمية قبل تأسيس بغداد أنها كانت تسمى «الشونيزي»، فإن صدقت الرواية فمقتضاها أنّ هذه التسمية قد أطلقت بعد انتهاء العهد الساساني، لأنّ التسمية عربية، والشونيز في اللغة هو الحبّة السوداء، والنسبة إليها شونيزي».

ويستفيد الشيخ آل ياسين من روايات بعض المؤرخين أن المنطقة المجاورة لموضع الكاظمية من جهة الشرق كانت قبل إنشاء مدينة

المنصور بستاناً لبعض ملوك فارس، ثم أقطعها المنصور عمارة بن حمزة أحد مواليه، فسميت دار عمارة.

والواقع إننا لو أمعنا النظر جلياً في الموقع الجغرافي لـ(مقابر قريش) يومذاك من حيث قربها من دجلة وجودة تربتها ومجاورتها للقرى والأرياف والمزارع الوارفة الظلال، لخرجنا بترجيح يشبه الاعتقاد بكون السكنى في هذه المنطقة قديمة قدم الماء والخضراء، ولكنه ازداد اتساعاً بعد تأسيس المنصور مدينته قريبة منها واختيارها عاصمة للدولة العباسية، ثم أخذ طريقة التجمع والتقارب بعد دفن الإمامين عليهما السلام، حيث دفعت العقيدة الدينية بعض الناس إلى السكنى حول (المشهد) لحمايته وإدارته وإيواء زائريه إضافة إلى قصد الانتفاع المادي من أولئك الزائرين بتقديم المأكل والمشرب والمأوى لهم، وكان هذا التجمع حول (المشهد) هو النواة الأولى لمدينة الكاظمية.

يقول الدكتور حسين محفوظ في حديث لي: إنّ المتناقل بين أسرة آل الورد أن أجدادهم كانوا من ضمن مؤسسي مدينة بغداد وبناتها.

ويتحدث آل ياسين عن استقلال مدينة الكاظمية عن بغداد، فيقول:

«ولو لم نعثر فيما بين أيدينا من مصادر على تحديد لتاريخ انفرادها عن بغداد وصيرورتها مدينة ذات كيان خاص، ولكن الراجح أن ذلك قد تحقق في أواسط القرن الخامس إثر الفتن

والاضطرابات التي عمّت العراق وخصّت بغداد نفسها، فدمرت البلاد وأشاعت الخراب، وسببت انكماش بغداد على نفسها، فانفردت الكاظمية عنها على أثر هذا الضمور والانكماش.

ولما كان خراب بغداد قد ظهر أثره في أوائل القرن الخامس، فإن بدء استقلال مدينة الكاظمية كان في هذه الفترة أيضاً، وربما يؤكد ذلك ويؤيده تعيين النقباء الخاصين بـ(المشهد) الكاظمي ابتداءً من أوائل القرن الخامس ولم يكن قبل ذلك، حيث يرشدنا إلى بدء انفراد البلدة وازدحامها بالسكان أيضاً بالشكل الذي تدعو فيه الحاجة إلى تعيين نقيب خاص بها غير نقيب العلويين أو الطالبيين ببغداد.

وصف مدينة الكاظمية من الداخل:

وكانت المناسبات الدينية في هذه الفترة الأخيرة من العصر العباسي غاصةً بجماهير الزائرين، وفيهم الخليفة ووزراؤه. ثم كانت أسر علوية متعددة في هذه الفترة قد اختارت الكاظمية مقراً لسكناها كـ«بني حداد» و«بني نازوك» و«بني الحطب» وآخرين غيرهم.

وبدأ استعمال لقب «كاظمي» في هذه الفترة، حيث جاء في ترجمة السيد عبد الكريم آل طاووس وهو من سكان الكاظمية في أواخر القرن السابع أنه (حُلّي المنشأ، بغداديّ التحصيل، كاظميّ الخاتمة).

والمؤسف أن تظل معلوماتنا عن هذه الفترة وما طرأ على الكاظمية خلالها ضئيلة جداً، بل بحكم العدم.

وفي أوائل القرن العاشر الهجري دخلت الكاظمية عهداً جديداً من الشأن والاستقلال الإداري الداخلي، وأصبحت مدينة لها كيانها ودورها في الشؤون العامة.

وبدأت الخطوة الأولى نحو هذا العهد الجديد في سنة (٩١٤هـ) وهي سنة سيطرة الصفويين على العراق فقد زار الشاه إسماعيل الصفوي الكاظمية وأمر بتشكيل إدارة خاصة بالبلدة ومحكمة شرعية يرأسها قاضٍ يحمل لقب (شيخ الإسلام)، وقد عُيّن الشيخ عبد الله قنديل بهذا المنصب، كما أمر بتشييد (المشهد) الكاظمي تشييداً رائعاً فخماً، وتعيين الرواتب لخدام (المشهد) والمسؤولين عنه.

وعندما زال الاحتلال الصفوي وتم للسلطان سليمان القانوني احتلال العراق سنة (٩٤١هـ) لم يتغير وضع الكاظمية السابق، ولما زارها السلطان أمر بإكمال بعض ما لم يتم من عمارة (المشهد) وأقر رواتب سدنة (المشهد) والعاملين بها.

يقول الشيخ محمد حسن آل ياسين في كتابه (تاريخ المشهد الكاظمي):

«حفلت القرون الأربعة الأخيرة منذ الاحتلال الصفوي إلى نهاية الاحتلال العثماني بما لا يمكن وصفه من مآسي الأوبئة

والطواعين والغرق، وكانت من العنف والشدة والتتابع بشكل حدّ من تطور الكاظمية، بل تطور العراق كله إلى أبعد الحدود.

وعلى الرغم من كل هذه العوائق المانعة لأي تقدم وازدهار فقد سارت الكاظمية بخطوات ثابتة في طريقها نحو التقدم، وحافظت على كيانها الخاص خلال العهد الصفوي الأول، فالعهد التركي الأول، فالعهد الصفوي الثاني، ثم العهد التركي الثاني والأخير.

ولما تولى مدحت باشا حكم العراق جعل الكاظمية قضاءً يديره (قائمقام) بعد أن أضاف إلى حدود الكاظمية الإدارية بعض الأراضي والمقاطعات المجاورة.

وتوالت الإصلاحات على الكاظمية خلال مدة حكم مدحت باشا، وكان في طليعتها أمره بتأسيس شركة الترامواي لتسهيل أمر النقل بين الكاظمية وبغداد، ومدت سكة الحديد لمسافة سبعة كيلومترات بين كرخ بغداد والكاظمية، وكانت عربات الترامواي[1] تجرها الخيول.

وفي نحو سنة (١٣٢٠هـ) أمر المشير هدايت باشا قائد الفيلق العسكري السادس في بغداد بعمل جسر من الخشب عائم بين الكاظمية والأعظمية على نهر دجلة، وبذلك ارتبطت الكاظمية

---

(١) كان الترامواي يسمى (كاريات الكاظم)، وكان موقع محطته في نهاية سوق الاستربادي القائم إلى الآن في الكاظمية، وينتهي بمنطقة الجعيفر في كرخ بغداد.

بالجانب الشرقي من بغداد بعد أن ارتبطت بالجانب الغربي منها بواسطة الترامواي.

وفي يوم السبت ٢٤رجب سنة ١٣١٨هـ تم وضع حجر الأساس لبناء سراي الكاظمية، وأقيم احتفال بهذه المناسبة حضره الوالي نامق باشا والمشير أحمد فيضي وغيرهما من رجال الدولة والوجوه.

فلقد روى المنشي البغدادي إنه كان في الكاظمية سنة ١٢٣٧هـ ثلاثة آلاف بيت. ولو قدّرنا سكان كل بيت بما معدله خمسة أفراد كان مجموع سكان المدينة خمسة عشر ألف نسمة.

وضمت الكاظمية بين جوانحها مجموعة من المدارس الدينية التي تُعنى بتدريس العلوم الإسلامية، وكانت عامرة زاهرة بطلابها وأساتذتها وفي طليعتها مدرسة الفقيه السيّد محسن الأعرجي، المؤسسة في أوائل القرن الثالث عشر الهجري، كما ضمت البلدة عدداً كبيراً من المكتبات الضخمة الحافلة بنفائس المخطوطات وأمهات الكتب.

وإن صحّ ما يروى من تأسيس أول مطبعة عراقية حجرية في الكاظمية في سنة ١٢٣٧هـ، فإنّ ذلك يعدّ في صدر قائمة النشاط العلمي لهذه المدينة في النصف الأول من القرن الماضي.

وينتقل آل ياسين للحديث عن المواقف السياسية لهذه المدينة التي ولد فيها الوردي، فيقول:

«وكان أبرز مواقف الكاظمية السياسية: موقفها خلال الحرب

العالمية عندما هجم البريطانيون على البصرة، ووصلت برقية استنجاد من وجوه البصرة إلى علماء الكاظمية بتاريخ يوم الاثنين ٢٠ذي الحجة سنة١٣٣٣هـ، فأصدر العلماء أمراً بوجوب الدفاع عن كل مسلم.

ثم تواردت على الكاظمية وفود العلماء الزاحفين نحو المعركة من النجف الأشرف وكربلاء، وكانت البلدة تستقبل كلَّ واحد منهم بمنتهى الترحاب والتكريم وتودعه بمثل ذلك.

واحتل الجيش البريطاني الكاظمية في الساعة التاسعة الغروبية ودقيقتين من عصر اليوم السابع عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٣٥هـ، فطويت صفحة احتلال طويل لتبدأ صفحة احتلال آخر.

ولم تنقطع الكاظمية بعد الاحتلال البريطاني عن العمل الجاد في محاربته بكل ما أوتيت من طاقات وقوى مادية ومعنوية، بل كان لها من الدور الكبير في مكافحة المحتل ما حمل «المس بل» في رسائلها على وصف هذه البلدة بـ«المتطرفة في إيمانها بالوحدة الإسلامية، والمتشددة من مناوأة الإنكليز».

وحسبنا من نشاط الكاظمية السياسي في محاربة الاحتلال أن نقرأ ما كتبه الكاتب الإنكليزي «فيليب إيرلاند» إذ يقول ما نصه:

«وكان الشعور المعادي لبريطانيا في الكاظمية شعوراً قوياً جداً، فقد هدد العلماء جميع من يصوِّت للاحتلال البريطاني بالمروق عن الدين».

ثم حسبنا من ذلك النشاط ما ذكره مؤرخو الثورة العراقية الكبرى من سبق الكاظمية في العمل ضد الاحتلال، ومن طبع المنشورات الكاظمية وتوزيعها سراً بتوقيع (الجمعية الإسلامية العربية)، الأمر الذي أقضّ مضجع السلطة العسكرية المحتلة، فبثت العيون والجواسيس لمعرفة أعضاء هذه الجمعية فلم تقف لهم على أثر أو خبر».

هل ينكر الدكتور حسين سرمك أثر هذا التاريخ الطويل العريض المحكي في بيوت الكاظميين على نحو أساطير تتلقفها أسماع الأجيال من أفواه الشيوخ والعجائز، في بناء شخصية الوردي وأقرانه ومن جاء من بعده، ومن كان قبله ممن عاش في الكاظمية حتى يغفله أو يتغافل عنه في تحليله؟

إنّ الدقة العلمية هي رائد الباحث، والمدقق، والمحقق، والموّثق، والمحلل والراوية، وكاتب السيرة، وحتى الصحفي، وإنّ أيّاً من هؤلاء ينبغي أن لا يدير ظهره إلى مثل هذه المعلومات التي تعدّ أساساً في بناء شخصية أيّ إنسان، خصوصاً عندما تؤسطر له وهو صغير.

بين الشخصية العراقية والشخصية المصرية:

أريد لفت النظر إلى أمر يتعلق بموضوعة (الازدواجية)، فالدكتور سرمك، أراد أن يخلط الأوراق في هذا الموضوع، من خلال إيراده في تحليله لشخصية الوردي، قولاً للدكتور فاطمة حسين المصري استلّه من كتابها «الشخصية المصرية من خلال

دراسة بعض مظاهر الفلكور المصري – دراسة نفسية تحليلية أنثربولوجية».

تقول المصري: (لقد عالج بعض الباحثين المصريين موضوع الشخصية القومية المصرية فتبينوا أن كثيرين ممن تناولوا هذا الموضوع قد نسبوا للشخصية المصرية صفة التناقض، فكان على مؤلفي التربية – نقصد مؤلفي كتاب (التربية ومشكلات المجتمع) – أن يحللوا صفة التناقض البادية في الشخصية المصرية، ليوضحوا أن النظرة العابرة السطحية غير الباحثة المدققة سرعان ما تحكم بالتناقض، بينما عند الاختبار والدراسة العلمية تتضح صفة التماثل والانسجام في الشخصية ويبدو التكامل بين أجزائها، وذلك عن طريق افتراض طبع أصيل للشخصية القومية، ثم طبع اصطنعته الشخصية لتواجه به المواقف التي فرضت عليها. فقد عاش المصري ثلثي عمره الحضاري خلال خمسة آلاف عام ينعم بالحرية والسيادة، ثم قدّر له أن تحتل أ رضه كاملة على يد الفرس وهو منذ ذلك التاريخ بين سيّد ومسود يتشكّل ويتلّون تبعاً لمقتضيات الظروف والأحوال.

ومن هنا كان لا بدّ له أن يتّخذ قناعاً من صنعه، يتّقي به شرّ الأعداء، ويكسبه المرونة والكياسة عند الحاجة، فإذا ما خلا إلى نفسه فإنه ينزع عن نفسه القناع ليعود مصرياً صافياً نقياً طيّب القلب سمحاً كريماً).

إنّ الدكتور سرمك يحاول هنا أن يثبت أن التناقض الذي

شخّصته الدكتورة فاطمة حسين المصري في الشخصية المصرية، إنما هو الازدواجية التي شخصّها الوردي في الشخصية العراقية، وهذا بعيد عن واقع الحال، فالازدواجية التي يتحدث عنها الوردي لا شعورية، يمارسها الإنسان من دون أن يعلم بأنه ازدواجي، في حين أن التناقض في الشخصية المصرية شعوري، عندما يمارسه الإنسان يدري أنه يناقض تصرفاته الحقيقة، بدليل أنه «طبع اصطنعته الشخصية لتواجه به المواقف التي فرضت عليها». وأن المصري اتخذ «قناعاً من صنعه»، وأنه «إذا ما خلا إلى نفسه فإنه ينزع عن نفسه القناع ليعود مصرياً...إلخ».

وهذا كله يثبت أن هذا التناقض في الشخصية المصرية مصنوع لاتقاء شرّ الأعداء، وشتّان بين التقيّة والازدواجية، أو بين التناقض والازدواجية!!. مع أن الشخصية المصرية لا تخلو من ازدواجية.

إن الدكتورة فاطمة المصري لم تستطع تحديد مصطلح لما تعانيه الشخصية المصرية، ووقفت حائرة أمام مصطلحي التناقض والازدواجية، فهي خيرتنا بين المصطلحين عندما قالت بعد قليل: «إنهم يلتمسون في هذا الازدواج أو التناقض وسيلة وقائية أو دفاعية تسمح للمصري بالذود عن حماه...إلخ».

هل الوردي ازدواجي؟!

ورمى الدكتور حسين سرمك، الوردي بالازدواجية عندما عرض حديثه عن المواكب وطقوس عاشوراء، في حين أني لا أرى

أنّ الوردي كان له سلوكان في مواجهة هذه المواكب والطقوس العاشورائية، بل كان له سلوك واحد، وأنه كان يجاهر برأيه أمام العوام، وتعرض بسببه إلى القتل والأذى مرات عدة، حتى أنّ ثباته على موقفه اضطر العوام، في وقت لاحق، على احترامه بالرغم من معرفتهم بأنه يعارضهم في معتقداتهم، ولكنهم كانوا يكنون للدكتور حسين علي محفوظ، وهو تلميذ الوردي، احتراماً أكبر لأنه كان يجاريهم ويؤيدهم في معتقداتهم وطقوسهم.

حدّثني الأستاذ الدكتور عبد الأمير الأعسم أستاذ الفلسفة – الرئيس الفخري للاتحاد الفلسفي العربي في السابع عشر من كانون الثاني ٢٠٠٨ خلال لقائي به في العاصمة السورية، عن الأذى الذي أصاب الوردي من العوام.

قال: كان بيتنا قريباً جداً من بيت الوردي في مدينة الكاظمية، وهو البيت الكائن قرب جامع الهاشمي في الشوصة، وسمعته يحدّث والدي عن شرائه بيت الجنرال نور الدين محمود أحد رؤساء الوزارات في العهد الملكي، على رأس انقلاب الوصي عبد الإله عام ١٩٥٤ وأنه سينتقل إليه، وهو البيت نفسه الذي توفي فيه الوردي في الأعظمية، ولما سأله والدي: لماذا يا أبا حسان تبتعد عنّا؟. أجابه الوردي: ألا ترى هؤلاء العوام يأمرون أطفالهم بقذف قشور البطيخ والرقي عليّ في رواحي ومجيئي؟!

نفاق مكشوف:

يقول الوردي متحدثاً عن تداعيات دعوة السيّد محسن الأمين العاملي في الكاظمية بشأن المواكب والطقوس العاشورائية: «كان الصراع بين المعارضين والمؤيدين في الكاظمية شديداً، وقد شهدت في بعض الأحيان جماعة من العوام وهم يبحثون عن كل من يؤيد دعوة السيد محسن الأمين لكي يعتدوا عليه. ولا أكتم القارئ أني كنت من مؤيدي تلك الدعوة ولكني كنت أخفي ذلك في نفسي فلا أبديه إلاّ لمن أثق به. فقد كنت أخشى على نفسي من اعتداء القوم».

وبناءً على قول الوردي هذا، ساوى الدكتور سرمك، موقف الوردي بموقف رجل دين متحسب وصف المواكب والطقوس العاشورائية بأنها (لعب أطفال) ولكنه لا يجرؤ على إعلان موقفه منها أمام العوام.

يقول سرمك: (وإذا كان الوردي يتساوى في هذا الموقف مع رجل الدين المتحسّب حيث يتكتم على موقفه خوفاً من العوام في عشرينيات القرن الماضي حيث التخلف والتعصب الديني لدى العامّة، فما الذي يمنعه من أن يطرح رأيه بوضوح معلن وهو في تسعينيات ذلك القرن حيث منعت الحكومة الناس من ممارسة الطقوس الحسينية نهائياً وصار الجوّ مهيئاً له للإفصاح عن موقفه الرافض.

وفوق ذلك فقد كان ساكناً آنذاك في منطقة الأعظمية التي لن يهاجمه العوام فيها لأسباب معروفة، أي أننا قد نجد له ولرجل الدين عذراً في العشرينيات ولكننا لن نجد لهما مبرراً في التسعينيات، مبرراً مرتبطاً بالخوف والتهديد في هذا الموضوع تحديداً).

أودّ، قبل الرد على هذه النقطة، أن اذكّر الدكتور سرمك، أن الوردي في التسعينيات من القرن الماضي كان قد ولج الثمانين من عمره، وكان جور الشيخوخة قد بدأ يثقل عليه، والأمراض داهمته، ثم قضى عليه أحد هذه الأمراض منتصف التسعينيات، فكيف نطلب من رجل هذه حاله أن يشهر سيفه وكأنه ابن العشرين؟!!

إنّ الوردي لم يبرر لرجل الدين الذي يقول: إن المواكب والطقوس في عاشوراء (لعب أطفال)، موقفه، لأننا نعرف أن بعض المعممين يسايرون العوام في معتقداتهم، ويجارونهم فيها لاعتمادهم في رزقهم عليهم، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك يعزف العامة عن تقديم أموال الحقوق من خمس وزكاة وصدقات إليهم، وينصرفون عنهم إلى منافسيهم الذين يسايرونهم في معتقداتهم وممارساتهم، فمن أين يدبّرون، عندئذٍ، مصادر عيشهم، ومن أين ينفقون على مدارسهم ومؤسساتهم وطلبتهم وتدعيم مراكزهم؟.. وكيف سيطبعون كتبهم، أو يعيشون عيشة الرفاه التي اعتادوها؟

وأودّ أن أنبّه إلى أن موقف بعض علماء الدين من المواكب

الحسينية والطقوس العاشورائية ليس فيه أدنى ازدواجية، بل فيه نفاق مكشوف.

يقول الوردي في كتابه (من وحي الثمانين) الذي جمعته وعلّقت عليه: «إنّ النفاق وازدواج الشخصية صفتان مختلفتان، فالازدواج لا شعوري لا يدري به صاحبه في أكثر الأحيان. أما النفاق فإن صاحبه يشعر به وهو يتقصد القيام به عمداً من أجل كسب منفعة شخصية له. وهو يكثر في المجتمع الذي يسوده النظام الاستبدادي، وتضعف فيه الديمقراطية».

وإذا ادّعى أحد أن العراق يعيش، الآن، في ظلّ الديمقراطية، فهو واهم لأنّ النظام الديمقراطي لن يبني في ظلّ احتلال، ولن تنتعش فيه الميليشيات، وترتكب باسمه المفاسد، ويقتل الناس، ولا يفكر برلمانه إلا بزيادة رواتب أعضائه، أو مناقشة أمور بعيدة عن اهتمام الشعب، أو سنّ قوانين لا علاقة لها بهموم الناس.

ملاحظة مهمة:

ثمة ملاحظة مهمة تخص المواكب الحسينية والطقوس العاشورائية لابدّ من إيرادها، وهي أنّ علماء الدين في مجملهم متطابقون مع عالم الدين الذي قال: إن المواكب والطقوس في عاشوراء (لعب أطفال)، وقد قيّض لي الوقوف على ذلك من خلال علاقاتي مع الكثير منهم، بمن في ذلك مراجع عظام، إلاّ أنهم لا يجرأون على إعلان موقفهم، ولكني وجدت بعد احتلال العراق

في ٢٠٠٣ أن بعض المعممين، الذين كانوا لا يشاركون العوام في ممارساتهم العاشورائية، والذين إذا شاركوهم اكتفوا باللطم على صدورهم بهدوء، وجدتهم بعد الاحتلال يلطمون صدورهم العارية بقوّة، ويضربون على ظهورهم بالسلاسل، ويجرحون رؤوسهم بالسيوف، ويشاركون في أعمال الشبيه، وهذه ملاحظة يجب أن يقف عندها الباحث المدّقق طويلاً ويتأملها ويدرسها، فهي ربّما تشير، في رأيي، إلى أن هؤلاء العلماء أحسّوا بحاجتهم إلى استعطاف العوام وكسبهم عن هذا الطريق، بعد أن أخذوا يفقدون تأييدهم وعاطفتهم بسبب انخراط بعض المعممين في تأييد المحتل الغازي ومساندته للعملية السياسية التي جرّت البلاء على الناس، وبسبب ممارسات الأحزاب الإسلامية الطائفية التي فعلت ميلشياتها بالناس الأفاعيل!!.

ويظنّ الدكتور حسين سرمك، أنّ الوردي عندما قال عن الكتاب الذي ألفّه عن المواكب وطقوس عاشوراء: «هو الكتاب الذي لا أدري متى أقدر على إخراجه إلى الناس؟»، فإنما قال ذلك خوفاً من العوام!!..

والواقع إنّ هذا الظن ليس دقيقاً، فإن الوردي قصد من قوله هذا أنه منشغل بكتب أهم منه، خاصة كتاب (الشخصية البشرية) الذي كان يعدّه كتاب العمر، والذي أعلن أخيراً عجزه عن إنجازه بعد أن داهمته الشيخوخة، واستضاف جسده المرض، وإنه لم يقل ذلك خوفاً من العوام، كما تخيّل الدكتور سرمك.

إنـي أسـتطيع أن أقـول باطمئنـان كامـل إنـه علـى الـرغم مـن اعتراف الوردي نفسه بـأن فيـه شـيئاً مـن الازدواجيـة لانتمائـه إلى مجتمع مـصاب بالازدواجيـة إلا أنـه لم يكـن في موقفـه مـن عـالم الدين متحسباً، ولم يكن ازدواجياً أيضاً.

بين الوردي والخليلي:

وتنـاول الـدكتور حسين سـرمك التباين بين موقفي الوردي ابن الكـاظمية، وجعفـر الخليلي ابن النجف الأشرف، من المواكب الحـسينية والطقـوس العاشـورائية، مقـرراً أن موقـف الـوردي يحسب عليه، وأن موقف الخليلي يحسب له. ولو أن سرمك تأنى في إصـدار حكمـه وتعمـق في دراسـة موقـف الـرجلين لوجـد أن التباين بين موقفيهما طبيعي جداً، فالخليلي كان صحفياً يبدي رأيه في الظواهـر الاجتماعية، والـوردي كـان باحثـاً اجتماعيـاً بنظر إلى هذه الظواهر نظرة المدقق المحلل، فهو يدرس الظاهرة من جميع نواحيها بعناية فائقة، ثم يقول رأي العلم فيها لا رأيه المجرد.

أطلعني الدكتور عبد الأمير الأعسم أستاذ الفلسفة في جامعة بغداد في اللقاء الذي جرى بيني وبينه في دمشق في السابع عشر من كانون الثاني ٢٠٠٨ على حكاية تـدلل علـى دقـة الـوردي عنـدما يريد إصدار حكم على أمر أو ظاهرة أو معتقـد اجتمـاعي، فهـو يطلّع على كل ما يخص ذلك حتى لو كان في آخر الدنيا..

قال لي الأعسم:

«عرفت الأستاذ الوردي مؤلفاً منذ صدور كتابه (شخصية الفرد العراقي).. ولكنه أثار حفيظة الناس سلباً وإيجاباً بصدور كتابه (وعاظ السلاطين)، فكنّا وقتها شباناً في الدراسة الإعدادية، ثم التقيته في عهد الدراسة الجامعية، فكان أستاذاً بحق، وعندما كنت أحضّر الدكتوراه في جامعة كمبردج، كان يكتب الوردي لي يطلب مني شراء مراجع أوروبية فأرسلها إليه، وأتذكر أنه طلب مني شراء نسخة من كتاب صدر في تل أبيب عن عبد الكريم قاسم، وعندما أخبرته أن الكتاب قد لا يصله وقد تصادره الرقابة في بغداد، كتب إلي: أرسل لي الكتاب، ولا تنشغل باستلامه من البريد!! فعلمت أنه مدّبر أمره مع موظفي البريد»..

ومثل ذلك ما حدّثني به الشيخ جواد الخالصي، وكان الدكتور حسين سرمك حاضراً الحديث من أن أخاه الشيخ مهدي الخالصي قرأ مسودات أحد أجزاء (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) ونبّه الوردي إلى وجود وثائق في لندن بشأن قضية كان الوردي قد ذكرها في ذلك الجزء من الكتاب، فأرجأ الوردي طباعة الكتاب وسافر إلى لندن لجلب تلك الوثائق.

الوردي والباشا:

تناول الدكتور حسين سرمك، فيما تناول في تحليله قول

الوردي: «لولا وجود أنور باشا في تركيا في الحرب العالمية الأولى لكنت أنا الآن عطاراً في أحد أزقة الكاظمية أو كاتب عرائض فيها على أحسن حال».

لقد نعت سرمك، قول الوردي هذا بـ«التبسيط»، ولكني لا أرى ما رآه سرمك، وإنما أرى فيه عين الواقع، فلو أن تركيا لم تدخل الحرب لظلت على استعمارها للعراق، ولاستمر التخلف الذي فرضته عليه، وعلى الرغم من أنّ العثمانيين كانوا مستعمرين، وجاء بعدهم البريطانيون مستعمرين أيضاً، إلا أننا لا يمكن أن ننكر أن البريطانيين جلبوا بعض طلائع المنجزات الحضارية الحديثة، وعندما تأسست الدولة العراقية زاد دخول هذه المنجزات إلى العراق، والوردي أراد أن يقرّب الصورة إلى القارئ فاستخدم هذا الأسلوب في عرض الفكرة مقدّماً أنور باشا رمزاً للدولة العثمانية، ونحن لا يمكن أن نؤاخذ كاتباً على اختيار أسلوبه، خصوصاً وأن الوردي كان يكتب ما يشبه السيرة لحياته ولم يكن يكتب بحثاً أكاديمياً، كما أنه كان يكتبه في صحيفة وليس في كتاب.

وإني أسأل سرمك: لو بقي العثمانيون في العراق، هل كان يتاح للوردي وأضرابه أن يدخلوا المدارس الحديثة؟.. إنهم كانوا – في أحسن الأحوال – سيظلون يدرسون الدراسة التقليدية عند (المُلا)!!.

أما المثل الذي ضربه الدكتور سرمك، للتدليل على أن هناك من هو أكبر عمراً من الوردي، مثل الدكتور محمد مهدي

البصير، وحصل على شهادة عليا في ذلك الزمان وهو أعمى، فذلك مردود عليه، ولكي ينسف سرمك ما قاله الوردي يقرر: «وهذا ربط عجيب وغريب في تفسير الحوادث والبحث عن مسبباتها وربط العلّة بالمعلول، وهو يخالف أسلوب التفكير العلمي الذي دعا إليه الوردي طوال حياته. فنحن نستطيع تذكير الوردي بالعشرات من العراقيين من المفكرين والمبدعين المبرزين الذين ولدوا قبله بعشر سنوات ولم يكونوا بحاجة إلى حرب ليثبتوا ذواتهم ويرسموا مستقبلهم بإرادتهم العزوم. هل نذكّره مثلاً بواحد من أهم رموز العراق الفكريّة والسياسيّة وهو الدكتور المجاهد محمد مهدي البصير الذي ولد في عام ١٨٩٥ وحقق ما يشبه المعجزة، فرغم أنه كان خطيباً وشاعراً في ثورة العشرين واشتغل مجاهداً في العمل السياسي بين عامي ١٩١٩و ١٩٣٠، سجنه ومن ثم نفيه إلى جزيرة هنجام قرابة ثمانية شهور، سفره إلى فرنسا ونيله دبلوم الدراسات الفرنسية في جامعة موبلييه في شباط سنة ١٩٣٣ والدكتوراه في الأدب الفرنسي في ١٧كانون الأول ١٩٣٧.

وإذا أضفنا إلى ذلك أنّ البصير قد فقد بصره وهو في الخامسة من عمره سندرك عظمة الإنجاز الذي حققه، فهو لم يكن يحتاج إلى أنور باشا ولا إلى حرب عالمية وهو الدليل القاطع على أن الإنسان ليس كما يتصوره الوردي «ريشة في مهب الريح» تتلاعب به الحوادث وتعبث بمقدراته الظروف الخارجية. ولو كان الأمر

كذلك لكان هذا الطفل أعمى شحاذاً في شوارع الحلة مثلما توقع الوردي أن يكون عطاراً في شوارع الكاظمية).

قلت: إن هذا القول مردود على الدكتور سرمك، لأن الدكتور محمد مهدي البصير، كان سيكون إمام جامع أو شاعراً متسكعاً في أحسن الأحوال، وليس أستاذاً جامعياً مرموقاً، لو أن العثمانيين ظلوا على استعمارهم للعراق.

إن الدكتور البصير – باعتراف سرمك – نفسه لم ينل شهادة الدكتوراه إلا في عام ١٩٣٧، أي بعد ثلاث وعشرين سنة من اندحار العثمانيين في العراق.. فأين الغرابة، وأين العجب، وأين هي المخالفة في أسلوب التفكير العلمي لدى الوردي؟!!.

العطار القارئ:

وتعالوا أريكم عينة أخرى من تجنّي الدكتور سرمك على الوردي، أو أنموذجا من (العدوانية المسمومة) التي مارسها ضد الوردي، عندما يقول: «والأهم، الآن، أن الوردي سوف يقدم لنا وصفاً لسلوكه مع صاحب محل العطارة ينسف أسس نظريته القدرية، حيث يقول: (كنت مولعاً منذ طفولتي بمطالعة الكتب، ولكن العطار أستاذي المحترم كان يعتقد بأن الكتب هي شرّ ما يبتلى بها كاسب يجلس على باب الله، فالكتب في نظره لا تعطي خبزاً ولا تشبع جائعاً، إنه كان يريد مني أن أنتصب في جلستي متيقظاً أتصيّد المشترين وأقابلهم بترحاب ووجه بشوش،

بينما كنت في قرارة نفسي أكره المشترين، ولا يكاد يُقبل أحدهم على الدكان حتى أتمتم باللعنة عليه وعلى أستاذي معه، وكنت أنتهز فرصة غياب أستاذي عن الدكان لأنهمك في مطالعة الكتب. ولا أبالي آنذاك بمن يأتيني أو يذهب عني من المشترين، وكانت العاقبة أن طردني الأستاذ من دكانه شرّ طردة، أحمد الله على هذه الطردة، فقد استطعت بها أن أتفرغ إلى كتبي الحبيبة إلى قلبي، والمظنون أني لو بقيت عطاراً لكنت الآن في دار المجانين – والعياذ بالله!!».

ويقول الدكتور حسين سرمك تحليلاً لقول الوردي هذا: «إنّ الوردي يقوّض هنا – وقد يكون من حيث لا يدري، لا شعورياً بفعل ضغوط الحاجات النرجسية – كلّ ما طرحه عن كونه صنيعة الظروف وأن لا إرادة أو اختيار له في صنع ذاته. فها هو – وهو طفل غرّ – يرفض محاولات أمه لرسم مستقبله كعطار[1]، ويفرض «اختياره» الإرادي في القراءة ومطالعة الكتب معانداً «أستاذه» العطار الراشد، أي أن الوردي قد عاند الظروف الخارجية وأبطل فعلها وهو طفل بإرادته البسيطة فأين هي الدلائل، في حياته، على أنه كان ريشة في مهب الريح؟».

---

(١) يقول الوردي: (رحم الله أمي وغفر لها، إنها كانت تشتهي أن أكون عطاراً وأن أنجح في مهنة العطارة حتى أصير شيخ العطارين. لقد كانت معجبة بعطار غنيّ من معارفها، وكانت تريد منّي أن أتبع سبيله. وهذا كان من أسباب انفصالي عن المدرسة في صباي خمسة أعوام صرت في بدايتها صانع عطار، وأخفقت في "صناعتي" هذه إخفاقاً فظيعاً).

هنا يقوّض - سرمك- وليس الوردي – وقد يكون من حيث لا يدري، لا شعورياً، أسس مهمته البحثية، فقد كان الواجب أن يطلّع على طفولة الوردي وظروفها، وعلى أسرته وشؤونها.

إنّ الوردي كان فعلاً صنيعة الظروف في هذا أيضاً ولم تكن له إرادة أو اختيار في صنع ذاته، فهو ابن أسرة كاظمية يعمل معظم رجالها في مهن تتطلب الفن والإبداع، مثل الصياغة، والنجارة، وكان منهم علماء دين، وإذا كان هذا ليس مهماً، فإن المهم هو أنّ رجال الأسرة ونساؤها يقرأون ويكتبون في مجتمع الأميّة فيه فاشية، وكانت الكتب والمخطوطات تتوفر في روازين بيوت هذه الأسرة ورفوفها.. إنه من عائلة قارئة.. فأين الغرابة؟..

إنّ ظروف أسرته وحبّها للكتاب هو الذي قاده إلى حبّ الكتاب والقراءة، وهو لو لم يكن ابن هذه الأسرة لصحّ أن نقول إنه عاند الظروف وإرادة أمه وأستاذه الذي طرده من دكان العطارة شرّ طردة، وصنع ما صنع بإرادته. أما وقد ولد في أسرة لا يفارق الكتاب أيدي أبنائها في أوقات فراغهم وجلّهم من الشعراء العلماء، فإن الأمر سيكون مختلفاً، وسيكون الوردي ابن ظروفه فعلاً!! فأين هي النظرية القدرية التي نسفها الوردي، كما قال سرمك؟.

التركيز على السلبيات:

ويعرّج الدكتور سرمك على تركيز الوردي على النواحي السلبية في المجتمع دون الالتفات إلى النواحي الإيجابية، ويؤاخذه

على ذلك، وكان الوردي يقول إنّ الناقد مثل الطبيب يشخّص المرض في جسم المريض ليضع له العلاج المناسب، ولا شأن له بغير المرض.. وجهة نظر قد تكون صحيحة ونحن نلوم!!..

أبرئ الوردي ولا أبرؤه:

جابه الوردي مجتمعه الخارج توّاً من ظلمة العهد العثماني والمتمسك بتقاليده وعاداته، التي لم تعد تواكب العهد الجديد الذي عاشوه، وأحدث ما يشبه الهزّات الانفجارية فيه، وقد هدّد مراراً بالقتل، ولكنه مع ذلك كان (أول مؤلف عراقي واسع الانتشار إلى الحدّ الذي كانت طبعات كتبه تبلغ عشرة آلاف نسخة! وسبب ذلك أنه لم يكن يكتب للأكاديميين فحسب، بل قصد أيضاً إلى عامة الناس الذين اعتقد الوردي أنهم مادة المجتمع وحركة التاريخ. وهذا ما حشد له جمعاً هائلاً من الحسّاد والخصوم من كل اتجاه، فقد أفصح عدد من المثقفين عن تقاطعهم التام مع فكره ومنهجه، كما فعل التربوي المعروف عبد الرضا صادق، وآخر من آل الورد «من أقاربه الورديين في الكاظمية».

كذلك تصدى له رجال الدين، وفي المقدمة السيد مرتضى العسكري الذي مثّلهم في الرد على الوردي باعتبار أن أفكاره تشاكس رجال الدين. والصحيح أن أفكار الوردي كانت لا تعرف المهادنة مع السياسيين والمثقفين والدينيين والشخصيات

الاجتماعية!).

كما قال لي الأستاذ الدكتور عبد الأمير الأعسم أستاذ الفلسفة الرئيس الفخري للاتحاد الفلسفي العربي.

لقد كان علماء الدين يصرخون على منابرهم بعد صدور كتاب الوردي (وعّاظ السلاطين) قائلين: (إن أسباب الفساد في البلد ثلاثة: الخمر، والميسر وعلي الوردي..!!).

وقال لي الدكتور الأعسم أيضاً: (إنّ المرحوم الوردي تعرّض للمضايقات من الاتجاهات الاجتماعية المختلفة(!!) وأثناء غيابي عن العراق للدراسة (١٩٦٨ – ١٩٧١)، ازدادت الضغوط على حركة الوردي، فكانت الحكومة تراقبه وتترصد أفكاره، وكان خصومه يفعلون ما يريدون من تشويه لأقواله بلا محاسبة.

وكان اضطهاد الوردي ليس من عامة الناس، بل من المثقفين الراديكاليين من رجال الكاظمية، فكان يحتدم الجدل بينه وبينهم بلا طائل!).

وأضاف الأعسم: (إنّ الوردي ترك العمل في قسم الاجتماع – الذي انتسب إليه سنة ١٩٥٠ – بالتقاعد سنة ١٩٧٠ بعد إساءات من زملائه، حتى أثخنوه بجراح اتهامات باطلة، منها (أنه كان طائفياً، ولكن كتبه تشهد على أنه كان علمانياً من طراز المستنيرين. وأنه كان باطنياً يكتب شيئاً ويبطن شيئاً آخر، وهذا افتراء على الوردي وفكره، ...إلخ!! فقد كان الوردي لا يفاضل بين

الرجال ولا مدنهم وانتسابهم العقلي أو المذهبي، ولم يكن إلا صوت ضمير حيّ صدر عن عقل مستنير افتقر له معظم معاصريه).

وفي ملتي واعتقادي، أن الوردي (لو) كان قد ولد في غير مجتمعنا.. في مجتمع متقدّم متفهم متعلم يحاوره ويناقشه ويجادله ويتفهمه؛ لما كان لآرائه كل هذا الصدى، ولما حصد كل هذا الصيت وهذه الشهرة.

وأعتقد أن الدكتور حسين سرمك يتفق معي على أن أسلوب الوردي في البحث والدراسة، وإنزاله البحث الأكاديمي من برجه العاجي ليكون في متناول الجميع هو الذي أوصله إلى قلوب الناس من مؤيدين لطروحاته ومعارضين، والذين أصبحوا يرددون نظرياته وفرضياته وذهبت بينهم كالأمثال، فإذا طغت على أسلوبه بنحو صارخ (علامات التهكم والسخرية)، التي يرى سرمك أنها تصل إلى (درجة التشفّي)، والتي يقول عنها بالنص: (وإن هذا يعني طغيان الانفعالية الذاتية على النظرة الموضوعية)، فذاك لأنه أسلوب وردي خاص شقّ أمامه الطريق إلى قلوب قرائه بسرعة، وجعلهم يتفاعلون مع أفكاره وطروحاته غير المسبوقة.

أسرار اللا شعور:

وألتمس من القارئ النبيه عندما يقرأ تحليل الدكتور حسين سرمك لشخصية العلاّمة الدكتور علي الوردي أن يضاعف انتباهه عندما يصل في التحليل إلى الحلم الذي رآه – سرمك – في نومه

وثبّته في التحليل عن زيارة الوردي إلى بيته وهو لم يرَ الوردي في حياته.

إنّ هذا الحلم أخرج ما ينطوي عليه اللا شعور، لدى سرمك، على حقيقته، وبما أني – كما قلت – لست مختصاً بعلم النفس، فإني أحيل هذا الحلم إلى علماء نفس مختصين ليحللوه ويستخلصوا منه النتائج، وربما سيقودنا تحليل مفردات الحلم، إلى تحليل حقيقي لتحليل الدكتور سرمك لشخصية الوردي ونفسيته، وعند ذاك سنتعرف على المرامي الحقيقية لتحليل – سرمك – للوردي، ونحصل على الشفرة التي تفك مغاليق ذلك التحليل كله.

بين المعري والوردي:

كرر الدكتور حسين سرمك في تحليله النفسي للوردي أن الوردي كان يجلد ذاته ويقرّع مجتمعه، في حين أني أجد أن الوصف الذي وضعه الدكتور طه حسين لأبي العلاء المعري ينطبق تماماً على الوردي.

يقول طه حسين[1]: (وقد كان أبو العلاء سيئ الظنّ برأيه، وهذه آية التواضع ومعرفة الإنسان قدر نفسه. وكان أبو العلاء سيئ الظنّ بالناس محبّاً لهم مع ذلك رفيقاً بهم، ينصحهم ما وجد إلى نصحهم سبيلا، يلين لهم حيناً ويعنّف بهم أحياناً، وهذه آية

---

(١) طه حسين – صوت أبي العلاء – دار المدى للثقافة والنشر – ٢٠٠٧ – ص٧.

الفطنة وذكاء القلب والتعمق لحقائق الأشياء. وكان أبو العلاء سيئ الظنّ بالتاريخ، وبما يسميه الناس خلوداً في التاريخ، وكان أبغض شيء إليه أن يُقدم الإنسان على الخير ليُذكر في حياته أو بعد موته بأنه خيّر، أو يحجم الإنسان عن الشرّ ليذكر في حياته أو بعد موته بأنه تقيٌّ نقي، إنما كان أبو العلاء يحبُّ أن يُقدِم على الخير لأنّه الخير، وأن يحجم عن الشرّ لأنّه الشر، لم يكن يكره شيئاً كما يكره انتظار الجزاء. كان عفيف النفس والخلق والرأي والعقل جميعاً. ومن أجل هذا لم يكن حلو الأثر في نفوس الذين يعرفونه ولا يألفونه، ولم يكن عذب الصوت في آذان الذين يسمعون له دون أن يطيلوا الاستماع إليه، ولم يكن محبّب النفس إلى الذين يتصلون به، فيرون منه هذه الخشونة التي تأتي من صراحة الخُلق، وهذه الغلظة التي تأتي من إيثاره للحقّ).

أبريء الوردي ولا أبرؤه:

إني أبرئ شيخي وأستاذي الوردي – رحمه الله – من العدوانية، أو العدوانية المسمومة التي جاء ذكرها في تحليل الدكتور سرمك، فمن حارب كل عمره الظلم الاجتماعي لا يمكن أن يكون عدوانياً في حال من الأحوال.

ولا أبرئ الوردي من الازدواجية، فهو نفسه لم يبرئ نفسه منها لأنه كان يعي بأنه نتاج هذا المجتمع، وإن كان حاملاً راية الإصلاح والاستنارة فيه طوال القرن العشرين.

قد تكون الملاحظات التي ذكرتها هنا قاسية بعض الشيء على صديقي الدكتور حسين سرمك، إلاّ أنها لن تنال من موضوعيتها..

وأترك للقارئ أن يكون حكماً بيني وبين سرمك من جهة، وبين سرمك والوردي من جهة أخرى.

وختاماً، أبلغني سماحة آية الله الفقيه الشيخ الدكتور عيسى الخاقاني قول الدكتور عبد الله النويس وزير الإعلام الأسبق في دولة الإمارات العربية المتحدة، وهو ينتهي من قراءة كتابي (من وحي الثمانين): «إنّ هذا الرجل – الوردي – عظيم، أراد أن يصلح قومه فأضاعوه!!..».

دمشق في ٢٠٠٨/١/٢٤

الفهرس